

دار الشهد للنشر والتوزيع

أحاديث المساء

عزة مختار



اسم الكتاب: **أحاديث المساء** .

اسم المؤلفة: **عزة مختار** .

المدير العام: **نهى محمود** .

مدير التوزيع: **مصطفى عبد القادر** .

تصميم وإخراج فني: **همت العزب**.

تصميم الغلاف: **دعاء السيد** .

التصحيح اللُغوي: **أولي النُهى للتصحيح اللُغوي** (**نهى محمود**) .

الطبعة الأولى: **٢٠١٧**

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية: **٢٠١٧/٢٣٩٣٤**

الترقيم الدولي: **٣-١٦-٦٦١٠-٩٧٧-٩٧٨**





١٧ش حسن وهبة من شارع الهرم الرئيسي

خلف كايرو مول.

موبايل / ٠١٠١٤٦٢٤٢٨٨

البريد الإلكتروني:

Nohamahmoud.171186@gmail.com
elshahdpublishing2016@gmail.com



تلك ليست حروفي..

وإنما هي أيامي أنسجها كلمات..

فإن رأيتم مني سعادة فأنا حتمًا كذلك..

وإن رأيتم مني همًّا فلا تقربوه؛

فهو بعض همي وبعض الضنى بقلبي..

ولم توجد لغة بعدُ تعبر عن ذلك الكم لديَّ

ولديكم.....



إهداء

إلى أبطال حكاياتي..
إلى كل امرأة سطرتها في تلك الصفحات..
لم تعرف العيش إلا من خلال حلم عابر..
حلم خاطَبَتْ فيه مشاعرها الدفينة وقد حَسِبَتْ أنها ماتت مع الآلام المتوالية والأيام الغابرة..
خاطَبْتُ فيه الضمائر المُتبقية في بعض القلوب الضامرة..
خاطَبْتُ فيه الغد الذي لم يأتي..
ولن يأتي..إليها......
وإلي كل صاحب حلم لم يعرف الحياة إلا من خلاله حتي لو كان حلمه بضع لحظات استغرقت سنوات العمر وطغت عليها..

منهم من يصرخ في أحلام الغد المهزوم:

"ولكن هل هناك حلم نلمسه بأيدينا ونضمه بجوانحنا؟، وَهْمٌ نلمح الحنان والحب في عينيه؟، هل هناك رغبة مكبوتة تتجسد في دفء يضمنا وأمان نشعر به؟

ومنهن من تصرخ صمتًا في أوراقها المبعثرة:

"كيف هو شعور المظلوم حين لا يستطيع أن يُظهر دمعة حزن تحرق عينيه رُغمًا عنه، وحين لا يستطيع إلا أن يبتلع مرارة وغصة وحُرقة في حلقه، وحين يكون واجبًا عليه مع كل هذا أن يبتسم، تلك الابتسامة التي ترتعش فيها شفتاه من شدة ألمه، وترتعش فيها عضلات وجهه وحتى صوت ضحكاته المكلومة، حتى عينه يحاول أن يخفيها كي لا تنفجر بالألم مُحدثة ضجة حوله يخجل أن يُظهرها، كل الآلام يجب أن تختبئ الآن خلف ابتسامة باهتة مُرة حارة، الجرح في القلب وإلى القلب مرتد، إنهم الأحبة الذين ظلموا، وإذا حاولت أن تنطق بكلمة أو تبوح أو تشكو فهو جرح آخر يرتد لقلبك، فهم حبات القلوب، تحمل بقوة، واصبر صبرًا جميلًا، واصمت بحب عسى أن تأتي بهم الأيام إليك نادمين".

ومنهم التائه في ربوع بلاده المحبوسة:

كعصفورين حبيسين انطلقا داخل القفص سارا في الشارع، الأبواب كلها مغلقة في وجهيهما، الأطفال ما زالت تلهو، والناس تروح وتجيء والباعة ينادون الإعلانات مُلصقة على جدران السينما، وهذا هو المسجد الكبير العتيق وهذا هو المنبر العالي، المسجد خالٍ والباب مفتوح، الباب الوحيد المفتوح في القفص، وقفا أمام بابه وألقوا نظرة على الشارع المائج ودخلا المسجد".

وبعضهن هائمة تهذي:

"ماذا دهاني؟ أهرب من الدنيا وأهرب حتى من نفسي لأصطدم بها في مواجهتي لتأخذني إلى طريق واحد، طريق أخشاه، بل يُرعبني السير فيه.

أخاف عليك ربما حتى من نفسي وأضن بك حتى عليها، أشعر بالأمان والسعادة والدفء في الحديث عنك، والقراءة لك، والقراءة عنك.

حاولت أن أبتعد فما أجد إلا أنني أُسرِع في الاقْتراب..
حاولت التناسي فما أجد سوى أنني أفرغ عقلي وقلبي من كل ما هو دونك.
حاولت أن أجد مهربًا منك فما وجدت سبيلًا سوى الهروب إليك، يُسعدني الأمر وقتًا ويُحيرني أوقاتًا أخرى، إن كان الأمر داءًا فادْعُ لي بالشفاء، وإن كان غير ذلك فعلمني كيف أواجهه وكيف أقوده ولا يقودني".
فإلي هؤلاء وغيرهم وغيرهن أهدي كلماتي، عسى أن تحيا بعض الوقت وتجد مُتنفسًا بعدما ضاقت بها صدور الأحباب.
□

عزة مختار

تقديم



في انتظار الفجر..

قراءة في "أحاديث المساء" للكاتبة عزة مختار..

أ.د خالد فهمي -كلية الآداب-جامعة المنوفية..

(١) مدخل: أحاديث المساء الروح الوجدانية تُحلق فوق عالمنا!!

إن فحص بنية النصوص الإسلامية التي تنزَّل المساء في استعمالاتها لغرض من الأغراض توحي بعدد من الدلالات المشعرة بسبقه على ميزان الزمان، يقول تعالى: (فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ) [الروم: ١٧].. وهو بهذا مُختلف بدرجة ما عن المساء في الاستعمالات الشعرية والأدبية المعاصرة التي تأثرت بالمذاهب ذات المنزع الرومانسي الغربي، التي صبت عليها روحًا من الأحزان واقتربت بها من حدود اليأس.

لكن التصور الإسلامي يجعل منه البداية والارتياح والسكن؛ فالزمان الإسلامي الذي يُولد مع بدايات الليل يرتبط به، تتولد منه الاستعدادات لجلائل الأعمال، وفيه يترقب المُتعبون طلوع نجم الارتياح، في هدأته يكون بعض السكن، وفي عمقه تكون مناجاة كل ذي حاجة.

وهو في استعمال عزة مختار جماع بين الروح الوجدانية التي ترتاح مع مقدم المساء؛ فتكون شفافة وتكون مجلى لآثار التأمل ومراجعة منجز النهار في السعي في دروب الحياة، وفيه فرصة للتخفي والتحلي مع من نحب ونألف بحثًا عن الرحمة المفقودة التي تُحلق فوق عالمنا، وترنو إلى من يقتنصها ثم يستنزلها بحقها إلى عوالم الأرض.

(٢) أحاديث المساء: مقالة في الانتماء المعرفي:

إن كتاب عزة مختار: **"أحاديث المساء" مُتنازع الانتماء؛ أي يتنازعه أكثر من حقل معرفي؛ بسبب موضوعاته وغاياته وتصميمه لكنه في المقام الأظهر كتاب في فقه الدعوة من منظور وتصميم جديدين إلى حدٍ ما.**

هو كتاب في فقه الدعوة بتحكيم الغايات والمقاصد إذ يسعى إلى تصحيح مجموعة من المفاهيم ران عليها ونال منها غبار الانحراف الذي أصاب أفهام الناس فضلوا فيها على الرغم من توافر نصوص المرجعية الحاكمة الواضحة بشأنها.

ومع ذلك الانتماء المعرفي الظاهر فالكتاب صالح لأن ينتمي إلى المجالات المعرفية التالية:

أولا: علم اجتماع الدعوة:

إنه كتاب يستهدف تصحيح أنماط سلوكية في أوساط الملتزمين، بعد تصحيح المفاهيم الحاكمة عليها بالعودة إلى الكتاب والسنة والسيرة، صحيح أن الكتاب مسبوق بمحاولات شهيرة على هذا الطريق من مثل كتابات محمد أحمد الراشد: "تقرير ميداني"، "فضائح الفتن"، و"نحو المعالي"، و"معًا نتطور"، وكتابات المرحوم عباس السيسي رحمه الله الأخلاقية الاجتماعية من مثل: "الذوق سلوك الروح"، لكنه يبقى متمايزًا عن هذه المحاولات بتصميمه الأدبي ولغته الشعرية القصصية معًا، وهي التقنية الجديدة التي جاءت تطبيقًا للقاعدة النبوية الشهيرة "ما بال أقوام".

ثانيًا: التربية الأخلاقية العملية (السلوك):

وهو أمر ظاهر من موضوعات الكتاب.

ثالثًا: الأدب:

ذلك أن تصميم الكتاب جاء على محورين هما:

محور يتخذ من التكثيف واللغة الشعرية مدخلًا للموضوعات.

محور يتخذ من القصة القصيرة أصلًا يبني عليه لبيان المشكلة، ويتذرع به إلى علاجها.

رابعًا: المُراجعات الفكرية:

الكتاب بحكم الغاية والمعالجة يصلح مثالًا على المراجعات الفكرية التي يُجريها الشباب الإسلامي، وهي المُراجعات التي بدأت تتلمس طريقها نحو النور على هدي من المحنة العاصفة التي أصابت أبناء هذا التيار في الوقت الراهن.

وهو من أجل ذلك كتاب يستمد أهميته بأنه يُلبي حاجة مُلحة للمسلم المعاصر.

(٣) أحاديث المساء: من خطاب الاستلهام إلى خطاب الإبداع.

لقد استقر لديَّ أن أحاديث المساء لعزة مختار كتاب في فقه الدعوة من منظور إبداعي أدبي تصميمًا ولغة، وهذا الأمر يدفعني إلى فحص مجموعة من الملامح استثمرت الاستلهام وحققت الإبداع.

وتتلخص هذه العلامات فيما يلي:

أولاً: جودة التصميم وجدته.

صممت عزة مختار الكتاب ليصل إلى قارئه النوعي المتنوع، فبدأت بالتكثيف المتمثل في السطور ذات النفس الشعري لمن يأنس إلى الإيجاز ويكتفي به، وتحمله نفسه العجول ومشاغله المُلهية عن قراءة النصوص الطويلة الصافية، وكتبت لذلك الذي يحمله عقله على التأمل والسياحة في فضاء المسكوت عنه، ثم ثنت بالقصة القصيرة إيناسًا للروح التي يأسرها الحكي، ثم ختمت بالتحليل والتأويل والبحث في الظاهرة موضع التوتر والإشكال.

ثانيا: القدرة البيانية.

على الرغم من التصميم الأدبي للكتاب فإن الطاقة البيانية المتلبسة بالوضوح ماثلة فيه لأسباب هي:

استثمار تقنية التضاد، فكثير من المقطوعات ذات النفس الشعري مصممة على استثمار بنية التضاد الذي يرصد ألم الواقع وتشوهه ويرمي إلى نقاء المستقبل واتساقه، تقول مثلا:

حين نبتسم مرارة/ ونضحك دموعًا/ وتنطق حروفنا آهاتٍ.

وتقول:

لا تحسب أن ذكورتك قوة/ ولا أن أنوثتي ضعفاً.

إشعاع الروح الوجدانية العاطفية.

لقد اكتسبت الكاتبة قدرتها البيانية وأثَّرت في نفس المتلقي باستثمار عدد من النصوص التي تُشيع في النفس نوعًا من السكينة والرضا والجلال وهو الظاهر مثلًا من توظيف المناجاة ذلك الفرع العريق المتمدد في تراثنا المكنوز تحت ما يُسمى بأدب الدعاء وهي ساعة تستثمر المناجاة (الدعاء/ أو الابتهال) تسعى إلى الإحياء الجديد للنفس المُسلمة المُعاصرة فتُحقق الوصل ما بين السماء والرجاء.

ويدخل في هذه التقنية ويخدمها إيثار اللغة الهادئة الهامسة التي تبعث على التأمل وتستعيد القدرة على فحص مشكلات العالم في هدوء وتؤدة، تقول:

في طريق الرحيل/ تجوب الروح في دروب الذكريات باحثة عن أحاديثهم القديمة/ علَّها تصحب معها بعض السلوى في غربتها الجديدة.

وقد تحققت أجواء الهدوء والسكينة في هذا النص من توظيف حروف المدِّ التي طالت كل كلمة من كلمات النصِّ وتكررت (ستة عشر مرة).

ج- إيثار المعجم الشفاف.

ثمة ما يُعرف في المعجمية الحديثة باسم المعجم الشفاف، ويقصد به الألفاظ ذات الدلالات الواضحة غير الضبابية، والمُعجم في هذا الكتاب شفاف بلوري واضح، وهذه السمة تحققت له بفضل أمرين:

الأول: وضوح مُشكل الكتاب في عقل الكاتبة ووجدانها ربما لدرجة تُمكنني من القول أنها صدرت فيما صدرت عنه بسبب معاناة ظاهرة وتجربة ذاتية مستولية.

الأخير: الانتماء الفكري للكاتبة، فالانتماء الحقيقي للإسلام باعث على الارتباط بالتفهيم وأداة التفهيم الأولى المعجم البلوري الشفاف.

ثالثًا: التوجه نحو التأثير والإقناع معًا:

وفي معالجة عزة مختار نزوع نحو التأثير(خطاب الوجدان) والإقناع (خطاب الفصل)، وقد خدمت هذه الثنائية بمجموعة من التقنيات تمثلت فيما يلي:

- التنوع الأسلوبي.
- التنوع في العرض بالتكثيف والقص والتحليل والبحث.
- التنوع في الاستشهاد قرآنًا وحديثًا وشعرًا ومواقف ونقولًا.

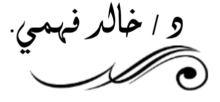
عصرية القضايا والمشكلات مثل قضايا الحرية والاعتقال والشهادة في تجلياتها المعاصرة وازدراء الأنوثة والعنصرية البغيضة.

إن المرأة التي ظلت مجازًا بامتياز في تاريخ الشعرية العربية منذ امرئ القيس تتجاوز منطقة استثمارها المجازي اليوم لتتكلم هي، إن المرأة تتحول من مجاز إلى حقيقة.

وعـزة مختـار وإن لـم تكـن أول إنسـان يصـنع هـذا التجاوز فإنها تُمثل صوتًا خصبًا باعثًا على الأمل الحقيقي يُدهشنا ويُمتعنا ويُعيد طرح أدلة جديدة على أننا عشنا زمانًا طويلًا متورطين في إقصاء صوت النساء!!

اسمعوا لعزةَ.

اسمعوا لكل عزةَ قبل فواتِ الأوان.



فقه المعاملات الإنسانية

لا يستطيع أحد أن يحكم على الأمور دون تجربة خاصة، أو أن يعيش تجارب الآخرين ثم يتجرد تمامًا من أي هوى كي يستطيع أن يحكم على أمر ما.

ويبدو أن الله ﷻ لم يخلقنا على هيئة واحدة، وأقصد بالهيئة الاتجاه النفسي والاستعداد للتحمل والميول القلبية والعقلية، وكل ما هو من مكونات الإنسانية.

فمنا من يطيق حياة معينة ربما لا يطيقها الآخر، بل يتعجب كيف يحتملها، وذلك ما ينم عن قدرة الخالق وروعة الخلقة، وإذا طبقنا هذا الكلام على ما ذكرته في البداية فلن يصح أن تأخذ تجربة إنسانية وتُعممها على الجميع مهما كانت درجة اكتمال عقلية صاحب التجربة، ومهما كانت درجة ثقتنا به وذلك لشيء هام وهو عدم تطابق النفوس البشرية، فهي ليست منسوخة نسخ كربونية.

فكل إنسان له خصوصيته، وله ما يحيط به من ظروف حتى لو تطابقت مع ظروف الآخر، فالجوهر ليس واحدًا. ومن ذلك فالحل ليس بالضرورة أن يكون واحدًا، وقد تعلمت من ذلك ألا أحكم على المشكلات إلا على حدة.

وحتى أوضح ما أرمي إليه، إلينا مثالان:

امرأتان في نفس الفئة العمرية، في نفس المستوى التعليمي والثقافي والمادي، عاشتا حياة طيبة، كلٌ منهما أحبت زوجها، وعاشت في كنفه في ظل المودة الأسرية والحنان الفطري بين الزوجين، مات كلا الزوجين....

الزوجة الأولى..

تلقت الخبر بصورة عجيبة، وهي التي كانت بجواره أثناء مرضه جزعة خائفة توقفت كل مشاهد الدنيا أمام عينيها على صورة واحدة فقط، وهي صورة زوجها الذي يُعد نفسه للرحيل وقد طويت الدنيا كلها خلفه بما فيها هي وأبناؤها الصغار، الآن، وقعت الواقعة وحدث ما كانت تخشاه، بل وما كانت لا تتصور يومًا أن يحدث، إذ كيف تحتمل حياة بغير نصفها الآخر، الذي ما فارقها يومًا وما فارقته!

احتسبت حين سمعت الخبر، وبكل قوتها التي ادخرتها سنوات العيش معه معتمدة عليه وحده؛ حملت كل آلامها في صدرها وخبأتها عن كل البشر ودخلت على جثمانه تودعه، ثم شمرت عن ساعديها، وأغلقت عن أبنائها باب الحاجة واحتضنتهم، وقررت أن تُكمل المسيرة خلفه.

الزوجة الثانية..

انهارت، لم تحتمل لحظة واحدة بعد سماع الخبر؛ فقد كانت تهيم به حبًّا مثلها في ذلك شأن الزوجة الأولى، غابت عن الوعي تمامًا، ومن طبيب لطبيب، حتى صارت عالة هي وأبناؤها، وحملًا ثقيلًا على أهلها.

هي إذًا نفس الظروف الحياتية، ونفس الحدث، ونفس الإمكانيات المادية، غير أن الذي اختلف هو ذات الإنسان هنا وهناك، فاختلفت عملية التلقي للحدث تبعًا لاختلاف طبيعة النفوس لا طبيعة الظروف.

وذلك هو حال البشر أمام الأحداث حتى لو تشابهوا في الظروف والمعتقدات، فأنت- أبدًا- لا تستطيع أن تتوقع كيف هو رد الفعل إلا إذا فقهت طبيعة تلك النفس الداخلية، وما بين ما نسميه ضعفًا وما نسميه قوة درجات متفاوتة من التحمل، ودرجات متفاوتة من العطاء والتلقي

ولذلك فعلى المتعاملين مع القضايا الإنسانية مثل التربية والإصلاح الأسري والمؤسسات التعليمية التي مهمتها تقديم خدمة لفئات معينة؛ أن يكونوا مُلمِّين إلمامًا كافيًا بتلك المعاني، فالبشر ليسوا آلات متشابهة يوضع لها قانون واحد ويتم توجيههم بنفس الطريقة، ولو أعطى الطبيب نفس الدواء لكل المرضى؛ لتدهور معظمهم ـ فضلًا أن تنتهي حياة بعضهم.

وقد راعى المنهج الرباني في التشريع تلك الفروق الإنسانية بوضوح، فقد تعددت العبادات وتعددت أبواب القربى من الله ﷻ، وأقصد هنا النوافل ـ فمن الناس من يحب الاقتراب من باب قيام الليل، ومنهم من يتيسر له باب الإنفاق، وهناك الذين يتوقون إلى الجهاد..، وهكذا.

وخطاب النبي ﷺ الذي وجهه لقومه يتضح فيه التنوع والاختلاف في التوجيه من شخص لآخر، بل متنوع في التناول لنفس الشخص في أوقات ومناسبات مختلفة، وتلك براعة لم يتوصل لها علماء النفس إلا مُتأخرًا، وهي أن الإنسان يُمكن أن تختلف طبيعته تبعًا للتأثيرات الواقعة عليه، ومن التاريخ تتضح لنا تلك الرؤية في موقفين من حياة الصحابة الكرام رضوان الله عليهم جميعًا، ففي يوم وفاة سيد المرسلين محمد ﷺ نجد تضاربًا شديدًا بين شخصيتي أبي بكر وعمر، أبو بكر الإنسان الرقيق الذي ما استطاع أن يُصلي بدلًا من حبيبه محمد ﷺ واختنق بالبكاء، وعمر الصلب الذي أشار على المصطفى بقتل أسرى بدرٍ، نجد ذلك الإنسان الرقيق القلب يقف كالأسد المغوار ثابتًا قويًا لا يهتز.

ويقول: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله؛ فإن الله حي لا يموت، بينما في الجانب الآخر عمر القوي الشامخ نجده وقد خارت قواه، بل ويهدد من يقول بأن الرسول قد مات، ويُعنفه أبو بكر بشدة، وموقف آخر يوم حروب الردة نجد أن طبيعة أبي بكر قد تغيرت تمامًا فيتبنى الموقف الشديد مع المرتدين، بينما عمر القوي الحازم يتبنى المُهادنة والتريث في ذات الوقت الذي يعمل كل منهما في مصلحة الإسلام بكل كيانه.

إن النفس الإنسانية للمتعاملين معها والمهتمين برُقيها، لها مفاتيح ومداخل يجب التعرف عليها وفقهها؛ كي تصل بها لبر الأمان، وما يُراد لها من رب العالمين، ويجب أن يكون الدعاة هُم أشد الناس حرصًا على معرفة أغوار تلك النفس؛ ليسهل التعامل معها.

ومن ينسى؟

ومن يستطيع أن ينسى؟

إرهاصات الحب الأول..

يُمسك بين يديه الهاتف، وينظر إليه نظرة الحائر الخائف الملهوف، ينظر إليه وكأنه بين لحظات سوف يصل عن طريقه إلى حلم عمره ليجده أمام ناظريه حاضرًا، حلمه الذي كان صلته الوحيدة بالحياة والأحياء، يتحسسه بأنامله كمن يتحسس طفلًا صغيرًا يحبه، بل ويعشقه، متلهف على طلب الرقم الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم يلغي ما بدأه بضغطة زر الإلغاء، ثم يعاود ما قام به مرات، يضع الهاتف جانبًا وينظر إليه من بعيد، إنه الأمل الوحيد الآن أمامه، يلتقطه بيده بسرعة الزمن حين تكون في صحبة الأحباب ولهفة المشتاق للقائهم بعد طول غياب، يطلب الرقم الأول والثاني ويستمر حتى يصل للرقم الأخير، الآن تبقت خطوة واحدة ويكون صوتها نغم في أذنيه، ينظر للرقم أمامه، يتحسسه بأنامله، ينظر لمنحنيات الأرقام وكأنها طريقه إليها، استجمع كل قواه ليضغط مفتاح الطلب، يشعر برعشة شديدة في يده حتى يكاد الهاتف أن يقع من بين أنامله؛ لتمتد تلك الرعشة لقلبه الواهن من طول الانتظار، يسمع صوت انتظار الهاتف الملح في النداء، يُنادي ويُنادي، على الطرف الآخر.

وبعد دقة الرنة الأخيرة تكاد دقة قلبه أن تكون الأخيرة كذلك، لتعود الحياة مع صوتها..

السلام عليكم، آلو، السلام عليكم.

يغلق الخط دون كلمة منه، صوت دقات قلبه أعلى من كل الأصوات، وأعمق من كل الكلمات، ولون وجهه المضطرب بلهفة الانتظار يُنبئ عن عمق ما به من مشاعر لها، حسب أنها رأته- هكذا ظن- أن ما هو عليه الآن يكفي لأن يُنبئها بما يريد أن يقول، وأن معاناته في طلب رقمها؛ كفيلة بأن تُشعرها بمدى شوقه إليها، وخوفه من صدها له، وإيثارها بعده عن قربه.

لماذا أغلقتَ حين سمعتَ صوتها؟ أليس هذا ما كنت تصبو إليه؟ لماذا لم تُجبها بكلمة ولو حتى رد السلام؟!

هكذا قال لنفسه وهو يلومها، لكنه استدرك الأمر، وقال: لا، لم أستطع؛ فكل ما أردته هو سماع صوتها، فقط سماع صوتها، وقد فعلت.

أما هي، فكانت هناك على الطرف الآخر من الهاتف لم تضع الهاتف عن أذنها رغم انقطاع الخط، تلوم نفسها، لماذا لم تُجيبي عليه من ندائه الأول وهو بين يديك، وأنت تنتظرين بلهفة ذلك الاتصال؟

قالت لنفسها: لا؛ فأنا ما أردت سوى أن يُطيل الطلب فيُطربني صوت ندائه لي، ويُطربني اسمه المكتوب على الهاتف أمامي مُعلنًا أنه يريدني؛ فتأخرت في الرد عليه لأطيل مُكْث اسمه أمام ناظري، وفرحة عيني برؤيته.



قد نخطئ في تقديراتنا تجاه البعض فنفتح لهم قلوبنا

ونعطيهم بعض ما لا يستحقون.

العيب وقتها فينا إن أخطأنا التقدير؟

أم فيهم إن كانوا لا يستحقونه؟



الخطوط الحمراء

في محطة القطار، اختلط غضب المسافرين من تأخر القطار بحَرِّ الصيف القائظ، كان كل منهم في كل لحظة يلملم حاجياته استعدادًا لمجيء القطار الذي أزف موعده، ثم لا يأتي القطار.

كل لحظة كانت المحطة تزداد ازدحامًا بعد تأجيل موعد لموعد وهكذا، من المسافرين من يحمل حقيبته فوق ظهره حاملًا بيده منديلًا كبيرًا يُجفف به عرقه المتساقط، ومنهم من يحاول الاحتماءَ من الهجير بسكب ماء زجاجة يكاد يصل ماؤها لدرجة الغليان، ثم تلك السيدة التي تحمل طفلًا فوق كتفها، بينما تُمسك في يدها بطفلة صغيرة تجرها في هذا الاتجاه تارة والاتجاه الآخر تارة، بينما الطفلة المسكينة تتصبب عرقًا وازداد وجهها احمرارًا، تسير في ظل أمها اتقاءً لحر الشمس المُحرقة.

وعلى بُعد خطوات منها وقفت أخرى يبدو من مظهرها أنها في طريقها إلى الجامعة فهي تحمل حقيبة وبعض الكتب، والتي حاولت أن تتقي بها حر الشمس فلم تقدر لصغر حجم الكتب، تنظر يمنة ويسرة باحثة عن أي شيء تحتمي به فلم تجد فالكل غارق في شمس مُحرقة، همهمت ببعض الكلمات وزفرت ثم ذهبت على مضضٍ لبائع الجرائد والمجلات بالمحطة، ابتاعت منه جريدة وأعطته بعض النقود، جذبت منه الجريدة والتي لم تفكر حتى في أن تطلع عليها لترى العناوين الحمراء الضخمة المتشدقة بعصر الحرية والتقدم والبناء، وطالبة من الناس رفع الرأس بعد أن انتهى عهد الاستبداد.

لم تنظر حتى كي تتأكد إن كانت فعلًا جريدة اليوم، أم هي جريدة قديمة غير أنها حملتها كما هي ووضعتها فوق رأسها فظلها مهما كان بسيطًا ولكنه يؤدي ولو قليلًا من المهمة، تزاحم المسافرون أكثر وأكثر، ويبدو أنه ليس قطارًا واحدًا قد تأخر؛ فالمسافرون تزاحموا على كافة الأرصفة مما يدل على أن جميع القطارات على مدى أكثر من ساعتين قد تأخرت أو أُخِّرت!! لا أحد يدري، بعض الناس ازداد قلقه وفكر في أن يترك المحطة ذاهبًا إلى محطة الأتوبيس عادلًا عن فكرة السفر بالقطار، والبعض الآخر تزاحم على مكتب ناظر المحطة متسائلًا عن سبب تأخر القطارات فيعودون أكثر حيرة، والبعض ظل بالمكان فقط من جانب الفضول؛ ليرى ما هذه السابقة الخطيرة فمن المعقول أن يتأخر قطار.. أما أن تتعطل القطارات كلها فهذا من غير المعقول.

في سرعة البرق انتشرت الشائعات بين المسافرين كانتشار النار في الهشيم، وكأنهم كانوا مُتعطشين لمثل هذه الشائعات كي تطفئ نار الحر القائظ الذي يقفون فيه، فمنهم من قال يبدو أن قطارًا هامًّا يحمل شخصية هامة يسير على شريط السكة الحديد؛ ولذا فقد عطلوا كافة القطارات عن المسير، ومنهم من قال: لا، بل يبدو أن هناك حادث تصادم كبير بين قطارين عطّل المرور نهائيًّا وهم يتكتمون الخبر؛ كي لا يثيروا الرعب بين الناس، ثم هذا هو بائع المشروبات الباردة والذي كان عاملًا قويًّا في انتشار هذه الشائعات بكثرة انتقاله بين الناس والذين ابتاعوا منه في هذا اليوم ما لم يبعه في أي يوم آخر، فقد كان هذا يومه.

تزايد غضب المُسافرين وقلقهم من طول الانتظار خاصة وأن أكثر الموجودين لا يملكون من نقود غير تلك التي دفعوها ثمنًا لتذكرة القطار، وبينما الجميع كذلك، جاء صوت هدير قطار من بعيد، يقترب الصوت شيئًا فشيئًا، بينما يقترب الجميع من حافة الأرصفة حتى كادت الأرجل أن تختلط من شدة التزاحم، كلٌّ منهم يكاد أن يقتله فضوله لمعرفة السر، يقترب القطار أكثر، بينما يستمع الجميع لأصوات هتافات قادمة من بعيد مختلطة بصوت القطار، لا أحد يستطيع أن يُميز أهي قادمة مع القطار أم هي من مكان قريب من المحطة يزداد المسافرون ترقبًا وانتباهًا..

يقترب القطار أكثر ولكنه لا يُهدئ من سرعته، ويبدو أنه لن يتوقف في هذه المحطة التعسة، تتضح الهتافات أكثر وأكثر وقد ظهر الآن أنها قادمة مع القطار، إنهم يهتفون بصوت هادر "الله أكبر ولله الحمد، الله غايتنا، القرآن دستورنا، الجهاد سبيلنا، يسقط يسقط حكم العسكر، اقترب القطار من المحطة، خرجت منه رؤوس كثيرة وأياد ملوحة لمن على الأرصفة.. اختلطت دهشة المسافرين بدموع بعض الأمهات اللاتي كنَّ ينتظرن على الأرصفة ولم يشعر بهن أحد؛ بأنين بعضٍ من تعبوا من طول الوقوف، بصوت واهن لرجل هرم، قائلًا "مساكين.. شباب زي الورد.. خسارة والله يترموا بالشكل ده".

اختلطت الأصوات بالهتافات بالتعليقات عندما علموا أن هذا القطار متوجهٌ إلى صعيد مصر بسجناء العقيدة، ولكن كان الأكثر من ذلك كله دهشة وعجبًا؛ أنه وبعد لحظات قليلة خلت الأرصفة كلها من المنتظرين بعد ما امتلأت العيون بدموع الخيبة والخوف.. حتى تلك الفتاه التي ابتاعت الجريدة الحمراء يبدو أنها قررت أن تعود من حيث أتت، ألقت نظرة علي الجريدة في يدها، وابتسمت في مرارة للصورة الملونة المبتسمة بالجريدة وألقتها جانبًا ومضت في طريقها عائدة.



عبر صفحات ليالي الشتاء الرائعة يُطاردنا طيفهم

مرة يُداعبنا،

ومرة يُبكينا،

ومرات أخرى يُذكرنا بما كان...

ليتها تطول تلك الليالي ولا ترحل عنا

لكنها سترحل،

ككل الراحلين.



الأمـطار الدافـئـة

ها هي الأمطار تتساقط بغزارة مُسرعة الخطا إلى حيث الأرض العطشى لها منذ أشهر شاقة حرقت كل أخضر على وجهها شمس الصيف المرير.

كل شيء من حولي كان يتحرك بحنين غريب، شوق بين الأرض والمطر كلاهما، وشوق بيني وبين المطر يهزني ويدفعني لاستقباله كما استقبلته الأرض وفتحت له قلبها المُتشقق ليمتلئ حياة بعد موت، صوت الرياح سمعته في حركة النوافذ الحرة، ودرجة برودتها تركت آثارها على جسدي المرتعش، نادتني السماء المائجة كبحر حياتي للخروج.

هرعت إلى الخارج وسط تحذيرات ممن حولي مادَّةً يدي الوَاهنة ليد امتدت من بين حبات المطر لتجذبني بعيدًا عن معالم البيت البارد الذي يحويني، كانت يد شمس الشتاء أدفأ من حياتي كلها، لم أقاوم ورحت أينما توجَّهَت، كانت وجهتها معلومة لديَّ، بل كانت هي القريبة وكنت أنا الغريبة، الشارع خالٍ تمامًا من البشر، ويدي ما زالت ممتدة باتجاه الشمس الغائبة، متعلقة بيدها الباهتة، وقدمي المسرعة تغوص في جليد العمر المتساقط، والمسافر بي نحو قبلة يبدو أنها كانت قبلتي قبل الوجود، أو قبل الموت الذي احتواني وتركني بين الناس أتنفس باحثة عن دليل لرحيلي أو وجودي.

كانت بعض الأشياء تتناثر عنّي ومنّي مع الماء المتدفق من السماء حاجبًا بعض الرؤية عن قلبي، لم ألتفت في البداية لكني شعرت معها بخفة وزني، وأنني أكاد أطاول السماء وأنا سائرة جنبًا إلى جنب بجوار الغيمة العائمة في صفحة الكون المطير، إنها سنوات من العمر تتساقط عن كاهلي وكأنها لم تكن، تلك سنة من سنوات الطفولة الباكرة لونها أسود، تلك هي التي مات فيها والدي الذي غمرني بتركة من ملامحه وحبه للشعر والأدب تُذكَّر به كل من يلقاني.

وتلك سنة رمادية حملت همومًا لست أراها من تزاحمها، وتلك أخرى حمراء نارية كنت تحمل سهرًا وألمًا وآمالًا ماتت قبل أن تولد، وتلك سنة كثيرة الألوان، متقلبة، حائرة، حزينة، فقدت معظم سنوات العمر المؤلمة لأصير بغير وزن، وأصير تاريخًا يسكن ذاكرة ليس لها وجود.

اشتد المطر ليصير أمواجًا من الغضب كادت تصم أذني وتضيع الطريق من تحت قدمي، شعرت ببعض الندم على الخروج رغم التغييرات الرائعة التي تجتاحني، لكني أراها وكأنها تحاول إغراقي، مع أنها حبيبتي؛ لذا سأظل ممسكة بيد الشمس كي لا أضيع الطريق ولن أعود.

وقفت برهة ونظرت خلفي، أين أنا؟، لقد اجتزت طريقًا طويلًا، سنوات اجتزتها، خيط من الزمن سرت فيه.

ها هو الطريق، نفس الطريق، وها هو البحر يلوح من بعيد أشمه كما الوليد وأمه، المطر يغمر البحر الذي جف زمانًا بالماء من جديد، ها هو المكان بكل ملامحه لم يتغير، وها هو نفس الشاطئ الخالي من أولئك المتطفلين صيفًا، عاد فتيًّا كما أعرفه ليغطي بأمواجه آثار أقدام الغرباء.

تتسارع أمواجه كي تلحق ببعضها البعض، فتلك موجة صديقة تبتغي اللحاق بصديقتها التي سبقتها، ولكن هيهات فمن سبق بالرحيل..هل يعود؟ ليس من الممكن أن يعود.

ثم هذه الموجة المرتفعة المتسارعة التي تحاول أن تسبق الزمن، إنها حبيبة تبذل كل ما عندها كي تلحق بالحبيب، وهو يأبى التراجع أو حتى الانتظار، هل يداعبها باستمراره في المسير؟، أم أنه هو أيضًا قرر الرحيل! ثم هذا الشاطئ الذي طالما شهد معنا فرحتنا حين ولدت، وحين قررت الغياب، وحين رحلت بغير رجوع هنا تشاركنا معه الفرحة بالمطر.

تشاركنا الفرحة بالرياح الباردة التي منحتنا الدفء رغم شدة برودتها، تشاركنا حبنا لفصل الشتاء.

هو اعتاد مصاحبتنا له في مثل هذه الأوقات؛ فصارت ألفة، وصار حبًّا بغير حروف، وصار صمتًا مائجًا هائجًا لا يهدأ، كلانا يدرك بوجدانه أن الآخر يعشقه، لكن طبيعتنا معًا تأبى التعبير عن الحب بالكلمات، فارتضينا الصمت صاحبًا ثالثًا في كل لقاء وفي كل رحيل.

شهد معنا لحظات الجنون، تلك التي حركتنا سنوات من العمر المنقضي، حين كنت ألحُّ عليه في الخروج مرارًا حتى يرضي، أبكي كالأطفال مرة.. ثم أقبله مرة أخرى، ثم أضمه ضمة لا يستطيع معها إلا أن يبتسم، ويقول:... مجنونة، وماذا سأفعل مع مجنونة؟

دقائق معدودة ويضمنا هذا المكان؛ حيث البحر والرياح، وحيث المطر الحبيب، صوت يعاود النداء وأسمعه كما الموج في وضوحه، أنصت قليلًا، اصْمت أيها البحر واهدأ لأرى.. لمن النداء؟

لا. يا ربي، إنه هو، همسه، أنفاسه، أشم رائحته، نعم هو، أكاد أشعر بدفء كفيه بينما تضم يدي، أكاد أشعر بضمة صدره بينما هو يُخبأني من الأمطار، ويلهو بأنامله الحانية الباردة على وجهي ليحميه من المطر فتدفأ يده ويدفأ وجهي، ها هو يشق الضباب، أراه قادمًا من بين السيل الجارف الذي يشتد كلما اقترب، صوت أنفاسه أقرب لي من صوت الرياح، ودقات قلبه أسمعها فتنسيني صوت الرعد المخيف، شبح يشق الطريق إليّ، وآثار أقدامه في الرمال يملؤها الماء كلما خطا خطوة إليّ، كانت هالة دفئه تنتشر في المكان من حوله، رغم عدم توقف المطر والرياح، لكنها ملموسة، تسري بجواره لتجتاح نفسي حتى ملأتني دفئًا واطمئنانًا وراحة.

اقترب بينما تتسع عيناي محدقة به، هل عاد؟ ونسيت في خضم سنوات الألم أنه لم يرحل، أنا من رحلت وليس هو، أنا من كنت أبحث عن دليل، فهل عدت أنا إليه؟

مددت يدي كي يأخذها بين كفيه ليكون دليلي، انهارت حبات على وجهي دافئة، بل ملتهبة، وسنوات أخرى تسقط مني كانت تحمل جليدًا شعرت بمزيد من الدفء بسقوطها، قبل أن يصل كنت بين يديه، لم أتحدث إليه، نظرت فقط... وانتظرت كلماته التي طالما زلزلني الشوق إليها، لم يتحدث هو الآخر، وكان الدليل على وجودي، كان الصمت دليلًا، أطال النظر في سكون، ابتسامة وضمة، كانت بعض كلمات تخرج من فمي دون إرادة ودون أن أحرك شفاهي، انسابت الكلمات مني دون قدرة على النطق، سمعت صوتي، وسمعت كلمات قيلت له همسًا، بعتاب واستفسار وحيرة ورجاء، من منا رحل؟ ولماذا؟!

هل يمكن أن يرحل جزء من روح وتترك بقيتها للعناء والحيرة والذهول؟! هل يمكن أن تحيا الأرض بغير الشمس، بغير المطر، بغير الوجود، بغير إنسان يكابد وحياة تداوي؟

أرأيت وأنت قادم تلك الهوة السحيقة بيني وبين الوجود، تلك الهوة باتساع الفرق بين السماء والأرض، بين الدنيا والآخرة، بين الموت والحياة؟ تلك هي التي صنعتها بيدي حين افترقنا ولست أدري من منا رحل ومن منا بقي، بكيت صمتًا، وذرفت دموعًا جافة حين لم أجد صوتك يملأ المكان، بعدما كنت تملأ كل الأماكن، كل الأزمنة.

بحثت بين المكان والزمان لأكسر الحدود عسى أن أجدك، بحثت خلف الشمس وبين حبات المطر وعلى كل الشواطئ، بحثت في نفوس الخلق وبكاء الطفولة وألم الكبار حين يعجزون عن تحقيق أمنيات مر وقتها ولم تشِبْ مع المشيب، بحثت بين النجوم وفي صورة القمر المنعكسة على سطح الماء حين يهدأ، بحثت بين طيات الكتب، وبين السطور، وفي رقيق الكلمات، بحثت في كلمات الشعراء، وأنين المظلومين، وحنين العشاق وقبور القدماء وصرخة الوليد.

بحثت فوجدتك في كل شيء ولم أجدني أنا، فأين كنت أنا وأين كنت أنت؟ لماذا الرحيل بعد أن صار كلانا في الآخر، وتلاشى كلانا في الزمان والمكان، أتذكر يوم عرسنا الندي حين تعاهدنا على ألا يرحل أحدنا عن الآخر حتى ولو قهره الموت؟ علمي أنك لم تمت، ويقيني أنني أنا الراحلة منذ زمن، لا أذكر منه سوى سنوات تلاشت عني توًّا.

لم أكن أنتظر جوابًا وإنما نظرة تُشبعني، تجتاحني، ترويني، لذت بالسكوت وتركت الفعل يعبر والحبات المتساقطة على وجهي تعبر، لذت بالصمت بينما هو يتلاشى من بين يدي ويبتعد، يهدأ المطر ويتحول لطَيْف، مجرد طيفٍ، وتخرج الشمس على مهل من مخبئها ترسل خيطًا ثم خيطًا ثم خيطًا، ضوء يكشف الحقيقة كلها فينذرني برحيل جديد، تلاشى من بين يدي؛ لأجدني حين تكتمل الشمس، وحين تكف السماء عن البكاء؛ قد لذت بضمة لنفسي بين ذراعاي بغير طيف من رحل مجددًا بغير وداع.

تاه طريق الرجوع من تحت قدمي وغامت الأعين لتنذر بشتاء طويل، وجفت الذاكرة إلا من ذكرى واحدة، حبيب توقفت أنفاسه وهدأ قلبه، وتغير لون وجهه، ارتدى بياض الثلج الباهت، وأغلقوا عينيه كي لا تراني، لم يكن ذلك في نظري موتًا، أبدًا لم يكن موتًا، بل كانت رحلة ليعود كي أحكي له كل ما كان.

حين تبكي الروح
ويبكي القلب
وتبكي الجوارح كلها
وتجف العين كي لا يراها أحدهم فيشفق
في وقت لا نريد فيه شفقة
بقدر ما نحتاج فيه نصرًا



المهر

انسحبت الأصابع المتشابكة بعد أن تراجع صاحباها، وبعد أن ودع كلٌّ منهما الأخر، وبعد أن التقى الإثنان لقاء الوداع أو لقاء الأمل، أمسكت يدها بيده بلهفة عمر بأكمله.. عمر ضاع مع ما ضاع، وحبات الخوف والأمل تنفرط من عينيها، الخوف من الحاضر والأمل في غد النصر، شدت على يديه مؤكدة أن الله معه ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ قلبها كان يرتعد خوفًا عليه، قالت له: إياك أن تعود بغيره، هو مهري الذي لن أرتضي غيره ولو بكنوز الدنيا كلها، وبنظرة حاسمة من عينيه اللتين كانتا تشعان بالإيمان والثقة بنصر الله؛ بنظرة واحدة قال كل شيء، وذكّرها بنظراته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ وذهب........

نظرت "إيمان" في الآفاق وشردت بفكرها إلى ذلك الزمان البعيد متذكرة قولة الكافر اللعين الذي وصف رسولنا الكريم بالأبتر، وردَّهُ الله وردَّ كيده بأن جعله هو الأبتر وليس الحبيب محمد، ولكن لماذا قال اللعين هذه الكلمة؟ هل رأى حقًّا أن رسول الله عليه الصلاة والسلام أبترًا؟ ألم يُنجب محمد ﷺ رجالًا!؟ لقد صرخت وصرخت.. ولم يخرج رجل واحد منهم؛ فأين هم؟ أين هم!؟

سلامُ الله عليك يا رسول الله ، لقد أنجبت أمتك من أخرجوا أعداء الله وقاتلوهم من أجل امرأة.. يوم بني قينُقاع، سلامُ الله عليك يا رسول الله ، لقد أنجبت حمزة المغوار، وخالد السيف، ومصعب الداعية، والمعتصم..... آه يا معتصم لو علمت ما بي، أه لو سمعت صرختي؟ وأنت يا صلاح الدين، ماذا لو سمعت صرختي؟ ماذا لو رأيتٍ أرضنا تُسرق ويرتع فيها اللئام؟ هؤلاء هم أبناء محمد حقًّا.. إنه والله ليس بالأبتر، إنهم أبناؤه الذين ملأوا سمع الدنيا واهتزت لهم عروش الجبابرة، ولكن أين هم الآن؟ أين هم!؟

أيكون عبد الله واحدًا منهم؟، أيثبت لكل من سولت له نفسه بهتك ستري؟ سترى بأن محمدًا ليس بالأبتر، ها هو ذهب ليأتي بمهري.. مهري الذي سرقوه مني، سرقوا أنوثتي، مزقوا حيائي، وهتكوا ستري.

ذهب عبد الله ليُعيد إليَّ ما سُرق، وسيُريهم من هو عبد الله!، سيُرِي الدنيا كلها من هم أبناء محمد، وساعتها.. ساعتها ستَغرد الأطيار كلها أغنية العودة وتشدو الأفاق كلها نشيد النصر، سيُردد الكل مع الحجر "لبيك إسلاماه" ساعتها، سيقوم حمزة وخالد حاملي السلاحِ، ويقوم مُصعب مُعلمًا، والمُعتصم قائدًا، وصلاح الدين فاتحًا، وحينئذ يُنشد الكون بمن فيه وما فيه "لبيك إسلاماه".

أه.. ما أجمل ما تمنيت! أفي لحظة واحدة يحدث كل هذا؟ ربما..

لقد مرت عشرة أيام على ذهاب عبد الله، يا الله.. ما أبطأ مرور الأيام، لقد مرت وكأنها الدهر كله، ولقد ذكرتني بيومها، ذلك اليوم الأسود الكئيب؛ يومٌ لم تطلع فيه شمس، ولم نسمع فيه غير عواء الذئاب المفترسة تفترس الأخوات المؤمنات.

ذئاب تجمَّعوا علينا بالتناوب ينهشون أعراضنا، جياع لا تُشبعهم إلا لحومنا، ولا يرتوون إلا من دمائنا.. نهشتنا الذئاب وأنا أصرخ وامعتصماه! أين أنت يا معتصم؛ كي تطفيء لهيب قلبي؟ أين أنت يا صريخ النساء؟ أين أنتم يا مسلمون؟ صرخت وصرخت أين أنت يا الله؟ يا الله؟........

وساعتها، سمعت صوت الرصاص وأنا بين حية وميتة، وإذا بي أجد نفسي بين السماء والأرض، وجاءني صوته- صوت محمد ﷺ- جاءني عبر الأفلاك كلها، أتاني عبر كل السنين، أنا الضعيفة وكأنه يعرفني حق المعرفة، أتاني من بعيد بعيد، من هناك، من السماء رأيته قادمًا طيفًا نورانيًّا، أتاني عبر الزمان، وعرفته، عرفته كأني كنت أراه كل يوم، لم أشعر بالاطمئنان في حياتي كلها مثل هذه اللحظة، ولم أكن أدري أني أحبه كل هذا الحب؛ حتى إنني الآن أبيع الدنيا من أجله حتى أمي وأختي وحتى عبد الله ﷻ ونفسي، آه.. ما أعظمك يا محمد!، يا رسول الله ، جئتني أنا.. ناداني "إيمان"، إيمان، يا ابنة الأمة النائمة، يا فرع أمة أخطأت الطريق، نهضت، وقلت له: أحقًا يا حبيبي يا رسول الله؟ أحقًا أنا منك؟ من أمتك؟ مؤمنون؟

فلمـاذا يحـدث لـي هـذا إذًا!؟ ولـم هـذه الجيـوش التـي تحاربنـا؟ الـدنيا كلهـا تجمعت علينـا؟ ولـم طالمـا أننـا أمتـك؟ لماذا تركنا الله لهم؟ لمَ لمْ يُطبق عليهم البحر مثلما أطبقه على فرعون؟ أولسنا مؤمنينَ؟ فقال بصوته الهادئ: بلـي، ولكنكم نائمون برغم نور الله أمامكم تُغمضون أعينكم عنـه، وعنـدما ترونـه سـاعتها ستجدون فيـه القـوة والمنعـة «وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لـن تضلوا بعدي أبدًا كتـاب الله وسنتي» وستصحو الأمة يـا "إيمـان". فأنـتِ وعبد الله فتيل المصباح «صبرًا آل ياسر إن موعدكم الجنة، صبرًا صبرًا»، وتباعد الصوت وتباعد حتى لم أعد أرى غير أشباح وجوه.

تبينـت مـن بـين الوجـوه "عبـد الله " الـذي عقـد علـيَّ، ومن ساعتها لم نهنأ لحظة، أقسم لينتقم لي ولأختي ولأمـي، أقسم أن يُطهر الأرض ولو علـى أشلائه، وربتَّ علـى كتفـي ورددها، كلمة محمد ﷺ "إيمـان، لا تحزنـي فأنـا وأنـتِ فتيـل المصباح صبرًا فقدرنا أن نكون أبنـاء الأمـة النائمـة.. سرتْ في جسدي رعدة قلت كأنكِ كنتِ معي حين جاءني، آه مـا أقدركِ يا الله ، ومـا أقساه من يوم مضى وكأنـه ربط بحبـال الزمن كي لا يمر، وآه ما أقساها من ذكريات...

وها هي عشرة أيام تمر، ولا أدري ما فعل عبد الله؟ لـم تأتني منه رسالة، لم أسمع دوي انفجارات قنابله، تُرى أيـن أنـت يـا عبد الله؟ أيـن أنـت يـا طائرًا غـاب عن عشـه؟ آه يـا لوعة قلبي، ألـم يكفِ مـا فقدتـه؟ أيجب علـيَّ أن أفقده أيضًـا كي يصحو النـائم؟

ولكن ما هذا الصخب؟ وما هذه الأغاريد.. الصغير والكبير يسرع ليرى ما الخبر؟ تُرى ماذا يحدث؟ ربما؟! ربما يكون قد عاد الغائب؟ إنهم يهتفون فرحين بعودته، لقد رد لي كياني أعاد لي ستري، وافرحتاه عاد "عبد الله " إنهم يهتفون لا اله إلا الله والشهيد.....ماذا!! ماذا يقولون؟ الشهيد حبيب الله!؟ هل أتى عبد الله شهيدًا؟ نعم إني أسمعهم جيدًا، لقد استشهد عبد الله، يا ويلتاه، لا..لا، بل وافرحتاه، لقد أتاني بأغلى مهر، أتى بروحه مهرًا لي، وافرحتاه! من مثلي يا قدس، من مثلي يا سراييفو، من مثلي يا قرطبة؟ زغردي أمي وأعلني الأفراح، ألبسيني ثوب زفافي، لقد أتى بروحه مهرًا لي؛ إنه مهري..روح شهيد.



حين نبتسم مرارة

ونضحك دموعًا

وتنطق حروفنا آهات



القفص

في جلسات الوظائف الحكومية المعتادة يتحلق الجميع على لحم أحدهم ليأكلوه حيًّا، يميتوا حكايات نسجوها، معظمها من خيالهم حكيًا، تتعالى الضحكات حينًا وتخفت الأصوات أحيانًا حين تتحدث وكأنه تذكّر سرًّا من الأسرار، تختلط أصوات الرجال بهمهمات النساء، وكلٌّ منهم يُقسم على ما رآه بأم عينه وسمعه بأذنه لا بأذن غيره، حتى إذا انتهت الحكاية استغفر الجميع ونفض يديه، وتبرأ من الكلام ليبدأ حكاية جديدة، عن لحم جديد.

على كرسي مُنعزل عن جلسة آكلي لحوم الناس بالباطل؛ جلست بمنأى عنهم وكأنها ليست منهم، في يدها كوبٌ من الشاي يبدو أنه في يدها منذ وقت طويل، فقد بلغ منتصفه ثم نحَّته جانبًا لبرودة الشاي به، ويبدو أن الكتاب الذي كانت تقرأه قد أخذها حتى من الشاي الذي تحبه، خاصة في وقت القراءة خارج نطاق هذه الجلسات، والتي تُعقد غالبًا في الساعتين الأخيرتين من وقت العمل، اعتادت أن تقرأ وتبسط لزميلاتها ما قرأته، كانت مبهورة بكتب السيرة النبوية وقصص الصحابة والفتوحات الإسلامية وحياة المُسلمين في عصور الازدهار الأولى، هذا غير الأحاديث التي تصف الجنة وتُحبب فيها، فكانت تصفها لهم.. وكأنها رأتها رأيَّ العين، وبين الحين والحين تنفلت من عينيها دموع حنين لذلك اليوم الذي ستلتقي فيه نبيها الكريم على الحوض ليسقيها بيده من حوضه سقية لا تظمأ بعدها أبدًا.

تذكر لهم كيف أنها ستكون جارة لبيت خديجة رضي الله عنها، وكيف أنها ستزور أسيا امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وماشطة ابنة فرعون.. وتسألها عن ثباتها أمام مرْأى قتل أبنائها، كانت معروفة لديهم بالحالمة، اكتسبت احترام الجميع وحبهم بهدوئها ورزانتها وحبها لهم رغم تمايزها عليهم وابتعادها عن مجالسهم، اليوم كانت تقرأ في كتاب عن "العدل" وحينما يذكر العدل يذكر عمر، وحينما يُذكر العدل نتذكر الأساطير القديمة.. ضحكت ملء فيها وهي تقرأ الحكاية تلو الحكاية والموقف بعد الموقف، ضحكت وعيناها تكاد تمطران الدماء بدلا من الدموع، وقلبها يقطر حزنًا وحسرة... في المسجد وقف "عمر" يحدد مهور النساء، ثارت امرأة: قف يا عمر، فما كان لك ذلك، سمعت عمر وهو يقول "أصابت امرأة وأخطأ عمر".

تذكرت ذلك الحلم الذي رأته أكثر من مرة، ترى وكأنها في المسجد تقف للصلاة.. تنظر للإمام فتجده يحمل صليبًا، تترك الصلاة وتُغادر الصف، تصرخ: أنت لست الإمام، أين الإمام؟! لا يجوز لك أن تقف مكان عمر، أنت تحمل صليبًا، أين عمر؟ أنت لست عمر، بل أنت قاتله، يدهش الجميع من جرأتها، والبعض يتهامس: المجنونة ستودي بحياتها، يتهامسون فيما بينهم، ويأتيها من ينصح: اصمتي يا مجنونة، سيقتلونك فما للحياة عندهم ثمن، تعالي وأدِّي الصلاة، مالك أنتِ والإمام! المهم أن تكون صلاتك أنتِ صحيحة، كل إنسان سيحاسب عن عمله لا عن عمل غيره، تصرخ وتصرخ.. يا قومي.. يا أهلي، الإمام يحمل صليبًا، لا يجوز، لا يصح. يهمس البعض عندها حق، كيف يكون عمر حاملًا للصليب!

حينئذ يأتي إليها من يُكمم فاها، احملوها خارج المسجد إنها إرهابية، أيها الناس، أتمُّوا صلاتكم خلف الإمام، وكل من له صلة بهذه الإرهابية فليخرج من بيننا، تُلقى من المسجد بعيدًا ومن خلفها الأم الأرملة الثكلى ترتدي السواد على زمن أسود مما ترتديه، تقول لها: يا ابنتي، ألا تخشينهم؟ تقول: يا أمي، ومِمَّ أخاف؟ من الموت!؟ والله إنه لأمنية، بل وأعز أمنية.

- ولكن يا ابنتي، لقد طردونا من المسجد، لم نكمل صلاتنا.

- لا يا أمي، فخير لنا أن نصلي في بيتنا.. من أن نصلي خلف إمام حاملٍ للصليب، لا يجوز يا أمي، لا يجوز، لقد اشتممت رائحة العفن داخل المسجد، نعم سمعت صوت المصحف من خلف الجدران يُناديني أن ابتعدي، فما هو بمسجد، إنه "ضرار" لا يجوز فيه صلاة ولا قيام..........

وبينما هي تحادث أمها إذا بنار عظيمة، انفجارٌ هائلٌ يأتي من ناحية المسجد المزعوم، وإذا به يتلاشى وكل من به ينتهون.... وتصحو من الحلم.

تنتهي من القراءة، وتلقي الكتاب جانبًا.. ويأتيها صوت زميلات العمل، هيا فقد حان وقت الانصراف، أم أنك لن ترحلي حتى تنتهي من قصة العدل؟ فكرت.. وهل تنتهي قصة العدل بمجرد طيِّ صفحات الكتاب؟ يبدو فعلًا أن الأمر كذلك، العدل في كتاب وصفحات تقرأ ثم تطوى فتنتهي حكايته، يا لهفي عليك يا عمر.. أن يكون عدلك تاريخًا مكتوبًا للاطلاع لا أكثر، كلمات مخطوطة بيدِ كاتب لا يعرف عن العدل إلا هجاء حروفه، وما قدمته لأمتك يا عمر.

غادرت المكتب مع زميلاتها، بحركات آلية سارت في طريقها المعهود إلى المنزل، كانت تدور بعينيها في الطريق الخالي من كل رحمة، والمزدحم بالناس، الأطفال كما هم كل يوم يلعبون ويمرحون، منهم من يضحك.. ومنهم من يبكي.. كل ما يشغلهم هو لعبة يلعبونها، ولا يدرون أنهم إن هي إلا أيام معدودة يكبرون ويصيرون هم لعبة الدنيا، التجار يصطفون كل منهم يريد أن يجلب زبائنه أو يصطاد فريسته على الأصح؛ كي يبيعه تجارته غاشًا له كما غشه التاجر الذي ابتاع منه.

والناس في لهفة يسيرون هنا وهناك، لا أحد ينظر لأحد، لا أحد يشعر بأحد، فها هي تسير وكأنها تطير فوق كل هؤلاء، ولا يشعرون بها.. الكل في نفسه غارق، هذه هي السينما معلق عليها إعلان مثير جدًا، الفنان المشهور والفنانة المشهورة لا يسترهم شيء سوى الكلمات المكتوبة عليهما معبرة عن اسم الفيلم (قصة حب) أي حبٍّ يقصدون، حب الرذيلة والمهانة والتعري، والله ما أبعدهم عن الحب، فالحب أسمى مما يتخيله هؤلاء، إنه كينونة للمؤمن يصير معه أينما حل.. حتى مماته ينبع من روحه ومن قلبه الصافي المخلص، ينبع ويتدفق ليعطي الجميع، ولا ينبع إلا من قلب موصول بالله.. قلب نظيف وحب نظيف طاهر وعطاء بلا حدود وبلا توقف، حب الفضيلة حب الخير، حب الحياة بما فيها ومن فيها.. بقدرها وأقدارها، بحلوها ومرها، ليس لمجرد أنها الحياة الدنيا ولكن لأنها هبة من الله وأنها الطريق إليه، فأين هم من حقيقة الحب؟ وأين هم من عطائه.. وهم أبعد ما يكونون من الفضيلة!

اقتربت من المنزل القابع بجوار المسجد الكبير. مرت أمام المسجد نظرت إليه، بابه مفتوح، رأت منبره العالي، تُرى أيها المنبر.. كم وقف عليك من إمام! وكم حذروا؟ وكم رغبوا! وكم يا ترى من الناس استمع.. ومن الظالمين ارتدع؟، وكم من القساة لأن قلبه! وكم من الحكام الممسكين بأذناب البقر قد عدل؟ يا مسجدي، أبواب الدنيا كلها مغلقة أمام الناس وبابك مفتوح لا يغلق، ومع هذا فالمسجد خالٍ، لا أحد يقصده.. ينادي المنبر على الإمام وينادي المسجد على المأمومين، فلا الإمام يأتي ولا المأمومون، دخلت المنزل، ألقت السلام على أمها، كانت الأم مُستبشرة على غير العادة، قالت لابنتها: لقد كتب الله لكِ السعادة، جاءك ابن الحلال الذي كنا ننتظره.. مال وأخلاق وشقة فاخرة وسيارة، لن نحتاج لشيء يا ابنتي، سيحسدك الجميع، الحمد لله "صبرت ونلت" سيأتون لزيارتنا في المساء فتجهزي يا حبيبتي للقاء.

في المساء، كان ابن الحلال في غرفة الاستقبال يجلس، وكأنه ملك الدنيا وما فيها، جاء في أبهى حلة، حلة لا تستطيع هي أن تقدر ثمنها، حمل معه الهدايا الثمينة والتي تغشى العين عند رؤيتها، جلست إليه في توجس من أمها التي تحاول تلطيف ابنتها التي تخشى أفعالها المتكررة في مثل هذه المواقف، والتي عادةً يذهب فيها ابن الحلال بغير رجعة، لكن هذه المرة ليس لها حجة، فابن الحلال كامل ومُكتمل، وظيفة مرموقة ولديه سيارة وشقة، وسوف يعطيها مهرًا لم تحلم به يومًا، هو قد رآها في عملها مرة وحاول الحديث معها، لكنها تعاملت معه في حدود العمل ولم تعره انتباهًا؛

فقرر أن يهبها اسمه وهو مطمئن لامرأة تخشى ربها وتحافظ على نفسها في زمان عزّ فيه مثل هؤلاء النسوة.

بمجرد أن جلست إليه سألته ماذا تعرف عن عمر؟ تعجب وقال: لها عمر من؟ قالت: أمير المؤمنين، أمير العدل الذي اهتزت له عروش الملوك، زلزلت الأرض تحت أرجل خيوله، شهدت له الدنيا كلها، "عمر بن الخطاب"

ضحك مندهشًا، وظن أنها مزحة منها، وقال لها: بالتأكيد أنتِ تمزحين؟! تجهمت وقالت: أنا لا أمزح، أنا أسألك ماذا تعرف عن عمر أمير المؤمنين؟ قال لها: ما لنا نحن وعمر، وعصر عمر، نحن في عصر المال والبورصة والبنوك، عصر الذرة عصر الصاروخ، استوقفته بإشارة من يدها، وقالت له: ولأكمل لك؛ نحن في عصر القنابل، عصر الدمار، عصر اليتامى، والأرامل، والضعفاء، عصر الظلم والظالمين، عصر القهر، والرشوة، عصر الضلال والضالين.

نحن في أشد ساعات الليل ظلمة حقًّا من أدراك أنت بعمر، قال لها: أنا أصلي، هل تحسبينني مُلحدًا؟. ابتسمت وقالت: نعم، أنت تصلي، ولكن في ذلك المسجد "ضرار". هبَّ غاضبًا: كيف تقولين ذلك؟ أنتِ مجنونة، من تظنين نفسك؟ أنتِ جاهلة لا تعلمين أي شيء عن الدنيا أو الدين، أنتِ مغرورة متكبرة، بل أنتِ حاقدة، تركته يكيل لها الاتهامات الغاضبة، وتوجهت إلى أمها بالحديث قائلة: أرجوكِ يا أمي، أوصليه برشْوَتِه إلى الباب، وأوصديه جيدًا.

في اليوم التالي والتالي وكل يوم تذهب إلى العمل وتعود.. تمر على السوق والسينما والمسجد وتعود كل يوم ككل يوم، لا جديد غير أنها أيام تمر وعمر يتناقص يومًا بعد يوم، وكل فترة يأتي ابن الحلال، والذي يكون في حقيقته ابنًا لعصر الذرة والصاروخ والانبطاح لا ابنًا للحلال.

بينما هي في العمل ذات يوم، جاءها ذلك الشاب ذو الوجه الحزين، يقول لها: أرجو أن تنهي لي هذا الطلب، موظف زميل لها كان في أجازة طويلة سنتين تقريبًا، بعض الزملاء لم يعرفوه لأنهم أتوا في خلال سنتي غيابه، سألوه أين كنت؟، قال كنت في بعثة للعالم الآخر، وعدت لأترك عالمكم كله وأسافر، كان ينهي أوراق عودته ثم إجراءات أجازة جديدة؛ ليحاول السفر خارج حدود الوطن المحتل.

- ولِمَ؟ لِمَ الهجرة؟ هنا بلدك وأهلك، هنا مسجدك!

- لقد ضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، بلدي ضاقت بي وبدعوتي دعوة الحق، أهلي ضجروا من حديثي وهو كلام الله، أما عن مسجدي فقد جُعِلت لنا الأرض مسجدًا وطهورًا.

ابتسم قلبها فظهر على وجهها احمرارٌ يذوب في وجنتيها لتزداد الشمس نورًا

- أتعرف عمر؟

- أعرف "محمد" وهو أستاذ البشرية وأنا تابعه، أتدرين أنه هاجر من بلده التي ضاقت به، هاجر إلى حيث استقبله قوم آخرون، لاقُوهُ وناصروه، إنه طريق شاق لكن نهايته هي الغاية العظمى.

في اليوم التالي كانا في طريقهما إلى حيث ينهيان أوراق السفر معًا يدها بيده، قلبان مليئان بالأمل والبشر، التأشيرات يقال لهما: ممنوعان من السفر، كعصفورين حبيسين انطلقا داخل القفص سارا في الشارع، الأبواب كلها مغلقة في وجهيهما.. الأطفال ما زالت تلهو، والناس تروح وتجيء والباعة ينادون، الإعلانات مُلصقة على جدران السينما، وهذا هو المسجد الكبير العتيق وهذا هو المنبر العالي، المسجد خالٍ والباب مفتوح، الباب الوحيد المفتوح في القفص، وقفا أمام بابه، وألقوا نظرة على الشارع المائج، ودخلا المسجد.



حين تسرُ القلوب بما لا يجب البوح به..

فارحموها



خذني إلى حيث كنا

إنهـا دائمًـا البـدايات الجميلـة التـي نعيشـها بطبيعتنـا وإنسانيتنا كاملة، زوج وزوجة وبيت وليد، كلٌّ منهم يبذل ما عنده في سبيل إسعاد الآخر، جمعنا الحب وبارك لنا حب شرع الله والتمسك به، وقربت بيننا الطاعة المستنيرة لله وحده دون غيره، البساطة كانت عنوان بيتنا، والمودة ديدنه، يمر عام ثم عام، يأتي الطفل الأول، ثم الثاني، ثم تزداد المتطلبات ليحمل كل هذا رياح تغيير على القلوب، التي بدأت تتململ من ضيق الحال مع كثرة مستلزمات الأبناء، الذين يكبرون يومًا بعد يوم، وتكبر معهم احتياجاتهم اليومية، فكان لابد من تغيير سياسة البيت الهادئ الوديع؛ لتتماشى مع ما استجد من ظروف، وتم الاتفاق على أن يتفرغ كلٌّ منهما لما هو مطلوب منه من مهام في الحياة دون أن تُكبله العواطف عما هو مطلوب منه، فالزوج ينطلق في الحياة بلا تهاون وبلا كسل يبحث عن المزيد والمزيد من المال؛ كي يرفع من مستوى الأولاد الذين لا ذنب لهم في أن يولدوا في أسرة رقيقة الحال، بينما تتفرغ الأم للتربية اللائقة بهؤلاء الوافدين الجدد، الذين هم فلذة الكبد وروح الفؤاد.

ليلف الصمت ذلك البيت الذي طالما علت فيه صيحات السعادة لتفيض على من حوله، ساد الصمت حين عاد الوالد لأول مرة من عمله، الذي يستوجب منه المكوث بالخارج ساعات طويلة متتالية، عاد منهكًا تعبًا لا يستطيع ردًّا على سؤال، ولا حتى الاستماع لكلمة حب، ساد الصمت وتسلل الجمود لتلك العلاقة الأسرية التي كانت في يوم من الأيام

من أروع العلاقات الزوجية على الإطلاق، سنوات مرَّت علينا يلفها ذلك الجمود القاتل، كل يوم ككل يوم، متاهة لا خروج منها، ودائرة مغلقة لا تبيح الخروج عليها مهما حدث، إنجاب ولدنا الأخير لم يكن كافيًا لفك ذلك الحصار الغاضب الصامت البارد في علاقتنا معًا، المرض الذي ألم بأحد أولادنا وتشاركنا معًا في السهر والألم لأجله لم يكن كافيًا لإذابة الجليد العالق بها منذ تلك السنوات العجاف، أحداث كثيرة مرت بنا كانت كفيلة كل واحدة منها أن تعيدنا إلى ما كنا عليه يومًا في ذلك البيت الذي أنفقنا جلَّ عمرنا في تثبيت أركانه وإظهاره بين الجميع في صورة محترمة تليق بمكانتنا وتمهد لمستقبل آمن لأبنائنا، الذين أخذوا مني اهتمامًا فوق العادة.

انشغل بالعمل خارج البيت ليجلب لنا مزيدًا من المال في ظل الظروف الطاحنة التي تمر بها البلاد ولا ترحم من يحب القعود أو يتوانى في بذل كل جهده في البحث عن المزيد مُتماشيًا مع متطلبات الحياة، التي تزداد يومًا بعد يوم، بينما انشغلت أنا مع أبنائنا في البيت لأربيهم كأحسن ما يكون، أخذوني منه كثيرًا، وكان كل عام يكبر فيه الأبناء يُبعدني عنه أكثر، وكل عمل ينشغل به وكل مال كثير يتكسبه لنا يبعده أكثر وأكثر عني ويأخذه مني، ابتعدنا ولم نشعر بذلك البعد في أوله فانشغالاتنا أحدنا عن الآخر أخذتنا، ولم تدع لنا وقتًا نفكر، كنت أدفعه للعمل وكان سعيدًا بنتاجنا معًا: (أبناؤنا).

يعود للبيت متأخرًا وربما لا يعود باليوم، باليومين، لا أسأل، المهم أنه في نهاية كل شهر يعطيني ما يكفيني لحياة كريمة وأكثر، حتى صار عندنا ما يكفينا لسنوات قادمة نحن وأبناؤنا وربما أحفادنا، كنا نلهث خلف الحياة وتلهث خلفنا، تعبت، الأبناء احتياجاتهم لم تعد تعتمد على الطعام والشراب والملبس الجيد وكلمة خطأ وعيب وحرام، المشكلات صارت أكبر بكبرهم، والاحتياجات للأب ازدادت ولم تعد توجيهات الأم وحدها تكفي، نظرت حولي وتلفت باحثة عنه ليشاركني مهامه الأبوية التي أخذتها على عاتقي، لم أجده، أصبح اللهاث خلف الدنيا عادة لم يعد لديه القدرة على فراقها.

قال لي: لقد خالفت الاتفاق بيننا، أنتِ لكِ عندي احتياجاتكِ التي طلبتها يومًا وليس أكثر، لا خرق للاتفاق الذي تم برضانا نحن الاثنان، لم يصبح زوجي، إنما أصبح آلة صماء تجلب لنا ما نحتاجه، تعبت، صرخت فيه عُد إلينا، انتبهت لخطأي، لكن بعد فوات الأوان، لمْتُه على ما فعلته أنا، أنا من قمت بوضع تلك القواعد، أنا من قتلت الإنسانية بيننا، أنا من حوَّلت البيت إلى مجموعة آلات حين قسَّمت المهام ليس لتنظيم البيت وإنما لهدمه وأخرجت زوجي من إنسانيته، أنا من فعلتها حين حولته جابيًا للمال، كل ما أتمناه اليوم أن يكون لي زوجي كما كان زوجًا إنسانًا لا جالب مال، كل ما أريده أن أستعيد ذلك اليوم الذي كنا نتضاحك فيه من كل قلوبنا حين كنا نؤخر فيه الغداء ليصير عشاء في وجبة واحدة فنملأ قلوبنا رضا يُكمل بروعته وجماله جوع البطون، أريد استعادة بيتي حيث كنت فيه معه هناك.

حين يُرهقنا الانتظار..

وتجف العيون من كثرة ما سكبت من دموع،

وتخفت دقات القلب،

وتبرد المشاعر،

ويمر القطار فيفوت الأوان،

ساعتها..

لا معنى للرجوع

لم يعد هناك معنًى للرجوع



وللحنين حديث أخر

تلك هي رسالتي الأولى إليك، وهي الرسالة التي لن تقرأها، كل حرف فيها نسجته من حروف كلمات كانت يومًا بيننا، كلماتك التي لن تموت، وقد قمت بتخليدها بغرسها في أرض رابعة ورويتها بدمك الذكي أنت وإخوانك.

سكون يلف الكون حولي رغم شدة الصخب، أصوات مألوفة لديَّ لأناس هم في الحقيقة أهلي، لكني لست أدري، لِمَ هُم بقلبي غرباء كالكون من حولي، هؤلاء كانوا أحبابنا أنَا وأنت معًا.. لطالما استقبلناهم معًا وتزاورنا فيما بيننا، وكأنك كنت أنت الصلة بيننا، كنتَ صلتي بالعالمٍ ونافذتي عليه، حتى في تلك الفترات التي غبت فيها مرغمًا عني حين غيبوك مرَّات خلف غياهب القضبان، كنت أستمد منك- وأنت المغيب- القدرة على الحركة الدعوية والعطاء غير المحدود أو المشروط، أستمد من شموخك العظمة، ومن ثباتك الصبر، ومن ابتسامتك اليقين في الفرج القريب.

أتحرك بين الجميع بقلبين وروحين وجهدين، أستحضر في كل حركاتي وسكناتي وحتى أنفاسي؛ أنني سأقتسم أجرها عند الله بيني وبينك، فتلك حركة بين المساجد لك وهذه زيارة في الله لي، ثم هناك مسيرة ومطاردة وغاز ورصاص تركت على الله أجرها ونذرتها في الأجر بيني وبينك.

هناك كنا معًا قضينا أيامًا هي عمر جديد لنا، مسار جديد، حياة مضافة فوق الحياة هناك حيث رابعة الأحباب والأخوة والصفاء والصدق والصمود والثبات، حيث خيرة البشر وأطهرهم، حيث الأرض التي عشقت خطوات السائرين عليها، والساجدين في ربوعها لتصير بدموع ساجديها من أطهر البقع وأشرفها، شرفت رابعة بمعتصميها، ورويت أرضها بأقدس دماء، كنا معًا نصلي فجر يوم المجزرة الأولى لتأتينا بعد الصلاة أنباء القتل في إخواننا أمام نادي الحرس الجمهوري، شاهدت الغضب المشوُّب بالحزن على وجهك، هممت بالرحيل بدوني فأقسمت عليك أن أكون رفيقتك إلى هناك كما تعاهدنا دومًا، فاسْتَبقَيْتني بحنوك الذي لا يعرف حدودًا أن أبقى إلى جانب وحيدينا؛ فإن رُزِقَ أحدنا الشهادة فهي للآخر ذُخرًا عند رب العالمين، ولسوف يكون له شفيعًا عنده.

بقيت وحدي داعية الله أن يحفظك- رغم عشقي للشهادة- كنت هناك وأنا هنا المصابة المخنوقة بغاز الظالمين، ذهبت عونًا لإخوانك هناك غير عابئ بدنيا، بينما أخذت قلبي معك يدور حيث تدور، وعدُّت سالمًا حزينًا أن لم يمن عليك رب العالمين بشهادة منحة من عنده، في المسيرات لم تفارق يدانا الأخرى، نحمل صغيرينا ونسير كل مرة تجاه الموت غير آبهين، فليأتنا وقتما يشاء طالما أننا معًا، ثم تأتي مجزرة المنصة، ثم نُطارد في مسيرات من رابعة وإليها نجري معًا، نهرب معًا، نواجه الموت معًا، نتضاحك ونفرح ونتعب، وتلهينا شقاوة طفلين عن مشقة المسير في نهار صيام حار، ثم نجتمع مع الأحباب على إفطار في شوارع تحتوينا وكأنها الجنان الوارفة لنُكمل ليلنا قيامًا وركوعًا نفترش أرض الخيمة وكأنها قصر منيف.

ينام الصغار تملؤهم براءة الطفولة وعزيمة الرجال وصبر المبتلين المحتسبين، كبروا قبل الأوان، لكنهم مستقبلنا كما اتفقنا معًا، هم غرس هذه الأمة، هم أملها، عرفوا ماذا تعني الأمة، تألموا لألمها، الصغير ذو الخمس سنوات يهتف بسقوط حكم العسكر، والكبير الذي يسبقه بعامين أصبح تقييمه للكبار بقدر فهمهم لقضية الحرية، اهتممنا بغرسنا معًا كي نلقى به الله، في شوارع رابعة لم تكن لياليها ككل الليالي، التي يعدها الناس بميزانهم المعهود، وإنما كانت كل ليلة بسنوات في عمر تربيتهم، مرَّت لياليها لتضيف لنا ذكريات لا تُنسى، ذكريات تُبنى عليها ليست حياة واحدة لجيل، بل سيُبنى عليها مستقبل بلادنا لأجيال متتالية.

في الليلة الأخيرة، تعاهدنا على الصمود معًا، بعدما تواترت الأنباء عن مجزرة جديدة غدًا، كنا نحسبها كسابقاتها، تعاهدنا على الصمود معًا، والثبات معًا، وألا يسبق أحدنا صاحبه إلى الجنة، سألنا الله الشهادة معًا، جاء الغد ورحلت أنت، رحلت وحدك، في يوم لم تكن فيه شمس رابعة كعهدها بنا، بل غابت بمجرد ولادتها، غابت خلف دخان الغاز، ودخان الحقد، ودخان الخيانة، غضبت رابعة، وغرقت في أطهر دماء عرفتها الأرض في زماننا، نعم تعاهدنا على ألا يسبق أحدنا الآخر، لكن.. رصاصات الغدر قنصتك أنت من دوني، بينما تسرع لإنقاذ المستشفى من حرق الشهداء بها، لتلحق بهم شهيدًا، شهيد يحمي شهيدًا، ويحمل شهيدًا، وكأنها أرواح تعتلي إحداها الأخرى صعودًا إلى السماء في عليائها عند رب العالمين.

منذ الصباح وقد غابت الشمس، علمت أن خطبًا ما سوف يحدث، فبيني وبين الشمس أحاديث لا يعلمها سوانا- أنا وهي- وقد صدق حديثها إلـيَّ، غابت شمس رابعة، ورحلت نهارًا مع رحيلك عنا، تركتني والوطن وحدي، وحين داهمتني خيوط الليل وجدتها وهي تنسج حكايات جديدة بحروف ولغات جديدة لم أكن أحسب أنني سأتقنها يومًا.. الوطن الذي يُكابد، وقلبي الذي يُكابد، رغم ثباته وفرحته للحبيب الذي صدقٍ فسبق، حتى النهار كان يكابد كي تبقى شمسه الغائبة قليلًا ببعض ضوء باهت لها، باك مع الأرض الباكية دمًا؛ كي يُلملم المرهقون جراحهم النازفة ألمًا ووجعًا، لكن خيوط الليل سرعان ما تتغلب عليه ليعلن نهاية نهار حياتي فيمتد العمر ليلًا طويلًا.

تركتني والصغار وحدي، مع الأقارب الغرباء عني، فقد صرت نصفًا، نصفًا سبقها نصفها الآخر إلى حيث اتفقا، تُرى، هل تذكرنا هناك حيث الخلود مثلما نذكرك هنا منذ اليوم الأخير في رابعة الخير، مثلما تذوب نفسي لهناك مع شمس الغروب منذ صباح اليوم الأخير فيها، غامت الدنيا ولم تشرق منذ تلك اللحظة لتصير الحياة بعدك فراغًا، صرت وولدي نترقب لحظة العودة التي أعلمها مستحيلة، نترقب الخطوات التي نسمعها في آذاننا وحدنا.

آثار خطواتك في الشارع لا تمحوها كثرة الخطى، وصوتك القادم من بعيد ما زال في الآذان يهتف بي خذي الولدين واذهبي إلى داخل الميدان مع الأخوات حتى أعود، كنت أعلم أنك لن تعود، قلت لي: والله إني لأشم رائحة الجنة، كانت خطواتك تتسع كلما اقتربت من مكان المستشفى حاملًا جثة شهيد فوق كتفك المنهك من كثرة من حملتهم، نقر أصابعك على باب بيتنا ما زال يجذب أسماع ولدينا؛ فيهرعون إلى فتحه ظنًّا منهم أنك قادم من الجنة كي تأخذنا معك.

تلك رسالتي إليك أعاهدك فيها رغم الفراغ الذي خلفته لنا؛ أن لا أترك الطريق الذي تعاهدنا على السير به؛ فغرسك لم يكن غرسًا عاديًّا، إنما كان غرسًا مباركًا رويته بالعزيز، الذي لن يضيع أبدًا عند الله سدى، طريقنا سأكمله رغم مرارة الألم ولو كنت وحدي، فالحرية التي رويتها بالدم تستحق، ودينننا الذي أعليت رايته دونه الرقاب، فكن قرير العين ونحن من خلفك في طريقنا الموحش سائرون.



برغم وعورة الطريق..

وصعوبة المسير،

وتلاحق الأنفاس،

والغربة..

إلا أن الحياة ما زال فيها بعض الخير؛

فلنتمسك بذلك البعض..

كي لا يضيع منا في غياهب الأحزان.

شكرًا لكم يا من تجددون الأمل

رغم طول المسافات



الليلة الأولى

سمعت كثيرًا عن تلك الليلة من كثيرين خاضوها من قبلي، ربما بسنوات أو بحقب طويلة، وأصبح لزامًا عليَّ أنا أن أصفها لمن سيخوضها بعدي، حتى لا يفاجئوا بأمر لا يستطيعون تحمله أو تجاوزه، حكوا لي كثيرًا عن التشريفة والاستقبال الحار، وعن العروسة التي يأتون بها إليك رغمًا عنك وعنها، تحدثوا عن ذلك الشراب الأحمر الذي يقدمونه في تلك الليلة بالذات، بينما أنت في دهشة مما يحدث.! تتساءل كثيرًا وأنت فيها.. أين أنت؟ ومن تكون؟ نعم، فمن كثرة المفاجآت تنسى من أنت وأين أنت! الظمأ يكاد يقتلني.. حلقي يجف شيئًا فشيئًا، ربما يكون من شدة ترقبي لما سوف يحدث، وربما يكون من توجسي لذلك الشراب الأحمر الذي سيقدمونه، ما هو طعمه؟، وما هو مصدره أو كنهه؟.

مكثت مع مجموعة في حجرة تكاد تكون مظلمة، لا أسمع فيها إلا أصوات همسات مترقبة مثلي، لا أحد يرفع صوته بالتساؤل، الكل فقط مترقب في تلك الغرفة العجيبة، صوت خطوات حائرة هنا وهناك، خطوات رتيبة يخترق صوتها الآذان المترقبة خلف الأبواب.. ازداد إحساسي بالظمأ وازداد شوقي للماء.. تتوقف الخطوات الحائرة أمام غرفتنا، يفتح الباب ويشتد الشوق للماء، لحظات من السكون لم أشهدها من قبل إلا في مواقف لا يمكن أن تحدث هنا في هذا المكان وتلك الغرفة المترقبة بالذات.

تراءت أمام عيني عشرات المشاهد الساكنة الصامتة المُهيبة، لا تسمع فيها إلا صوت الأنفاس المتلاحقة من شخص إلى آخر، تكمل بعضها بعضًا حتى كأنها تكاد تسد فجوات الزمن، فلا تترك فرصة لتردد النفس ليدخل ثم يخرج، وإنما كلها أنفاس تخرج، وكلها أنفاس تدخل تسمع معها للصمت صوتًا.

مشهد القبور حين نذهب بعزيز لدينا لنودعه التراب، مشهد الرحيل حين يكون لزامًا عليك أن تغادر حبيبك إلى حيث الغربة والسفر، بينما تقِفا حائرين أمام دموع مرة المذاق ولا تجدا كلمات تعبر عن حالكما، مشهد تلاوة آيات من كتاب الله في جوف الليل وحين تشرق شمس التوبة الصادقة على نفس مؤمنة غلبتها الدنيا في حين غفلة من ضميرها الحي.

تتوقف الخطوات الحائرة أمام باب غرفتنا؛ فينخلع لها القلب، وأتوجه بالنظر إلى من حولي، ليس بالالتفات، وإنما بالإحساس بذاتي، فكل النفوس هنا لا تملك إلا ذاتًا واحدة، وقلبًا واحدًا، وأنفاسًا متلاحقة تكاد تصدر عن صدر واحد، لم أشعر أنني أنا التي جئت هنا منذ بعض الوقت، يقولون إنني هنا منذ فجر اليوم الذي يمر بي الآن، بينما أشعر أنا أنني هنا منذ حقب لست أدري عددها، فهنا لا يهم الزمن، لا يهم كم مرَّ عليك من أيام، هنا العمر يحسب بالأحداث، كم ليلة انتظرت ذلك الشراب الذي يقدمونه للخاصة من القوم، كم ليلة انتظرت فيها العروسة لتقضي معها الليل بطوله، كم ليلة أراد صاحب المهرجان الكبير أن يستضيفك، بينما هو ليس عنده ما يقوم بتسليته تلك الليلة سوى أن يتسلى معك أنت، هكذا تُحسب الأيام هنا في ذلك العالم العجيب.

نظرت في نفسي في تلك اللحظات المُترقبة، لم أشعر أنني إنسان، وإنما تمكن مني شعور بأنني جثة، وأن من حولي جثث تنتظر التصريح بالدفن، كلنا نترقب، أو بالأحرى كل الجثث تترقب، يتجول القادم بنظره ليشير على جثة أحد منا، تتعلق العيون المتوجهة بالخوف، تُرى على من سيشير؟، ومن سوف يكون ضيف تلك الليلة؟، وباعتبار أنني الجديد هنا، وتلك هي ليلتي الأولى فقد وقع الاختيار عليّ أنا، تتعلق العيون بي شفقة ورحمة، ولست أدري لم كل تلك الشفقة!، ومع أنني لم أنظر في عيونهم؛ إلا أنني نظرت في نفسي الميتة فوجدت فيها شفقة على نفسي ولست أدري لِمَ؟ تقف جثتي الممددة ولا أعرف كيف؟ كيف يُبعث الإنسان من بعد الموت؟ لا تكاد قدماي تحملاني انخلع قلبي وأصبحت بلا قلب واشتد ظمئي واشتد شوقي.

ـ مطلوب عند الباشا، قالها بكل برود الدنيا، واستمعت إليها بجسدي الميت وروحي المُنهكة، سرت ولا أدري أفي الدنيا أنا أقابل الباشا أم في الآخرة أقابل ملائكة الحساب، دخلت مكتبًا فخمًا، محمولًا أو مستندًا على شيء متحرك ينبض مثلنا وله قدمان مثلنا بينما بحثت في جنبات نفسه لأجد له قلبًا، فلم أجد! في المكتب وجدت باشا مُبتسمًا ويبدو أنه رجل خلوق مضياف، قابلني بابتسامة واسعة، ووقف بنفسه ليستقبلني ويأمرهم بإحضار كرسي خاص بي لأجلس قبالته مباشرة، على المكتب زجاجة ماء باردة، يظهر من جدرانها المشبعة بقطرات الماء أنها باردة، وجدتها أمامي تُناديني أن اقترب، جذبتني قدماي إليها ومددت يدي كي أنتزعها من فوق المكتب،

وإذا بها وهي القريبة مني تبتعد عني مسافات ومسافات.. تبتعد عني كما بين السماء والأرض، أو كما بين الموت والحياة.. مددت يدي فوجدت جدارًا وجدارًا، وجدت عصا الساحر الشرير.

امتلأت عيناي بالدموع من شدة الشوق إليها، شربت دموعي وشربت وكثرت الدموع، لكنني ما ارتويت، تكلم الباشا وسأل لكني لم أجِبْ، ليس لأني لا أعرف الجواب ولكن لأني لم أستمع إلى السؤال، شدة الشوق إلى الماء حجبت عني الاستماع، ورأيت الإشارات من خلف الدموع فإذا بالباشا يُشير إليهم، وإذا بالعروسة تأتي وإذا بهم يحملون جثتي إليها، لم أشعر بما يفعلون، ولم أدرِ ما يريدون، لم أرَ غير عرائس تتحرك، وكرابيج تتسارع لتُحطم وتُمزق، لكن لا أدري من تُحطم ومن تُمزق غير أني شعرت بشراب لزج رأيته أحمر بينما هو يتساقط على وجهي وعيني إلى فمي الظامئ؛ فشربت وشربت لكنني ما ارتويت......



أحيانًا، تتملكك رغبة كبيرة في البكاء، وتنأى بنفسك بعيدًا
عن كل ما هو حولك ثم تسقط منك رغمًا عنك دمعة
لا تستطيع حبسها
ثم تكتشف أنك في هذه اللحظة
قد اكتويت بنار الشوق لحبيب
مضى عليه سنوات بعيدًا عنك
فتجد أن دمعتك أصبحت نهرًا من الدموع
والابتسامات..
دموع الشوق وابتسامة الذكرى.



الزيارة أو طرقات الليل

حين يتلهف قلبكِ على رؤية حبيبك في ذات الوقت الذي تخشى فيه اللقاء خوفًا من لحظة فراقه مجددًا، وكأنه جرح نازف متجدد...إنه يوم العرض الجديد بعد انقضاء مدته الثانية الخمسة وأربعين يومًا، وتلك هي فرصتنا في رؤيته، تتراءى الصور أمامي بالعشرات كأنها شريط يتجدد، لحظة الخطف، ذلك المشهد الذي تكرر كثيرًا في حياتي، كان يوم عُرسي يومًا لن أنساه، كما لم تنسَهُ أي امرأة مُحبة لزوجها، ازْدَان البيت بالزهور والأنوار الكثيرة تجمَّع الأهل والأحباب من كل مكان؛ كي يُشاركوا العروس فرحتها، أطفال الجيران يلعبون ويمرحون يملئون البيت بالفوضى المرحة، الأم تزغرد والدموع ملء عينيها من شدة الفرح، امتلأ البيت عن أخره بالمُهنئين منهم الأقارب ومنهم الأحباب ومنهن من أتت فقط كي تُشاهد العروس المُحجبة.

أقيم الحفل، كان أكبر مما أتمنى، وأحسن مما أتصور، لم تنسني الفرحة أن أسجد لله شكرًا وتقربًا، وكيف أنسى أن أشكر المُنعم على نعمته؟ وهبني رجلًا ليس ككل الرجال، رجلًا تقيًّا وزوجًا نقيًّا وحبيبًا مخلصًا رائعًا لا يعرف سوى الله حقًّا، وما دونه فكله باطل، ولا يعرف سوى طريق الله وأما ما عداه من طرق فلا يؤدي إلا إلى الهلاك، غايته واحدة وسيلته واحدة إنسان رباني فكيف لا أشكر ربي على نعمته، التي اختصني بها دون غيري، انتهي الحفل الرباني، سِرْنا في طريقنا معًا خطوة خطوة، قلبان مُتصلان بالله مسبِّحانِ بحمده إلى بيتنا الحبيب، صعدنا درجات السلم معًا باسم الله وعلى بركته.

على باب بيتنا رأينا ويا لهول ما رأينا؟ كانوا مدججين بسلاح الشيطان معتصمين بحبال المعصية، الشر يتطاير من عيون حمقاء، جذبه أحدهم من يده الطاهرة.. نريدك نصف ساعة، سقط قلبي أمام بيتي الوليد ماذا يريدون منا؟ قال لي: لا تخشي شيئًا يا حبيبتي، فسأعود بإذن الله، وإن لم يحدث ففي طريقي سيري، أكملي الطريق لا يوقفنك عنه خوف أو جزع، سأكون سجينًا وأنتِ حرة.. كوني لساني الذاكر بين الناس إن ألجموا لساني، وكوني قلبي الشاكر إن توقفت دقات قلبي، كوني قدمي السائرة على طريق الحق فالطريق أمامكِ فلا تحيدي عنه فنحن شئنا أم أبينا مصابيح للناس، إن انطفأ المصباح من حولهم فماذا يفعلون!

وأخذوه...

سار معهم، لم تهتز له شعرة، رابط الجأش ثابت الخطى غاب عن ناظري، استحييت أن أبكي وأنا أراه بهذه الصلابة وهو الأسير!، وددت لو أكون مثله في صلابته وقوته ورفضت أن أكون جزعة، دويُّ كلماته في أذني" في طريقي سيري"، خطوت نحو بيتي كي أدخله وحدي بعد ما أخذوا الرفيق والحبيب، جذبتني أمي: لا يا ابنتي ستعودين معنا، ولن تمكثي هنا، فمن أدرانا أنهم لن يُعيدوا الكَرَّة إليكِ أنتِ؟ لم ألتفت إلى كلماتها، خطوت نحو بيتي الخاوي قلت لهم: دعوني وحدي فسأكون بانتظاره مع مطلع كل فجر، سأكون بانتظاره ومع مشرق كل شمس ومغربها سأكون بانتظاره مهما طالت غيبته، كنت أتوقع حضوره في أي لحظة أستعد لها كل يوم أهيئ نفسي وبيتي لاستقباله كما تتهيأ العروس.

مر يوم وشهر وسنة.. مرت سنة كاملة!، وأنا على انتظاري له، حتى تنقضي تلك النصف ساعة التي أرادوه فيها، مرَّ عام بأكمله وما زلت أنا العروس المُحبة، بل المتيَّمة بحبه.. لم تفتر عزيمتي، كلماته في أذني لا تضيع.

عاد.....

جاء يوم لقاء جديد يوم عرس جديد، جاء صلبًا قويًّا، بل خلته أصلب عودًا مما كان عليه وأقوى.. لم تؤثر في عزيمته الأيام، وجهه كان شاحبًا، لكن بريق عينيه لم ينطفئ بل ازداد توقدًا، بشرته مالت للاسمرار، لكن نور وجهه ازداد بريقًا، أصبح أكثر نحافة لكن أصلب عودًا.

كنت بعودته يومئذ أسعد مني في يوم عرسي قبل ذلك بعام، سعدت به وسعد بي، سجدنا لله شكرًا، وتوالى علينا المهنئون؛ كي يباركوا عرسنا الجديد، مرَّ شهر كنا فيه أسعد ما يكون البشر، نسيت في هذا الشهر كل ألم شعرت به في عام مضى، شهر عاد فيه كل مريض يعرفه، ووصل فيه كل ذات رحم وبرَّ كل من له برْ به، إلى أن جاء ذلك اليوم المشئوم، أيقظني لصلاة الليل قمنا لله معًا وسجدنا معًا ودعونا معًا، تلونا كتاب الله إلى أن حانت صلاة الصبح، استعد للصلاة بالمسجد رجوته أن يبقى اليوم نصليه معًا، رفض وأبى إلا أن يصلي بالمسجد قائلًا: إذا تخلف الإمام فما يفعل المؤتمون!

خرج للصلاة ولم يعد......

أخذوه هذه المرة من المسجد، التهمة" التحريض على قلب نظام الحكم"، في هذه المرة طال انتظاري، مر عام وعامان وثلاثة أعوام.. مرت كلها دون أن أراه ولو لمرة واحدة، بحثت في كل مكان حتي علمت أخيرًا أنه في أحد معتقلات صعيد بلادنا المُعتقلة، حملت معي كل أشواقي ولهفتي وسافرت إليه، قطعت الطريق الطويل بالقطار، مرت الساعات كسنوات ثقال..

وصل القطار.

دقات قلبي أعلنت قرب اللقاء، دخلت من البوابة الحديدية الكبيرة، ثم سرت كثيرًا ودخلت من باب دهليز لممر، ثم أبواب أخرى.. آه يا زوجي الحبيب، كل هذه الأبواب تُحبس خلفها؟ ولِمَ؟ أيخشونك إلى هذا الحد؟! أنت يا من يحبك البعيد والقريب؟ ويوقرك الكبير قبل الصغير؟ أنت يا بلسم الحياة الجريحة؟ أنت يا من تحمل كتاب الله بين جوانحك؟ يخافون منك؟ ومم يخافون؟ من حق تنادي به.. أم من نور تريد أن تهدي إليه الناس؟

التقينا....

كادت صرخة مكبوتة تخرج مني لولا أن تداركت الأمر وتمالكت نفسي.. انهمرت الدموع من عيني وقلبي لم أستطع إخفاءها.. حاولت إخفاء ما بي، رسمت ابتسامة باكية على شفتاي.. ابتسامة منفجرة بالدموع الملتهبة.

قابلته..

إنه هو وليس هو، إنـه هو وليس، إنـه ليس إلا هيكل إنسـان افْتَرَسـته ذئـاب لا تعـرف الرحمـة، علامـات التعذيب على جسده الواهن..

- السـلام علـيكم ورحمـة الله وبركاتـه، كيـف حالـك يـا حبيبتي؟

قالها بكل حنان الدنيا، قالها وكأنني الحبيسة لا هو، أنـا المعذبة لا هو، انفجرت باكية، صرخت، ما عدت أحتمل، لـم مـا نحن فيـه؟ مـا جرمنـا؟ لـم يحـاكم المظلوم ويطلق صراح الظـالم؟ لـم يحاسـب المقتـول ونشـرب مـن دمـاء الضـحايا الأبرياء؟

- اصبري؛ فما هي إلا بشائر بأننا على طريق الحق (الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ) **[العنكبـوت: ١، ٢] نحن فقط في السجون وقد وُضِع الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في النار...**

- ولكنها كانت بردًا وسلامًا

- ومـن أدراكِ أن السـجون ليسـت بـردًا وسـلامًا؟! والله إنـها خير علينا من القصور الفاخرة، إنـها لخلوة لمن أراد أن يختلـي إلـى الله، ومسـجدٌ لمـن أراد أن يتصـل بـالله، وأخـوة صادقة لمن أراد أن يتآخى في الله.

- إنـهم يعذبونك، ألا يكفيـهم سجنك؟!

- والله ما زادني كل هذا إلا صلابة وقوة، ثم إني رجل.. فهل أكون أضعف من امرأة فرعون؟

- لا أستطيع أن أحيا هكذا، مللت الحياة والأحياء، كرهت كل ما حولي، الناس من حولي يعيشون، الزوج مع زوجته، الأب مع أبنائه، التاجر مع تجارته، كلٍ منهم يبيت في فراشه آمنًا، وأنت! لا يعلمون عنك شيئًا، بل إنهم اتهموك بالسفه والطيش، ومن أجلهم أنت هنا!!

- لا يا حبيبتي، أنا لست هنا من أجل أحد، أنا هنا من أجل ديني ودعوتي، دعوة ربي، كلمة الحق التي ناديت بإعلائها، وكما قلت لك من قبل هذا طريقي وأنا سائر فيه، سائر ولن أظلمك فإن أردتِ السير معي؛ فاصبري وكوني دافعًا لي، وان عجزتِ عن مواصلة المسير فلكِ حريتك ولن أكون حائلًا بينك وبين ما تبغين.

صرخت في وجهه أن يكف.. ماذا يقول؟! هل يتصور أنني يمكن أن أختار فراقه؟! ألا يدري ما هو بالنسبة لي؟!

أمسك بيدي قائلاً: حبيبتي، أريدك معي كما آمنت بلقيس مع سليمان لله رب العالمين، أريدك لأنه الطريق الوحيد الذي يجب أن نسير فيه «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ﷺ ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها وامرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

جاءنا المُنادي مُعلنًا انتهاء الزيارة، وقبل أن أعده بتكرار الزيارة في وقت قريب؛ طلب مني أن أفكر في عرضه وأتريث في الرد.

عدت في طريقي وأنا لا أشعر أنني بنت الخامسة والعشرين، وإنما كنت أحمل فوق كاهلي آلاف السنين، اشعر بالعجز والكهولة، شعورٌ يسري في دمي فتتثاقل قدمي عن المسير، حملني القطار إلى حيث العش البارد، تتعارك أفكاري جميعًا، صوت قلبي يعلو.. لن نحتمل ما نحن فيه، لن نحتمل آلام الفراق، لن نحتمل الوحدة البشعة، لن نحتمل الكثير والكثير...صوت كلماته هادئ رزين.. إن شئت الاستمرار معي فليكن لله وليس لي ولتصبري وتحتسبي، وإن لم تستطيعي فلكِ ذلك ولا حرج، كيف أتته الجرأة في أن يفكر في ذلك أو أن يخطر له مجرد خاطر؟ أيحسب أنني يمكن أن أقبل غيره؟

إنه يزن عندي رجال الدنيا بأكملها، إن كل ما أريده أن أحيا معه حياة هادئة ككل الناس بعيدًا عن المتاعب وطرقات زوار الليل، أهذا كثير عليَّ؟ أعلم أننا على الحق، أعلم أنه طريق واحد، بل أنا على يقين من ذلك يقيني بوجودي، ولكن ماذا يفعل مشعل واحد بين كل هذا الظلام الدامس؟

مرت أيام قلائل ولكنها أيام عصيبة، ورغم شظف العيش وقلة المال ومشقة السفر اشتقت إلى سماع كلماته، الإحباط يكاد يقضي على يقيني والوحدة تقتل الأمل بداخلي؛ قررت أن أعود لزيارته.

هناك فوجئ بسرعة عودتي للزيارة، قلت له: نحن وحدنا من أضأنا لهم الطريق، لا يُبصرون.. أردنا لهم النجاة فقالوا إرهابي ومتطرف وعميل وأحيانًا شيوعي، لم يتركوا تهمة إلا وألصقوها بك.

- رسـول الله كـان وحـده إلا مـن الله.. وهـو كافيـه، وكذلك كل رسل الله.

- سنموت قبل أن يعرفوا الحقيقة.

- رسول الله بشَّر بالفتوحات ومات قبل أن يراها.

- الظلام أشد، والطريق أكثر وعورة، والقوم غير القوم، والوحوش أكثر ضراوة.

- الظلام هو الظلام، ظلام الجهل والرذيلة، والطريق هو الطريـق لم تـتغير معالمـه ولم تتبـدل، إنهـا سـنَّة الله في الأرض والقوم هم القوم كل ما تغير هو لون الجلود، أما القلوب فهي هي، السيف أصبح مدفعًا، والفرس صار دبابة، ورمال الصحراء صـارت سـجونًا ولهـا جـدران، الظلـم هـو الظلـم ولكـن تعـددت أشكاله، إنمـا الحق واحـد ولـه سبيل واحـد، فإن حِدْنا خسـرنا الـدنيا والآخـرة، ونكـون حينئـذ جـزءًا مـن القطيـع المُسـاق، وساعتها لن يشفع لنا عند الله أن الناس كلهم في ضلال.

تعجبت من أين يأتي بهذه القوة وهو حبيس الجدران العالية والأبواب الحديدية؟ من أين يأتي بهذا اليقين وهو ضعيف البنية قليل الحيلة، يا ويحي، أنا الحرة الطليقة عجزت أن أكون في مثل يقينه، قلت له:

ألا تخشى أن يقتلوك؟ قال في صلابة أكثر: بل مرحبًا بالموت في سبيل الله، انفتحت مغاليق قلبي لكلماته، تساقطت الدموع من عيني أخذة معها أثار الغشاوة الشيطانية، بريق عينيه اخترق صدري وعقلي، رأيت النور بعدما كنت أسمع عنه، شعرت به يسري بداخلي وكأنني أغتسل من رجس ألمَّ بي.

في طريق العودة، تغيرت نظرتي للجميع إلى نظرة شفقة ورثاء، نعم.. أشفقت عليهم، مساكين إنهم لا يرون النور، الغشاوة الدنيوية تغشى قلوبهم وتحجب عنهم الرؤية، مساكين حقًا، محرومون من أسمى شعور بالسعادة.

آه يا قلبي! كيف لم تفطن؟ وكيف لم تدرك كل هذا الخير أمامك وتنهل منه!، الطريق أنت في بدايته فكيف لا تواصل المسير، فتحت باب بيتي الموصد كما فتح قلبي، فتحته في وجه كل من أراد أن يعرف النور الرباني، واصلت مسيرته.. عدت المريض، وصلت رحمي المقطوعة، كنت عونًا لكل محتاج على قدر استطاعتي، كان حبيسًا وكنت عينه الغاضة عن كل ما حرَّم الله وقدمه السائرة على طريق الحق ويده الممتدة بكل خير، كان مُجاهدًا داخل الأسوار وخارجها.

وفي يوم مات الزعيم.. الزعيم الذي علا عندهم إلى درجة الأنبياء وبلغ مرتبة الآلهة، انطقوا يا من جعلتموه إلهًا هل يموت الإله؟ انطقوا يا من كنتم تهتفون بأرواحكم ودمائكم.. هل منكم من يجرؤ أن يوضع في قبره؟ هل منكم من يرضى أن يحمل عنه شيئًا من أوزاره؟ أم إنكم الآن تكيلون له اللعنات وتهتفون باسم إله جديد؟

مات الزعيم، وَوُلد بموته بعض الأمل في أن يرى الحبيس شمس الحياة.. فقد جاء الزعيم الجديد وأمر بغلق المعتقلات إذًا، سيعود الغائب إلى عشه، وها أنا ذا في انتظاره، جاءني كل المحبين، كل الأقارب، امتلأ البيت عن آخره مستعدين للقاء الحبيب العائد، عيناي لا تكفان عن النظر هنا وهناك، من الباب تارة ومن النافذة تارة، يكاد يُغشى عليَّ من شدة الإعياء والاضطراب، أسمع الأغاريد.. فكَّ أسر الحبيس، فُتِحت الأبواب الحديدية، إنه يصعد درجات السلم، يدخل من الباب المفتوح، أسقط من الفرحة، الكل يهنئ ويبارك، قال لهم بوجه باسم: أنا هنا في مجرد زيارة فسأعود حين تجعلون الزعيم الجديد إلهًا آخر.

انصرف الجميع وبقينا معًا، ذهب ليُغلق الباب قلت له: لا، إن بابنا لا يُغلق، فهو مفتوح لكل من أراد أن يرى النور.



حين يضطرب القلب حنينًا
ولا يعلم مكنونه إلا اللهُ؛
فدعوه وحده
لعله يستطيع أن يمارس بعض طقوس الإنسانية.



أفراح الغد المهزوم

تُرى هل كان حلمًا؟

أم إنه الوهم الذي طالما راودني كثيرًا وقد حسبت أني قد برئت منه بغير رجوع؟ هل كان رغبة دفينة تجسدت في هيئة رجل جاء ليحمل معه كل الأحزان وكل الهموم وكل سنوات الانتظار ليُلقي بها في بحر الظُلمات.

ولكن..

هل هناك حلم نلمسه بأيدينا ونضمه بجوانحنا؟، وهم نلمح الحنان والحب في عينيه؟، هل هناك رغبة مكبوتة تتجسد في دفء يضمنا وأمان نشعر به؟ ليس هناك احتمالٌ إلا أن يكون حقيقة، ربما تكون قد حدثت في عالم غير عالمنا وزمان غير زماننا، لكنها بالتأكيد حقيقة أروع من الخيال.

لم أعتد يومًا أن يُهاتفني أحد أو يطرق بابي، سنوات طوال وأنا على هذا الحال، أحيانًا كنت أشعر بالملل، لكن الأيام تداوي ما لا يداويه الأطباء، فمنذ فراق والدي ثم زوجي وأنا هكذا وحدي، أروح وأجيئ، أعمل وأدرس، أمرض وأصح، أخرج للتنزه وأمكث في البيت لأيام طوال دون أن أرى الشمس، كل هذا اعتدته فلم تعد تحزنني الوحدة، ولم يعد يؤلمني المرضِ، ولم تعد الحياة تغريني، وجدت كل الناس يحملون هاتفًا محمولًا في أيديهم؛ فقلت لنفسي: ولماذا لا يكون لي هاتف مثلهم!، ابتسمت لنفسي وأنا أنتقي من بين كل المعروض وأقول ومن سيتصل عليَّ؟

لكنني اقتنيت واحدًا من أحدثِ الأنواع أسوة بمن أراهم في كل مكان، كنت أتخذه صديقًا لي، أنظر فيه كل برهة وكأنني سوف أجد به ما يُسعدني ويجبر كسري، وكأنني أنتظر رسالة من مجهول أو اتصال من قريب يربطني بالدنيا وبالأحياء، أحيانًا كثيرة بينما أنا في سيارة تقلّني إلى عملي، أو في متجر أستكمل منه بعض الأشياء التي ربما أكون لست في حاجة إليها؛ أستمع إلى رنات هواتف عديدة فأسرع بالبحث داخل حقيبتي عن هاتفي، وأنظر بالرغم من أن مصدر الصوت ليس عندي، وبرغم أنني واثقة أنه ليس أنا، إلا أنني في كل مرة أفعل نفس الفعل دون شعور مني ودون تفكير، يتكرر نفس الفعل وأكرر نفس رد الفعل.

اليوم كان مُختلفًا، منذ بدايته، رسائل غريبة على هاتفي، ظننتها في البداية على سبيل الخطأ، لكن مع تكرارها وجدت اسمي يتردد بها، إذًا فهي لي أنا، فليس معقولًا أن يكون الخطأ في الرقم لتكون صاحبته أيضًا باسمي، قرأت الرسالة الأولى لتزداد دقات قلبي وترتعش يداي ويكاد يسقط الهاتف من بينهما، شعرت بتدافع الدم حتى كأنه لهب شديد يكاد يحرق وجهي، قرأتها مرارًا حتى حفظتها عن ظهر قلب، أغمض عيناي لأتخيل كلماتها أمامي، ووددت لو كانت لي، تخيلتها لي، وتخيلت صاحبها وهو يوجه لي تلك الكلمات، يبتسم لي ويطيل النظر إليَّ لتلتقي النظرات، فأهيم فيها وأغرق، تخيلته وكأنني أعرفه لسنوات، تبادلت معه الحوارات، وحكيت له عن تاريخي كله، تاريخي الخالي من الأحداث، صفحات فارغة انتظرت طويلًا من يُشاركني كتابتها.

لم تكن الكلمات المرسومة أمامي حروفًا معروفة، إنما كانت كعقد ثمين أو كورود منظومة في كلمات رقيقة، حتى أني تخيلتها كائنًا رائعًا تنظر إليَّ وتبتسم، وتُشير لي أن انتظري فما زال هناك الكثير، ورغم حفظي لها جيدًا إلا أن النظر إليها فيه متعة غريبة، تملأ قلبي بالحب والسعادة والامتنان، وتُشبعه بحنان لم أشعره من قبل، حنان يُعطي قبل أن يسأل ماذا سيأخذ، حنان يريد أن يُحطم السد الذي يعترض طريقه ليفيض على العالم كله، دقائق معدودة عشت فيها عمرًا بأكمله، عمرًا من المشاعر المُتدفقة، وقصة حب تتسابق مع أعظم الحكايات لتتخطاها إلى حيث مقدمة عالم الرومانسية والجمال، عالم غريب من أمواج ساحرة لست تشعرُ فيها ومعها سوى بالهيام والرضا، تمر تلك الدقائق في غياب من نوبات عقلية ساخرة تظهر برهات قليلة لتبتسم في عجب، كيف أيها القلب تصدق ما هو ليس لك، إنها مجرد رسالة أرسلت عن طريق الخطأ، فلا أحد يعرفك، ولا أحد يهتم بك، ولم أنتِ دون غيرك!، يسخر العقل بينما يشيط القلب غضبًا؛ ليُصارع ذلك الحديث الرديء الذي يُخرجنا مما نحن فيه في عالمنا الجديد.

يُصدق القلب الأسطورة ويعيش فيها وكأنها له هو، وكأنه يعيش فيها منذ زمن بعيد، فها هو يخاطب حبيبه، يفرح معه ويغضب، ويتحاور، يُخاصمه ويعود إليه، يصدق القلب ويعيش، ويعترض العقل ويحاول السيطرة إلى أن أتت الرسالة الثانية.

"نعم أريدكِ أنتِ، أنتِ دون غيرك، فأنتِ من انتظرتها طويلًا،
وها هو لساني ينطلق أخيرًا بما يجول في قلبي لسنوات طوال".

دارت بي الدنيا، ازددت رعشة وخوفًا على خوفي، شعرت بدوار أكثر، فحتى الآن يسير الأمر في حدود عقلي وقلبي فقط، أما هذا الوافد المجهول، فلا، لم أستطع أن أتمالك نفسي منذ أول وهلة للرسالة الثانية، إن الحكاية لم تعد مجرد حلم في طي قلبي وعقلي، بل إنها تعدت ذلك ليكون هناك إنسان حقيقي، وأنا لم يحدث معي ذلك أبدًا من قبل، لقد قضيت كل عمري في أحلام نوم ويقظة، عشت حياتي آلاف المرات، وأحببت آلاف المرات وتزوجت وأنجبت وغضبت وتصالحت وخرجت، وجبت العالم شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا، فرحت بأحلامي وضجرت منها واشتقت إليها، كنت كلما يضيق بي الحال أهرع إلى النوم لأحلم، فأنام قريرة العين بعدما يُهدهدني ذلك الزوج الذي يملأ حياتي سعادة وحبًّا وحنانًا، لكن الآن وقد أصبح كيانًا.. ماذا أفعل؟ كيف أتصرف؟ كيف؟ وكيف؟!

لم يُمهلني الطارق الجديد، لقد أتبع الرسالة الثانية برسالة أخرى ثالثة ورابعة، ثم بطلب موعد للقاء في المكان الذي أحدده والموعد الذي أختاره، تلك هي الصدمة الكبرى، أنا التي كنت أفتح الباب كل فترة حتى أشعر أنني بين الأحياء؛ لأشاهد الناس من بعيد، كانت تمر عليَّ بعض البائعات الجائلات لأشتري منهن بعض الأشياء، فكنت أشتري ليس رغبة في الشراء أو أنني في حاجة لتلك السلعة،

وإنما لأنني أريد منهن أن يعدن كي يطرقن بابي، مرات ومرات أفتعل الحديث مع الأخريات من الجيران؛ كي أتعرف عليهن ولكنهن جميعًا وحين يعرفن ظروفي أجدهن وقد مسهن مسًّا من الشيطان، يبتعدن واحدة تلو الأخرى، حتى زهدت في معرفتهن جميعًا، ولم أعد أطمح إليها ولم تعد تعنيني نظراتهن، أو همساتهن تحذر إحداهن الأخرى من الاقتراب من تلك التي مات عنها زوجها ومات آخر أفراد عائلتها، الذي ضحت بآخر من تقدم إليها كي تراعيه، إنه والدها الذي أنهكه المرض وقهره الموت.

وطنت نفسي على أنني سأعيش وحدي وسوف يكون ذلك حالي إلى أن ألقى الله، ولم يعد الأمر يهمني أو يشغلني مثلما كان في بدايته، عشت هكذا ولم يعد يُضيرني أن أكمل حياتي هكذا، لماذا أهتم للأمر كل هذا الاهتمام! إنها مجرد مجموعة من الرسائل، ومهما كان صاحبها فأنا لا أعرفه؛ لأنني في الأصل لا أعرف أحدًا يُمكن أن يكتب مثل هذا الكلام، وبرغم أنني قضيت جلَّ عمري في انتظار كلمات كتلك الكلمات إلا أنني كثيرًا ما سمعتها في أحلامي، وسمعت ما هو أكبر منها وأرق وأعمق، فكيف تؤثر عليَّ وتهزني بهذا الشكل، لن أصغي، كل ما عليَّ أن أفعله هو ألا أصغي لتلك النداءات، حتى نداءات قلبي، سوف أصم قلبي عنها، حتى ولو كنت قد اشتقت إليه عمري الذي ضاع وعمري القادم، لقد طويت هذه الصفحة منذ زمن بعيد، وما أحلامي إلا مجرد مناوشات قلبية مع عقلي كي يفكر أو يُغير مساره، لكن أبدًا لن يحدث، لقد سمحت لهذا القلب بأن يحلم ويروح ويجيء ويسافر المسافات كي يلتقي بمن يريد، لكنني أبدًا لن أسمح بأن يتعدى حدود ذلك.

ومرت أيام وأنا في حرقة الانتظار؛ فلم أعد أستطيع العد بعدها، هل ما يمر بي الآن ساعة من نهار؟ أم أنه مجرد أيام ثقال؟ لكن يبدو أن الانتظار يولد الفتور حين يستمر أكثر مما تحتمل قلوبنا، بالتأكيد هي دعابة ثقيلة من أحدهم أو إحداهن، تريد أن تسخر مني وتنظر ماذا يكون رد فعلي، لكنه فعلًا عمل غير أخلاقي؛ إذ كيف يجرؤ أحدهم أن يفعل ذلك!، كيف يتلاعب بمشاعر إنسانة بهذا الشكل اللئيم، صوت الهاتف يلح في الطلب وأصوات الغضب بداخلي تعلو على صوت الهاتف المُصر على أن أجيب- إنه نفس الصراع الذي دومًا أعيش فيه، نفس الصراع.

يصمت الهاتف ثم أسمع جرسًا آخر، إنه الباب هذه المرة، ما له ذلك القادم لا يصبر فيقرع الباب مرة ثم الجرس مرات، مَن؟ من على الباب؟

يأتيني صوت طفل صغير مُسرعًا في كلامه: أنا، معي رسالة لكِ، توجهت ناحية الباب لأرى من هذا الطفل؟ وما الرسالة، وممن؟، أفتح الباب ببطء شديد لأجد طفلًا صغيرًا يحمل بين يديه ظرفًا ملونًا صغيرًا، ليقول لي: خذي هذا إنه لك، ترك الرسالة وهرب سريعًا، ويبدو أن في يده بعض النقود، لم ألتفت إليه ووجهت نظري إلى الرسالة في يدي، أقلب فيها النظر ثم بين يدي ظاهرها وباطنها، وكأنني سوف أرى من تلك النظرات وتلك الحركات ما بداخلها من كلمات، وكانت تلك هي المرة الأولى في حياتي التي أستلم فيها رسالة بهذا الشكل.

ترددت وأنا أفتحها وكأن بها ما سيؤذيني لأجد بها رسالة مُعطرة رقيقة مسطر بها كلمات قليلة لم أستطع معها أن أقاوم دموعي، كلمات تقرأ ما بداخلي وتُجيبه بمنتهى السلاسة، تبحث عما في قلبي وعما يجول بخاطري وعن جروحي فتداويها من دون أن أطلب، كلمات تستقر بوجداني دون دعوة

مني وكأنها صاحبة مكان، صاحبة القلب والروح والنفس معًا، ليست غريبة عن مسمعي، وليست غريبة عن مرآي، كلمات تحسستها فوجدتها كائنًا حيًّا موجودًا أمامي ألمسه بيدي وبكياني لأجدها دافئة دفْء الحياة وحيَّة حياة الملائكة، أتمعن النظر في الكلمة الأولى، ومن فرط رقتها لم أستطع الانتقال إلى الكلمة الأخرى إلا بجُهدٍ وإلحاح من عقلي لمعرفة المزيد، لأجد عيني تعود إليها من جديد

"حبيبتي"...

لم أقرأها بعيني، وإنما سمعت جرسها في أذني يتردد في قلبي ووجداني، "حبيبتي" تراءت أمام عيني زهورٌ عبقة مُختلفة الشكل واللون والرائحة وتتراقص مع لحنها المسموع، والذي ينطلق منها حرفًا حرفًا، أقرأ ثم أعود إليها وكأنني عطشى زمن بعيد وهذا سقاؤها "حبيبتي، كيف استطعت كل هذه السنوات أن أصبر على الابتعاد عنك، كيف تحملت سهر الليالي الطوال، وكل ليلة أقرر أنها سوف تكون الأخيرة، وأنني غدًا سأعترف لكِ وأقترب منكِ، وأُزيح بيدي كل تلك الحواجز التي تُبعد بيننا، أقرر في ليالٍ كثيرة، لكنني في الصباح يتملكني الخجل منكِ والخوف من صدودك،

ثم الخوف عليكِ، نعم الخوف عليك مني ومنِ مشاعري التي بلغت مدى لا يتحمله بشر، لكنني اليوم حقا ما عدت أطيق إخفاء سر قلبي، وسر روحي التي تعلقت بك سنوات رغمًا عني ورغمًا عن كل الظروف التي تحيط بنا، أحببتكِ أنتِ دون غيركِ.

كنت أراكِ تروحين وتجيئين أمامي تسيرين وكأنكِ لستِ من عالمنا، غائبة عنا، فينا ولستِ منا، أحيانًا كثيرة تنتابني إرادة أن أستوقفكِ ولا أتركـكِ وحدكِ أبدًا، كنت أصرخ بداخلي من يُعطيها الأمان، ثم أجد تلك الثورة العارمة في قلبي.. لن يكون سواكِ، أحببت فيكِ الخوف الذي يجعلك تسيرين خافضة العينين مرتعشة الكلمات مكسورة الصوت، أحببت فيكِ الضعف الذي يضعف أمامه أي قوي، أحببت فيكِ رحمة توزعينها على الأطفال شريطة ألا يراكِ أحد من الكبار، أحببت فيكِ أنتِ، وأحببت فيكِ أنا، نعم.. أنا، فقد رأيت فيكِ ملامحي، رأيت فيكِ أخلاقي، رأيت طيبتي ولوني، رأيت طموحي وعذاباتي وآلامي، رأيتكِ أنا فأحببتني فيكِ وأحببتكِ فيَّ، انتظرت طويلًا خوفًا من أن تحكمي عليَّ بالنهاية فآثرت أن أكون القريب البعيد، أنتظرك حين تعبرين الطريق ذهابًا إلى عملك وعودة منه، حسبت الأيام برؤيتي لكي وضبطت ساعاتي على موعدك، وربطت عمري برؤيتك وارتبطت أيامي بأيامك، رأيت فيكِ عالمي الذي أحببته وغدي الذي انتظرته وعمري الذي أجلته.

فهل تقبلين ما تبقى لديَ من عمر يكون طوع أمرك؟، تقبلين أن تكوني المستقبل لي ولكِ بعدما كنتِ الماضي لي دوني معكِ؟، هل تقبلين إنقاذ من أحبك وعاش العمر ينتظر تلك اللحظات التي تجودي بها بكلمة نعم؟

هل تقبلين؟

لم أستطع إلا أن أتكئ على أريكة بجواري قبل أن أسقط على الأرض الصلبة الباردة، تدافعت دموعي تباعًا لتستبق إلى وجهي كي يفيق من سكرة وقع الكلمات عليه، وما أجدني إلا وقد أفقت على خطاب أضمه ضمة الأم لوليدها ووحيدها.. وأنا في صباح يوم جديد، على غير عادتي استيقظت مبكرًا جدًّا، سعيدة للغاية، نشيطة بطريقة غير عادية، أريد أن أغني، وأن أملأ الدنيا فرحًا وسرورًا، وأن أوزع ما بي من سعادة على العالم أجمع، تتنامى تلك السعادة حين أنهي عملًا ثم أذهب سريعًا إلى حجرتي حيث الرسالة التي غيرت مجرى تفكيري وأحيت القلب الذي طالما ظننت أنه قد مات منذ زمن.

أحيت مشاعر كنت آحسبها غير موجودة عندي وأنها قد تلاشت مع من مات وذابت مع الأحداث لتصبح ذكرى مع الذكريات، أحيتني تلك الرسالة، فكيف لا أعود إليها أستقي منها ماء الحياة في كل لحظة، أشمها وأحتضنها وأنظر إليها في رفق وَوُدٍّ وحب، أحببتها ككائن بشري غال عندي أريد أن أمنحه كل ما تحمله المرأة من عواطف رقيقة تحملها بين أضلعها عمرها كله لذلك الرجل الذي سوف يُحيي كل ما بها.

يمر الوقت وأنا على ذلك الحال سريعًا، حتى يُبطئ شيئًا فشيئًا، ببطء حتى يكاد أن يتوقف، ولست أدري سر ذلك التحول في حالتي، من الفرح الشديد إلى ذلك الهم الذي يتسرب رويدًا إلى قلبي ليصير بعد وقت عبوسًا وثقلًا كبيرًا على قلبي، وتهدأ الفرحة حتى تكاد أن تكون قد ماتت لتتبدل حزنًا بقدوم ذلك الوقت الذي كنت أنتظره وأنا لا أدري، ذلك الوقت هو موعد قدوم تلك الرسالة إليِّ، وكأنني قد ظننت أنه سيأتي فيها، نعم كنت أنتظره هو في تلك المرة أن يأتي ويطرق بابي، لكن الوقت مرَّ ولم يطرق الباب، ولم تأتني منه رسالة، انقبض قلبي حزنت، ثم غضبت، ثم كرهته، نعم أحسست من فرط شوقي إليه أنني يتوجب عليّ البحث عنه الآن؛ فعسى أن يكون قد وقع له مكروه، وأنا لا أحتمل أن يحدث له شيء، شعرت بموجات من الجنون تجتاحني، تهزني، تعصر قلبي من شدة الشوق إليه وإلى كلماته وإلى لمسته التي أظن أنني لن أحتملها من شدة رغبتي فيها.

يمر الوقت بطيئًا بطء الكابوس المرعب حين يسيطر عليك في نومك فيُريك العذاب بألوانه دون أن تملك أن تدفع عنك شره أو طغيانه، أنتظر.. وأنتظر.. وأنتظر، في لحظة تمر أمَلَّ ذلك الانتظار، وفي لحظة أخرى يتملكني القلق، ولحظة ثالثة أعود لأتساءل: هل هو وهم؟ أم حقيقة؟ حتى الانتظار لم أكن أفهم له سببًا، فماذا أنتظر؟ هل أنتظر رسالة توضح لي من هو وماذا يريد مني؟ أم أنتظره هو كي يجيب على تساؤلاتي الحائرة؛ كي يُجيب قلبي ويريحه من حيرته؟، لم أكن أدري أبدًا ماذا أنتظر،

مر الوقت بمعاناة شديدة في انتظار رسالة جديدة، إلى أن دق جرس الباب لتتعالى دقات قلبي ويرتعش جسدي كله ولا تكاد قدمي تحملني، أردت أن أطير إلى الباب لأفتحه وأتلقى الرسالة الجديدة، لكن الخطوات الثقيلة التي حالت بيني وبين ذلك حتى أظن أنه قد مر دهر على تلك الخطوات بيني وبين الباب، حاولت أن أسرع لكن قلبي الذي كاد أن يتوقف عطلني قليلًا وخطواتي المرتبكة عطلتني أكثر، وروحي تحاول أن تتجاوز كل هذا إليه، وصلت إلى الباب لتمتد يدي إليه لتفتحه وقد عزمت أن أعانق الطفل الذي سيأتي بالرسالة هذه المرة ولن أتركه حتى يعترف لي بمن أرسله، وفتحت الباب لأجد الواقف عليه ليس طفلًا، وإنما...

رجل...

رجل كامل الرجولة، يكبرني ربما ببضع سنوات بما يظهر على وجهه بعض من خطوط خطها الزمن ليميز بينه وبين من هو في بداية حياته، كي أراه جيدًا يجب عليّ أن أرفع رأسي قليلًا، لا أستطيع وصفه أكثر من ذلك لأن عيني لم ترَ أكثر من ذلك بعد أن أفقت من المفاجأة بعد أن ألقى السلام عليّ، قلت له: أهلًا وسهلًا، حضرتك ماذا تريد؟ أجاب بصوت منخفض: ألم تصلك رسائلي؟ لم أستطع الرد، وإنما اكتفيت بمجرد إشارة من يدي حتى أنا لم أدر معناها، هل أدعوه للدخول، هل أظهر له غضبي، هل أظهر له سعادتي، هل يشعر هو بمدى القلق الذي يعتريني الآن، هل.. وهل؟ إلى أن قطع الصمت الذي استمر دقائق كالسنوات الثقال من رهبة الموقف الذي أمر به للمرة الأولى في حياتي، وما عدت أدري كيف أتصرف في الموقف إلى أن تحدث هو:

لا أستطيع الدخول وأنتِ وحدكِ، ولا تستطيعين الخروج معي كذلك، وأنا لا أقبل لي ولا لكِ أن يحدث ذلك، فهل تتزوجيني؟

هكذا قالها بكل وضوح وبمنتهى السرعة، وعلى الباب، تلفتُّ يمنة ويسرة وكأنني أبحث عن عيون الناس التي تنتظر الهم بالخطأ حتى تتحدث عنه وتنشره، نظرتُ إليه وأنا في قمة العجب والدهشة وقد زال بعض الخوف والقلق والتوتر وتحول إلى إحساس بالعجب، نظرت إليه ولم أجدني إلا وأنا أضحك بصورة غير طبيعية وأنا أنظر حولي، ماذا تقول؟! تتزوجينني؟

كرَّرَها، نعم هل تقبلين بي زوجًا؟. توقفت ضحكاتي أيضًا من شدة التعجب، وكيف لي أن أوافق هكذا دون أن أعرفك، أنا حتى لا أعرف اسمك، استمرَّ في نفس الخط في الحديث وبنفس الثقة: أنا من أرسلت لكِ الرسائل، أنا من أحببتكِ سنوات طويلة وانتظرت إلى اليوم حتى أطلب منك هذا الطلب الذي ما عدت أستطيع إخفاءه أكثر من ذلك، أنا من رأيتكِ سنوات تمرين عليَّ كل يوم ثم الآن تقولين من أنت؟ أنا لا أعرفك؟ أما أنا فأعرفكِ جيدًا، أنا من أرادكِ دون أن ينطق بكلمة خوفًا عليكِ وخوفًا من أن تصديني فأخسرك، استمعت له، قلبي الخائف اطمئن، وعقلي الحائر يقول لي كفانا وحدة وشعورًا بالمرارة من الدنيا ومن فيها، كفانا ما نحن فيه؛ فالجنون كاد يُصاحبنا في ليلنا ونهارنا، اقبليه فماذا ستخسرين، اقبليه فنحن في حاجة إليه، مرَّ الوقت ربما ساعة، ربما أكثر، ربما أقل، لكن بعد مرور الساعة احْمرَّ الوجه خجلًا بعد تحديد موعد الزواج.

بعد أن تحدثنا في كل شيء عن المعوقات: عن نظرات الناس وكلامهم، وعن الحرب التي ستُشن، وعن الأمل في أحلام الغد التي عشتها في خيالي مجرد أحلام وظننتها أنها لا تتحقق أبدًا، أحلام الغد، وفي الموعد المنتظر، استيقظت من نومة طويلة لا تدري كم من الوقت فيها قد نامت، والهاتف في يدها وورقة بيضاء كانت قد سطرت بها بعض الكلمات بدأت بكلمة "حبيبتي" قبل أن تنام.

نبحث عنهم بين الأسماء..

في دفاتر الماضي والحاضر.

كل الوجوه حاضرة إلا وجوههم.

كل القلوب راغبة من دون قلوبهم.

رحيلهم عنا كان كرحيل الشتاء..

يأخذ أفضل ما فينا،

ويترك الوجع والأنين،

والحنين.

لكن الشتاء يعود كل عام

أما هُم

فقد قرروا..

ألا يكونوا كالشتاء..

رحماء.



أوراق مبعثرة

كيف هو شعور المظلوم حين لا يستطيع أن يُظهر دمعة حزن تحرق عينيه رُغمًا عنه، وحين لا يستطيع إلا أن يبتلع مرارة وغصة وحُرقة في حلقه، وحين يكون واجبًا عليه مع كل هذا أن يبتسم، تلك الابتسامة التي ترتعش فيها شفتاه من شدة ألمه، وترتعش فيها عضلات وجهه وحتى صوت ضحكاته المكلومة، حتى عينه يحاول أن يُخفيها كي لا تنفجر بالألم مُحدثة ضجة حوله يخجل أن يُظهرها، كل الآلام يجب أن تختبئ الآن خلف ابتسامة باهتة مُرة حارة، الجرح في القلب وإلى القلب يرتد، إنهم الأحبة الذين ظلموا، وإذا حاولت أن تنطق بكلمة أو تبوح أو تشكو فهو جرح آخر يرتد لقلبك، فهم حبات القلوب، تحمل بقوة، واصبر صبرًا جميلًا، واصمت بحب عسى أن تأتي بهم الأيام إليك نادمين.

بهتت "يمني" مما هو مكتوب في تلك الوريقات المتناثرة هنا وهناك حول سرير الغالية التي رحلت توًّا وتركتها وحدها بعدما أهدتها دنيا حب وود ونور ودفْء وعطاء غير محدود دون أن تشعر أنها تعطي أو تمل، يبدو أنها وريقات كانت تقرؤها أمها قبل رحيلها بقليل، بعضها مطوي كطي الرسائل، قدمها يبدو ظاهرًا في رائحتها ولون الورق المائل للاصْفرار من فعل الزمن به مثلما يفعل بكل ما هو غالٍ لدينا وعزيز، مكتوبة بخط اليد، هو نفس الخط الذي علمها في بداية حياتها ألف باء، وبنفس نوعية القلم الذي كانت تحب دائمًا أن تخط به ما تود الاحْتفاظ به، الخط بهت والوريقات تهالكت،

لكن ما بها واضح كأنه محفورٌ وليس مخطوطًا، حاولت "يمني " أن ترتب الأوراق لكنها لم تستطع، فليس مدون عليها تاريخ ولا ملاحظات تدل على أسبقية إحداها عن الأخرى.

أمسكت بالورق بين يديها وتاهت لحظات معه، احتضنته وبكت حتى أنهكها البكاء، وحتى كادت كلمات أمها أن تغرق بين يديها، انتبهت لها وفكرت، ماذا تفعل بها، هل تخبر أحدًا؟ لا، لن تخبرهم ولن تطلع أحدًا على أسرار أمها التي ماتت وهي تحتضنها بين يديها، إن تلك الذكريات هي من حقها وحدها وهي ابنتها الوحيدة.

استندت "يمني" على بعض الوسائد في غرفة بسيطة، لا تحْوي إلا بعض الأثاثات القليلة لكنها مُرتبة بشكل جيد، هي كل ما تبقى لديها من الغالية الراحلة، هنا كان عالم الأم الذي لم يطلع عليه إلا المقربون، تلك غرفتها التي حفظت أحلامها وأفراحها وأحزانها لسنوات طويلة، كانت كلما ضاقت بها الدنيا هُرعت إليها، تخفي بها همومها حتى عن عيونِ أقرب الناس، تبث ما لديها تلك الأوراق التي صاحبتها طويلًا وتحملت أحزانها بلا حدود أو شروط، هناك في ركنٍ في الغرفة مكتب صغير، توضع عليه بعض الكتب وبعضِ الحاجيات القديمة وأوراق وأقلام بألوان عديدة، تعيد نور النظر في الأشياء بعيون تملؤها دموع الألم.

من أين تبدأ، آه يا أمي، كل هذه الأحزان كنتِ تخفيها عني، كنت معك أشعر وكأنك بحر من الحنان، لم تكوني أمًّا لي وحدي، منذ صغري وأنا أرى الكثيرات يرتادون بيتنا الصغير يلتمسون عندكِ الحب والنصح في القلب الكبير والعقل الحكيم، أحيانًا كنت أغار

وأنا أرى إحداهن ترتمي في حضنك الدافئ تلتمس فيه الأمان، ثم هي تخرج من بيتنا بوجه غير الذي أتت به، كنت أغار منهن مع أن حبك وقلبك كان يسع الكثير ويعطي الكثير دون أن يسأل يومًا عن المقابل، كبرت في حضنها دون أن أعلم ما بها، ودون أن أشعر أن هذا القلب الكبير هو ذات القلب المكلوم ما جعلها تخطّ بقلمها كلماتها تلك.

متى كانت تلك الكلمات، ولماذا، ولمن؟... كيف هو شعور المظلوم، والجرح المرتد إلى القلب؟، لست أدري.

تابعت "يمني" القراءة عسى أن تعرف، وعسى أن تفهم.

كلُّهم يشتاق لطفولته إلا أنا فقد حملتها معي إليه، أيام قليلة تلك التي مرت على معرفتها به، تمر الساعات الأولى غريبة معه، كل كلمة، كل حرف، كل نفس يولد معه شيء جديد، شيء تنامى سريعًا لتمر تلك الساعات الأولى مع أول رسالة منه إليها بعد مكالمة تخللها الصمت أكثر من الكلام، ودون الإشارة إلى كلمة الحب، فهم كل منهما أنه متعلق بالآخر، وأن الآخر متعلق به، وأنهما يقتربا مع كل لحظة مسافة سنوات، انتبه لنفسك وأنت قادم من السفر.. هكذا قالت له وانتهت المكالمة ليرسل لها الرسالة الأولى لتوثق قصة حب جديدة لعلاقة لم تتخط الساعات الأولى، "ستنهال الأسئلة على مشاعرك كما ستنهال على مشاعري، وأتساءل هل نجيب على أسئلة لن نجد لها جوابًا؟، أم نترك مساحة للحظة سعادة نادرة الوجود لتعيش عمرها الحقيقي في مشاعرنا قبل أن تتركنا وترحل".

تلك هي الرسالة الأولى منه إليها، وقفت أمامها لحظات قبل أن تجيبه، لم تفكر طويلًا بعدما رأت الحب وكأنه ينسكب في قلبها دفعة واحدة ونبض بسرعة أكبر من التي اعتادها، رقص طربًا، فرح بقدر سنوات الجفاف جميعها، وبقدر سنوات حرقة شمس الوحدة، تراءت لقلبها تلك السنوات وهي تنسحب على استحياء معتذرة لطول مدتها مصاحبة لها، ليولد أمل جديد في أن تستظل من قيظ وحشة الأيام والليالي بظل حبيب طال انتظاره، ثمان سنوات عجاف وقد أوصدت باب قبلها بشدة ووضعت كل الذكريات السعيدة والأليمة كلها حارسًا خاصًّا على ذلك الباب الموصد، حتى لا يهرب القلب متمردًا من قيده الحديدي، ويبدو أنه بمرور السنوات ضعف الحارس..

ففي غفلة من الذكرى، وفي غفلة من الأحزان والهموم،

انفتح الباب بعنف من شدة الشوق لرؤية ما وراء القضبان فانْسَكب فيه الحب، وانْطلق القلب دون قيد بكل شوقه إلى الحياة لينهل بحرقة العطشان سنوات طوالا، حين يحصل على الماء فجأة..

"سأعيش تلك اللحظة بك ومعك بلا شروط وبلا تساؤلات"

هكذا هو ردها، بلا شرط، بلا قيد، بلا تفكير، استسلمت لأحكام قلبها دون مناقشة وسلمت للحب في ندائه الأخير لها.

لم تعد خطواتي كتلك الخطوات التي سرتها دومًا من قبل..ليست خطوات عادية، لم تعد تلامس قدماي الأرض وإنما أشعر معها وكأنني أخطوها تجاه السماء في أبهى حلة منسوجة خيوطها من الحب والشوق والعرفان...يغلبني الشجن فتغلبني دموعي التي لم تعد تراعي أين أنا ومع من، ثم أذكر كلماتك فتغلبني ابتسامةٌ، ثم أعيش لحظة الوداع لتصير مرًّا في حلقي وغصة لم يعد بي لها أدنى تحمل، روحي عندك وما عاد لي منها شيء، كياني كله أمسى منهكًا في مشاعر متراكبة بشكل عجيب،الحزن والأسى والشجن والفرحة العارمة والسعادة العميقة والرضا الرائع.

تُرى هل كانت مصادفة أن نلتقي في وقت أنت وأنا في أشد الحاجة إلى بعضنا البعض، لم تكن مصادفة وإنما هو القدر الرائع الذي جمع بيننا في وقت شعرت فيه بأنه يجب أن تنتهي هنا الحياة والآن، في وقت لم يعد يعنيني فيه أن يأتي غد أو يحين مساء، جئتني لتأخذ بيدي إلى آفاق عالم السحر فنحلق معًا في ربيع جديد وأمل جديد.

مهما أنكرنا الأمل..

ومهما باعدت الأيام..

ومهما تمددت المسافات..ومهما طال الزمن؛ فأبدًا لن يقتل لديّ الأمل في أن أكون يومًا معك ندور في فلك واحد ودنيا واحدة ومكانٍ واحد.

أبدًا، بعد أن تجسدت كل أحلامي فيك لتصير واقعًا لمسته بيدي وأخذته باحتضان في كياني كله ليسري في دمي حقيقة هي أروع من كل حلم.

أتدري..

حين جمعنا اللقاء الأول جلبت معي بعض أشيائك.. زجاجة ماء لمستها بيديك، منديلًا أعطيته لي وأخذته على استحياء، قطعًا من الشيكولاته أردنا اقتسامها وتبقى منها بعضها.

الآن..

صار لي منك أشياء..ذبت فيها...دارت بي الدنيا، قررت ألا أستعملها كي تظل محتفظة بآثار لمساتك عليها، شممتها فبكيت وضحكت وذبت وفرحت وشعرتك فيها.

أصبح عندي منك شيء..

أه منك ومن حبك ومن قربك ومن بعدك!

أه من الأيام وروعتها حين أهدتك إليَّ!

وأه من قسوتها حين حكمت أن تكون بعيدًا عني!

كم كنت أود لو أصرخ في وجه العالم أني أحبك، لكن حبي هو ما منعني خوفًا عليه وحرصًا.

غريب ذلك العالم، كل لحظاته عجيبة، لا يعرف الوسطية ولا يعترف بقوانين البشر العادية، السير فيه دائمًا خطر، تقترب فتحترق بنيران الله والحنين والتلاشي والذوبان حتى تجد ذاتك فجأة وقد أنفقتها لتشبع فإذا جوعها وعطشها يزداد ضراوة واحتراقًا، وإذا أنت آثرت السلامة وابتعدت تلظيت بنيران أخرى من الصعب مقاومتها.

سنوات الظمأ في مدن الحرمان وعالم اللا منطق كان لها النداء الأول، وسرعان ما تلاشت كل الحواجز، هي لم تكن عادية، في عالم الصبر والحرمان والجفاف؛ كانت هي الراهبة المتبتلة، وحين انفتح باب القلب وتداعت جيوش الحماية مجتمعة عاشت اللحظة بكل كيانها ونسيت كيف كانت، ومن كانت!.. تناست من هي كي تحيا عالم لم تعرفه حقيقة، غير أنها كانت مصرة على الولوج فيه إلى نهايته رغم حرقة ظهرت منذ اللقاء الأول.

هو، كان يعلم جيدًا كل خطوة يخطوها إليها، وكل خطوة تخطوها إليه، يعلم بدايتها، ويعلم كذلك نهايتها، صمد وقتًا ولم يقترب، لكنه لم يبتعد، توقف مكانه وهي تقترب وتقترب، وهو ثابت لا يحركه شيء، كان فقط يستسلم وكأنه سعيد بفعلها.

حين تتصاعد النيران تختلط الرُّؤى ويضيع العقل، الشروط التي تجنباها، والتساؤلات التي تعاهدا على تناسيها؛ كانت تتوالد كل يوم رغمًا عنهما، وماذا بعد؟ أليس لهذا الطريق نهاية؟ ألم يكفيهما ما مر بهما من حرق وتلظّي بنيران كل لحظة فراق بعد كل لقاء،؟ أليس من الممكن أن تمتد الأحلام لتصير حلمًا بلقاء لا ينتهي أمده؟ لماذا نضع للأحلام حدودًا طالما أنها أحلامنا ولا أحد يملكها غيرنا؟ تساءلت.. وهو لا يجيب إلا بالصمت والتحذير والتذكير بشروط لا تقنع قلبًا أصابته حمّى الهيام والشوق الرهيب.

في لحظات الحب الأولى يقرر الطرفان أن كل ما يريده فقط أن يبوح، يبوح لصاحبه على مكنونات صدره، ويحسب أنه بهذا قد أنهى إقامته في مدن العذاب والحرمان وأنه انتقل إلى مدن جديدة تغمرها السعادة والدفْء، إذا سألته عن أقصى أمنية يقول لك: فقط أن اطمئن عليه، أو أسمع صوته وتلك أسمى غاية، أما أن أراه فذلك حلم لم يرتقِ إليه قلبي، يكفي أن تحتويني مدنه، يكفيني أن أسكن قلبه فيَسكن لذلك قلبي.

لكنها المشاعر الطامحة التي لا تتوقف عند حد حتى تحصل على الغاية الكبرى، التلاشي والذوبان، بالنسبة له هو، حنينه لقلب دافئ حنون يؤوب إليه في نهاية يوم عمل شاقٍّ، يريد من تستمع إليه، تسهر على راحته، حين يتحدث في عمله يجدها به خبيرة، وإذا حدثها في أمره الخاص كانت أمه وأخته وصديقته، تهفو إليه إذا غاب، وتتحمل غيابه بغير شكوى، تقترب حين يريد وتصمت قبل أن يمل، تنصت أكثر مما تتحدث هي له ملجأ ومأوًى وقلب بلا شروط، وهي كانت كل هذا وبلا أي شرط.

أما هي فتريده حصنًا، حماية، ظلًّا، تريده قائدًا في طريق وعر، ومهما تظاهرت بالقوة فهي قوة من ضعف، تحتمي بإظهار ما ليس فيها كي تستطيع العيش في دنيا الأقوياء، تريده ولو مجرد اسم يضاف إليها في بطاقة هوية تعبر بها أبوابًا لا يمكن أن تعبرها وحدها بأمان، تريده وطنًا، تعود إليه محتمية من هجير الغربة والأيام، فتطمئن نفسها إليه، حتى وإن كان وطنًا يشاركها فيه غيرها، الغريب مطمئن إلى أن له وطنًا سوف يعود إليه يومًا والمرأة وحدها في العالم غريبة، تبحث عن هذا الوطن وها هو معها لكن بشروطه هو، لا تسألي عن أشياء يمكن أن توجعنا، لكنها الأحلام التي لا تتوقف، فتبدأ في طرح الأسئلة، لماذا لا نقترب قربًا لا فراق بعده؟.

اجتمع الأهل جميعًا ليعقدوا مجلس حرب لتقرير مصير تلك الخارجة عن الشرعية، القريب والبعيد، الصغير والكبير، الكل أصبح وصيًّا، عاقلًا، حكيمًا، يجب أن يأخذ على يديها قبل أن تفعل ما تضيع معه كرامة العائلة كلها، نبدأ بمن، لا أحد يترك فرصة لأحد كي يبدأ هو في الهجوم الشرس، الكل يتحدث في صوت واحد.

وهي فقط تجول النظر بين الحاضرين، تبتلع الدموع وتتهج الصمت والاستماع، الأصوات كثيرة والكلمات جارحة، أقذع مما كانت تتصوره، خائفة هي، تكاد أن تذوب في نفسها من شدة الخوف والخجل، تدعو الله بكل صدق وبكل جوارحها أن تنشق الأرض الآن وتبتلعها عسى أن يهدؤوا ويصمتوا ولو قليلًا، أو أن تموت فجأة فيشفقوا عليها وتقل حدّة الهجوم عليها، تمنت وتمنت لكنها لم تجدها سوى وهي تزداد ضآلة داخل عينيها وداخل عيون الذين يحيطونها بسهام نظر نارية وحادة، هي الآن كارهة أكثر منها مجرد ناصحة، لم تستطع أن تتابع كل الكلمات، لكنها فقط استطاعت أن تلتقط بعض المفردات، أين ضميرك، أين إنسانيتك، هل ترضينه لأختك؟ لابنتك؟

كانت صاحبة تلك الكلمات هي الأخت التي تخشى الناس، وتخشى على واجهتها الاجتماعية أن تهتز، ماذا سيقول الناس عنا؟ ماذا سيقول أزواجنا؟ تلك التي تنعم بالعيش في ظل حصن يحميها من الهجير والسهام والكلمات الحارقة، ثم هي تتحدث عن الضمير والإنسانية، ثم التبتل والإخلاص للراحل الذي أحسن إليّ ولم يسيء يومًا، تتحجر الدموع في مُقلتيَّ ألمًا ومرارة، وتتجمد الكلمات في صدري فلا أكاد أبين حتى لنفسي، ثم لتصدر الفتوى الكبرى من الصغرى، فلتذهبي أين شئتِ، أنتِ لم تعودي لنا، لم يعد أمركِ يهمنا، اذهبي وليس لكِ عندنا أبناء، أنتِ لا تستحقين أبناءك، فلتلحقي بمن تريدين فأنتِ أو هو لا يساوي أحدكما حذاءًا يلقيه أحدنا في قارعة الطريق، هنا لم أستطع الصمت، الكلمات المتحجرة انفجرت مني رغمًا عني...

إلا أبنـائي، لا سلطان لكم عليهم، ولـن تساوموني علـى ظفر أحدهم، اتقوا الله لقد زدتم وأفضتم، جذبت أبنـائي إلـيّ، وحملت ابنتي الصغيرة في صدري وهربت بهم إلى غرفة مظلمة باردة طالما تحملت مني وحملت عني، جدرانها لم تعرف مني غير لغة الصمت، وحروف طفلة لم تكتمل بعد، تنـاديني حينًا وتناديه حينًا مـا.. مـا، بـا.. بـا، تنـادي مـن لـن يأتي وكم تمنيت ألا يرحل، كنت أعد الأيام لابنتي وهو معنا، كانت كلما كبرت يومًا أحمد الله أنها تربت في كنف والدها يومًا آخر، لست أدري لم كنت أقوم بذلك الفعل، لماذا كنت أعد الأيـام وكـأنني أنتظر حدثًا مـا، هل هو حدس المرأة وتعلق الأم بسعادة ابنتها التي تود لو أن تهبها الدنيا مساقة إليها سوقًا؟، ربما لشعوري بأن تلك السعادة التي أعيشها كثيرة عليّ؟، ربما لأنني لم أعتد تلك السعادة فلم آمن الدنيا أن تديم عليّ سعادتها.

لست أدري سوى أنني كنت خائفة، خفت على ابنتي اليتم الذي ذقته أنا، خفت ليالي الوحشة والعذاب أن تتملكني وتكون نصيبًا لي وقدرًا، أو ربما هي موروثات فينا، أننا حين نفرح نخاف، لكنه واقع وحدث على أية حال، احتميت بغرفتي وأغلقتها عليَّ وأولادي جيدًا، هربت إليها منهم، وكما احتوتني كثيرًا من قبل ها هي تحتويني اليوم ببرودها الصامت المنتظر للّا شيء، هي مثلي، كانت تحسب أن تلك الجدران يمكن أن تشعر بالأمان مرةً أخرى، بالدفء، بالحنان، بإنسانية غابت عن دنيانا طويلًا، وانتظرت مثلما انتظرت، استمعت لحروف ابنتي المتلعثمة،

واستمعت لصمتي الطويل برضا وحب مثلما لم يستمع لي أحد، حتى أقرب الناس، وها هي الآن ملاذي مثل كل مرة، تُخبِّئني وتحتويني، لم أعد أدري كم يمر عليَّ من زمن، أخرج وأعود لنفس الاخْتباء، الآمال كلها تلاشت وكأنها كانت أثرًا بعد عين.

بعيدًا عن ظلال الشاليهات الخاوية من هؤلاء الملاك والمستأجرين، الذين يقتحمون مدينتي الرائعة لمجرد أنهم يمتلكون أموالًا تتيح لهم التنقل من مكان لمكان دون مراعاة لشعور الأماكن ذاتها، أخذني الشوق إلى حيث هناك، من بعيد أراه، بأمواجه المبتهجة بقدوم فصل الشتاء، أراها من بعيد تكاد تترك البحر وتقفز على اليابسة من شدة فرحتها بي كما هي فرحتي بها، السماء من بعيد تبتهج هي الأخرى وتتلألأ بعدما تزينت بسحب بيضاء متقاربة ومتفرقة في أشكال هندسية فاقت كل جمال، تتمايل مع الريح مسرعة في طريقها إلى حيث لا أدري، كل ما رأيته فيها جمال وسعادة افتقدتها بين البشر.

تسبق خطواتي مشاعري المتلهفة عليها وإليها، تثقلني الرمال التي تغوص فيها قدماي، وتثقلني بعض الهموم التي بدأت في التساقط بمجرد رؤيتي للسماء في التقائها بالأفق في عرض البحر.

وها هو الموج تتضح معالمه، يقترب، وأقترب..

أتذكر، وتتذكر، مرت فترة طويلة على آخر لقاء بيننا..

هل هو عام؟ أم أنها أعوام؟ كيف يحسبها هو!

أين هو اللقاء الأخير بالنسبة للبحر وللموج؟، أهو لقائي به منذ عام؟ أم أنه لقاؤه بنا منذ أعوام؟ كثيرًا ما سألتني الموجات: متى سيعود؟ أين هو؟ كيف أنتِ وحدك من دونه وقد عهدناكما سويًّا لسنوات؟ هل سيعود؟

قرأت التساؤلات، وسمعتها، لكنني لم أجرؤ على الجواب، كل ما فعلته أن تجاهلت السؤال، وربما في وقت من الأوقات، شاركت السؤال، هل سيعود؟

عشنا سويًّا لحظات الانْتظار..الانْتظار الذي أعلم جيدًا أنه سيطول، وقد أجبرتني عليه تلك الموجات، التي كثيرًا ما ضمتني وأنا أهرب بين اثنتين منها، تضمني حتى تكاد تغرقني فيها حبًّا وودًّا فإذا بها ترفعني لأعلى وأعلى، حتى أبلغ عنان السماء ثم تهبط بي رويدًا حتى لا تؤذيني بشدتها، وكثيرًا ما أتخاصم معها حين أكون مشغولة عنها فتبعث لي برذاذها كي أنتبه، وكأنها تريدني لها وحدها، لا أنشغل بشيء غيرها، فلا أفيق إلا وقد وجدت نفسي وقد أحطت ببعضها يسترق السير في صمت كأنه الهمس، الآن أراها من بعيد وأنا أقترب منها، الشاطئ اليوم في حُلة جديدة، ليس به آثار أقدام متطفلة، الرمال نظيفة جميلة تزينها أصداف أخرجها البحر كي تستنشق هواءً عليلًا ليس به أنفاس بشر، هنا لم أتمالك نفسي، أخذتني النشوة فألقيت بحذائي بعيدًا وجريت، وجريت، إنها منطقة مقدسة يجب معها ألا أنْتعل حذائي، تنقطع أنفاسي، فأتوقف قليلًا لألتقطها ثم أعاود المضيَّ جريًا تارة لتغلبني موجات الضحك والبكاء.

وكأن المشاهد تتكرر في حياتي..

ملمح البحر في الشتاء هو هو لم يتغير رغم السنوات، نفس الرمال الهادئة الرائعة، الموج المبتهج بامتلاكه الشاطئ وحده، الطيور المهاجرة المنتشرة على بعد عدة أمتار من اليابسة، السحب المتناثرة هنا وهناك تُذكرنا بقدوم الشتاء، الرياح الباردة تتلمس طريقها إلى أي شيء دافئ كي تداعبه وتذكره هي الأخرى بأنها هنا الآن وأنها ستمكث بعض الوقت حتى يأتي صيف جديد، كل شيء على حاله إلا أنا، أنا من تغيرت، خط الزمن بعض خطوطه على وجهي، ونقش بعض همومه على صدري، حتى أخالُني كبرت ليس بضع سنوات، وإنما بضع آلاف من السنوات أحملها فوق كاهلي، أنا من تغيرت فلم تعد ضحكاتي تخرج من قلبي إلا هنا، ولم أعد أعرف الأمان إلا هنا، كل شيء ثابت لم يتغير، حتى ذكرياتي التي أحملها معي كل عام حين يأتي الصيف ثم أعود بها هنا أول الشتاء ليكون البحر والسماء والشمس والهواء والرمال والرياح شركاء لنا، ننعم معًا حين يخلو المشهد من البشر.

يومًا ما كنا هنا، في ذلك المكان، كنا نفعل نفس الفعل معًا وكأننا في محراب عبادة، نتأمل الكون وإبداعه وقدرة خالقه في صنع كل ذلك الجمال، كريم هو الله سبحانه أن خلق كل هذا الجمال، هنا كنا يومًا معًا، المشهد هو نفس المشهد.. لكن الفرق أنني أؤدي تلك الطقوس وحدي، نجري، نلهو، نتأمل، يلاحقنا الموج معًا مرة، ونلاحقه مرات حتى تقرر الموجة التي لم تلحق بنا أن تتركنا وترحل، وكأننا نريد مُصالحتها.

هنا أطعمني بيده، وفاجأته بأنواع الحلوى التي يحبها، هنا قال لي:

أنتِ كالبحر لا تسقين عطشانًا، كلما شرب منكِ ازْداد للماء ظمئًا، أنتِ كالبحر في عمقه وسعته، كالبحر في غضبه، أنتِ كالبحر في مرحه، كالبحر في عطائه.

هنا نسيت أن الدنيا لها وجه آخر غير الوجه البسيط الآمن الذي عرفته معه يومًا، هنا دعوت الله أن يكرمني ببيت في الجنة على شاطئ بحر كبحري هذا، فهو جنتي وسعادتي كلها، كنا نأتي هنا وحدنا، وكان الشتاء لنا رفيقًا، رحل فجأة، دون حتى أن يودع المكان، ذلك هو الطريق إلى حيث كانوا..وتلك هي آثار خطواتهم وخطواتنا..آثار قديمة، لكنها ما زالت في نفوسنا محفورة..وتلك بقايا كلماتهم، ما زالت في الزمن معلقة تذكرنا بهم..لكنهم كانوا، لكنها كانت.

ما عاد للسير في ذات الطريق معنًى فما عادوا هم، ولا عدنا.

حين يخلو الوطن منهم:

أرضه وسماؤه،

شمسه وهواؤه،

أفراحه وأحزانه،

صيفه وشتاؤه،

حين يخلو ممن تحب؛

تصبح غريبًا بين أهلك..

ويهون عليك كل ما هو غالٍ أو جميل بعدهم.

ليلة أولى غربة

"بعض ذكريات"

حين تغرب شمس أول يوم يرحلون فيه؛ أصير في الوطن وحدي.

حين تُداهمني خيوط الليل فتنسج حكايات جديدة بحروف ولغات جديدة ما كنت أحسب أنني سأتقنها يومًا..

الوطن أصبح يُكابد، وقلبي كذلك يُكابد، والنهار يُكابد كي تظل شمسه مشرقة بعض الوقت في يوم بارد لتدفئه، لكن خيوط الليل سرعان ما تتغلب ليعلن في النهاية استسلامه ويموت اليوم الأول في غيابه، ويتركني أكابد مع الليل وحدي.

تُرى، هل يذكرنا هناك؟ هل أخذني معه؟ هل ذابت نفسه مع شمس الغروب مثلما ذابت نفسي؟

هل يتوقُ إليَّ مثلما إليه أتوق؟ لست أدري.... لست أدري.

كم ضمنا السفر معًا في طرقاته المتعددة، رغم أنني لا أحب السفر، فهو لا يرمز لي إلا بالفراق، هو يعني كل ما هو مضنٍ ومؤلم، إلا أنني هويت السفر معه، والسفر إليه، ورغم الوداع في كل مرة.. إلا أنه وداع على أمل لقاء جديد في سفر جديد.

بالأمس كان رحيلاً..

ودعته بينما الغربة تسكننا ونسكنها، ودعته بغير سلام، وبغير وعد بلقاء لتصير الغربة غربتين، والسفر سفرين، ودعته بدموع خوف لم يكن يستطيع أن يخففها بنظرة ودٍّ أو لهفة لقاء خائف، ككل لقاء بيننا يلفه الخوف والترقب للحظات وداع جديدة.

يوم باهت أخر يمر بي، بارد، وحيد، شمسه باهتة، سكون يلف الكون حولي رغم شدة الصخب، أصوات أسمعها لأناس غرباء عني رغم دماء تربطني بهم، وكلمات كأنها آتية من زمن بعيد ومكان بعيد..

الفراغ يُشعرني بالخوف والوحشة برغم ازدحام الدنيا من حولي، وكأن صوته حين كنت أسمعه على هاتفي كان يملؤني اطمئنانًا وشعورًا بالأمان، وكأنه حين كان قريبًا يملأ عليَّ الحياة بهجة وسعادة وبشرًا.

كأنه كل الناس..كل البشر..كل أهلي..كل أحبابي في هذه الدنيا، وقد خلت منه بلادي كلها، ولم يبق لي منه سوى شوق إليه، سألته يومًا عن الحب.. ما هو؟ كيف يختار بكامل حريته أن يربط بين اثنين لم تكن لتجمعهما الأيام؟!ما الذي يجبرنا أن نستجيب؟ وبماذا يجبرنا؟

هل يهددنا بأوجاع القلوب من شدة شوق، ورغبات غير محدودة، ودموع وحزن على فراق محتوم؟ أم تراه يهددنا بطول الليالي والوحدة والوحشة والغربة داخل حدود الوطن؟ وما أقسى أن تكون غريبًا في ربوع الوطن؟ كيف هو يأتي بلا موعد، وبلا إنذار، وبلا استعداد منك لتستسلم بغير شروط؟ لمَ أنت؟ ولماذا أنا؟ ولماذا الآن؟ لماذا لا يأتي على استحياء ويكتفي، بل يأتي كالطوفان يجرفك فجأة كالسيل العرم.

سألته لأجده مثلي حائرًا، مثلي مستسلمًا، مثلي يبحث عن شاطئ يُنجِّيه من لجة الغرق، سألته فأجابني بابتسامة باهتة، ونظرة زائغة، ورعشة يد واضطراب كلمات على شفتيه شعرتها تريد الخروج لكنها توقفت عجزًا عن أن تقول ما لم تعرف ما تقول، والآن سافر.. الآن هو راحل ككل شيء في هذه الدنيا يرحل، وربما يعود وربما بلا عودة، هو الآن مسافر..



هناك من نقول لهم:

حتى لو نفذ رصيدكم؛

فسوف نعطيكم فترة سماح ممتدة..

حتى نهاية العمر.



حقك عندي

تاهت في دروب الغضب أحلام كنا قد أعلناها منذ لحظات بسيطة مرَّت بنا، وغامت أعيننا بسحابات من الدموع أبت إلا أن تعلن مشاركتها تضامنًا مع الحب الذي اهْتز عرشه منذ دقائق معدودة، ومع ثقل الكلمات التي قيلت من كل طرف للآخر شق صفها كلمة أسكتت الألسنة وبُحت معها الأصوات، وجف الحلق وتهافتت الدموع أيهما تسبق لتطفئ حريقًا في القلب نشب توًّا "دعني وحدي فلن أستطيع أن أكمل معك" سكتت كل الكلمات، وضاعت المشكلة البسيطة الأصلية واجْتمعت كل الذكريات كي تقف حائلًا دون الألم الكبير الناتج عن تلك الصفعة الرهيبة.

ذكرى ارْتباط جعله الله مُقدسًا بميثاق من عنده، ذكرى بسؤال وجواب: تقبليه زوجًا؟ نعم قبلته زوجًا، ذكرى رعشة يدٍ تحتضن يدًا أخرى، تشد عليها وتطمئنها بأنها اليوم في رحاب حياة جديدة وعشٍّ طالما حَلما به معًا، وقلب طالما تضرع إلى الله أن يبلغه مراده وأن يزوجه من يختار، ونظرات دافئة تحمل في طياتها وعودًا بالسعادة والاحْتواء وبذل العمر في إرضاء الزوج الحبيب.

ذكرى الالْتقاء في أول ثمرة لزواج مبارك، ضحكات ملائكية بريئة وبكاء كالموسيقى، وعصفور ينمو بين أيدينا ويكبر يومًا بعد يوم، تضمه أحضاننا معًا، وتحمله قلوبنا معًا، وتحميه لمساتنا معًا، وتتلهف عليه أرواحنا حين يروح أو يجيء.

ذكرى ليالٍ سهرناها معًا تألمت فيها القلوب لمرض أحدنا وأمنيات بأن يكونٍ الآخر هو الذي يحمل المرض والألم والقلق عن الآخر حبًّا فيه وخوفًا عليه وتقديرًا له.

ذكرى حياة زاخرة عشناها معًا لحظة بلحظة بكل ما فيها من ضعف وقوة، ألم وأمل، فرح وحزن، ضحك وغضب، تقارب وتباعد ذكرى حنين وشوق وآلام ليالٍ طوال اجْتمعت في قلب مكلوم من سفر الرفيق يومًا، أو اضطراره للسهر بعيدًا عن رفيق دربه.

ذكريات تلو ذكريات تتوالى لتخفف من أثر صدمة الكلمات أو ربما لتزيدها ألمًا وحزنًا إذ كيف يجتمع كل هذا مع تلك الكلمة الصاعقة؟ كيف يطلب أحدهما من الآخر أن يبتعد ولو قليلًا؟ كيف يقدر على النطق بها وهو الملاذ له والمرجع؟ تسكت الكلمات وتتراجع وتنهمر الدموع وتتعالى دقات القلوب وتتوالى الذكريات؛ ليظهر في تلك اللحظة صوت جديد "الكرامة"، تطلبين مني الرحيل، أتركك وأبتعد؟ استطعتِ أن تنطقيها؟ ولماذا؟ وأي بيت بلا مشكلات؟ أليس واردًا جدًّا أن نختلف؟ ومن قال إن الاخْتلاف بين الزوجين يعني نهاية حياة؟ ومن قال إنَّ كل حجر عثرة يلاقينا يتطلب منا العودة من حيث أتينا؟ لماذا لا نتعاون معًا على إزاحته من طريقنا، لماذا لا تشدي على يدي كي نعبره معًا بأمان مع كثرة تلك الأحجار؟

إنَّ كل منحنى نحسبه حين نراه من بعيد طريقًا مغلقًا مع أنه في تلك الانحناء ربما يكون المخرج والمعبر إلى بر الأمان.

تطلبين منّي الرحيل؟ إذًا فَلَكِ ما تريدين فكرامتي تأبى أن أتوسل إليكِ ألا تفعلي، ورجولتي ليست للمهانة منكِ كل حين.

لا يا زوجي، لن أدعك بكلمة غاضبة مني أن تهدم صرحًا حلمنا به معًا وبنيناه معًا وتحملنا في سبيله معًا، لن أدعك ترحل عني وأنت تعلم أنك ستري وحصني، لن أدعك ترحل عني وأنت قلبي ونبضي وحياتي، لن أدعك ترحل وأنت تعلم أنني في هذه الدنيا بك أنت وأنني أبتغي رضا ربي بإسعادك وطاعتك، لن أدعك ترحل وأنت جنتي وناري وسبيلي للنجاة إن أنت رضيت عني، من قال إنك حين تعود قد مسست كرامتك؟ وكيف أمسها وهي كرامتي وحمايتي؟ من قال إن رجولتك تخدش حين تعود أو حين تنساب دموعك من أجلي؟ بل إنها الرجولة كلها والإنسانية كلها ومقتضى كمال النفس الإنسانية التي ميزها الله عن سائر المخلوقات بالرحمة والود والحب، من قال إنك حين تعود لن تجدني في انتظارك بكل الحب والشوق يغفر أحدنا للآخر ويعفو، ثم من أولى بالعفو إن لم يكن الحبيب القريب؟ لن أبحث حين تعود من المخطئ ومن السبب ومن المظلوم ومن الظالم؟ فكلانا أخطأ في نفسه حين سمح للشيطان بالتدخل، وكلانا مصاب فلا غالب ولا مغلوب، كلانا مهزوم أمام تاريخه ونريد معًا أن نمحو تلك النقطة السوداء في طريقنا معًا، لن أسألك لِمَ فعلت ولا تسألني.

حقُّك عليَّ، "حقك عندي" حتى لو كان الحق لي، فمن أنا ومن أنتَ؟ وما أنا وما أنتَ إلا امْتداد لواحد أوله عندك وآخره عندي، حقك عندي وحقي عندك دون أن نبحث ونعود لنسأل من السبب، فكلانا هو الآخر وكلانا يحمل للآخر حقًا رغم كل المشكلات ورغم كل التساؤلات حقك عندي وفوق رأسي وفي قلبي وعقلي، ولن أهنأ ولن أستريح إلا وأنت عائد إلى رحاب عشنا بقلب كالقلب الذي عرفته من قبل، قلب زوج محب يحفظ ود زوجته ويتقي فيها ربه سريع الرجوع سريع العفو.

حين تحب..

ليس مهمًّا أن يكون ما لديك أفضل ما بالعالم؛

لأنك ستراه كل العالم.



ما أجمل كلمة أحبك

حين تقسو الحياة، وحين يشتد الأمر على الزوج فتضيق به نفسه حين يجدها عاجزة عن تلبية متطلبات الحياة في ظل الظروف الاقتصادية الطاحنة، وحين يغلبه الضعف وقلة الحيلة فينزوي بعيدًا عن أحبابه مثقل الكاهل مقطب الجبين مهموم القلب حائرًا ماذا يفعل وماذا يقدم وكيف سيستمر؟؛ فتأتي الزوجة التقية التي تخاف ربها وتبتغي مرضاته في زوجها الذي هو في أشد الحاجة لمن يؤازره بكلمة حب ومودة وعطف ودفء، وساعتها ما أروع أن تربت عليه وتهدهد قلبه لتهوِّن ما به، وساعتها ما أجمل كلمة" أحبك"..

حين تمر الأيام بما فيها من شغل ومهام ومسئوليات في البيت وتربية الأولاد وربما العمل خارج البيت؛ كل هذا علاوة على همِّ الدعوة إلى دين الله فيفاجئ الزوج زوجته هاتفيًا، في عملها أو في المطبخ وهي تعدُّ له طعامه، أو وهي تقوم بالمذاكرة للأولاد ومراجعة دروسهم، أو كانت في مهمة دعوية فيهاتفها ليقول لها كلمة واحدة "أشتاق إليكِ"..

حين السفر، حيث تغلب الظروف أحد الزوجين فيبيت بعيدًا عن الآخر ليلة أو عدة أيام أو ربما أكثر من ذلك فيفرغ منه البيت، فيشعر أنه ما عاد لأي شيء قيمة بلا شريك حياته، وأن قيمة المكان- أي مكان- هي في وجود ذلك الشريك، وأن حبه للبيت فقط لأنه يحْوي ذلك الحبيب الغائب، فساعتها ما أجمل أن يهم أحدهما بالاتصال بالآخر ليخبره بمشاعره تجاهه،

وساعتها تظهر قيمة كلمة "لا أريد من كل البشر سواك"

حين المرض؛ حيث يكون الإنسان في أشد حالات ضعفه، وكذلك يكون في أشد الحالات احتياجًا لأحبابه ما أرحم من أن يمسك أحدهما بيد الآخر ليشد عليها ويقبلها، ويقول له أنا بجانبك ولن أبتعد عنك و"راحتي بقربك"..

حين يمر العمر فيكبر الزوجان، وينتشر الشعر الأبيض في المفارق، ويخط الزمن خطوطه على الوجه والجبين وتنحني الظهور قليلًا.. فما أحوج كل منهما ليؤكد له الآخر أنه ما زال رغم مرور السنوات يحمل ذات القلب الذي أحب منذ البداية، بل أنه مع سنوات العشرة الطويلة ذابت كل نفس في الأخرى ليصبح كلاهما الآخر وحين يناديه ينسى من هو، فيناديه "يا أنا"

نعم، ما أجمل هذه الكلمات وما أسرع تأثيرها على النفوس خاصة في أوقات الضعف والاحتياج وكذلك في أوقات الغضب والخطأ، إنها المذيب السريع لأي غضب أو حزن أو عتاب، بل إنها سر الحياة الأول.



من قال إن كل الانحناء يقصم الظهور أو يذل النفوس؟
إننا قد ننحني وننحني لنغرس غرسًا يأكل منه إنسان أو
حيوان أو طائر .
وقد ننحني ونبالغ في الانحناء لنُقَبِّل قدم أم أو أب أو معلم، أو
نربت على رأس يتيم.
وقد يكون عزنا وشرفنا ورفعتنا في طول انْحناءة لرب العالمين.
فلا تغرينا أو تغرُّنا المسميات، قبل أن ندرك إلامَ تؤدي من
فعل ونتيجة.



في رحاب الصلاة

عالم ليس كعالمنا، بل هو سر عالمنا ومنبع وجوده، هو الصلة البالغة بك لرحاب السماء ورحابة العبودية المهدية، إنها الصلاة التي أتحدث عنها، والتي ليست تلك الحركات المجردة التي يؤديها الناس كل يوم من صبح حتى العشاء وتكون الحصيلة فيها لا شيء، فنجد التاجر الذي يخرج من المسجد بعد الصلاة ليعود إلى عمله في غش الناس، ونجد الطالب الذي يخرج من المسجد بعد الصلاة ليهرب من المذاكرة ويتطاول على أستاذه، وربما على أبيه وأمه، ونجد الأستاذ الذي يخرج من المسجد بعد صلاته ليحث الخطى إلى الدروس الخصوصية؛ لأنه لم يعطِ ما عليه في المدرسة.

والعامل..، والفلاح..، والمسئول..، وغيرهم، ليست تلك الصلاة التي نود أن نتحدث عنها في سياق كلامنا هنا، إننا نتحدث عن "الصلاة الأخيرة في رمضان الأخير" صلاة خاشعة خاضعة بين يدي الله۵، صلاة تصليها وأنت واقف على الصراط من تحتك النار وأمامك الجنة تشم ريحها وتراها، وترى أقوامًا يعبرون بجوارك منهم من يعبر كالريح ومنهم كطرفة العين ومنهم كالسلحفاة ومنهم من يقع.

الصلاة الأخيرة، ورسول الله هناك في نهاية الصراط ينظر إليك ويقول: يا رب سلِّم سلِّم، رسول الله ينظر إليك، تمعن في نظرته ﷺ، أهي نظرة عتاب؟ أهي نظرة تشجيع؟ أهي نظرة سعادة بك؟ تمعَّن واسْأل نفسك في أي وضع تحب أن تكون؟ كيف تحب أن يستقبلك رسول الله ﷺ،

فقد آن أوان الرحيل وها أنت تؤدي الصلاة الأخيرة في رمضان الأخير.

يقول الله ٥: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤] وظاهر الأمر الوجوب، والغفلة تضاد الذكر، فمن غفل في جميع صلاته فكيف يكون مقيمًا للصلاة لذكره؟، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، نهي ظاهره التحريم، وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، تعليل لنهْي السكران الذي هو غارق في الغفلة عن الصلاة.

وقال ﷺ: «كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصَب» [أخرجه النسائي]، وقد نُقل عن بشر بن الحارث فيما رواه عنه أبو طالب المكي عن سفيان الثوري، أنه قال: «من لم يخشع فسدت صلاته»، وروي عن الحسن أنه قال: «كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع»، وعن معاذ بن جبل: «من عرف من على يمينه وشماله مُتعمدًا وهو في الصلاة فلا صلاة له».

فهيا نفتتح الصلاة الأخيرة في العشر الأواخر والشهر الأخير.. كبِّر"الله أكبر" وارْفع يديك واطْرح الدنيا كلها خلف ظهرك، واسْتحضر بقلبك الكلمات والمعاني، اطْرح الدنيا وكبِّر فالله أكبر منها، همومك، أولادك، عملك، أهلك، الأموال، الفقر، كل شيء الله أكبر منه، وما أنت مُقبل عليه من لحظات وأنت واقف بين يدي المولي أهم بكثير من كل شيء، لا تخشْ فكل شيء ستعود إليه بعد الصلاة لتجده على حاله، ولكن ستجد شيئًا آخر قد تغير، إنسانًا آخر قد ولد من تلك الصلاة، همَّة عالية، ونفس أبية، وروح طاهرة

وعقل متوقد ورضًا وسعادة وطمأنينة ورسالة من الصلاة في انتظارك "حفظك الله كما حفظتني"، وعتاب من نفسك هامس: "لِمَ حرمتني من كل تلك السعادة فيما مضى! وقد كنا نستطيع أن نفعلها؟ أن نقف بين يدي المولى ونستمتع بلقائه؟".

تكبير وتسمية وحمد (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) إن كنت مريضًا فأنت تقولها، إن كنت مبتلًى فأنت تقولها، وإن كنت غنيًّا فأنت تقولها، على كل حال نقول (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ)، وكلنا عنده ما يحمد الله عليه، ابحث في نفسك ستجد أن وقوفك "مجرد أن سمح لك بالوقوف بين يده "يستحق الحمد"، نعم إنها نعمة وأيُّ نعمة، حُرم منها الكثيرون، ألا ترى أن هناك ملايين الملايين من غير المسلمين أنت لست بينهم؟ ألا ترى أنه هناك الملايين من المسلمين الغافلين أنت لست بينهم؟ أتدري أنك الآن بين يدي ملك الملوك تعبده بما أمرك وتقف بين يديه مستسلمًا كما أرادك، ناداك فلبيت، وسمح لك أن تقف في رحابه وأن تردد كلماته وأن تسأله ما شئت.

اسْأله فإنه لا يمل من سؤالك، أرأيت ملكًا مهمًّا بلغت عظمته وكرمه بهذه العظمة وهذا الكرم؟ اسْأل فإنه سيجيب ولا تحمل هم الإجابة ولكن اسأل بصدق، اسأله بحضور قلب وعقل، اسأله رضاه والجنة، اسأله أن يصرف عنك البلاء، اسأله أن ييسر لك أمرك فهو الغني، فقط يريدك أن تسأله، مجّده وأثن عليه وقل (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ) حمدته، وأثنيت عليه، وملكته،

إذًا فتوجه إليه وحده بالعبادة بمنتهى الاسْتسلام: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، نستعين بك يا ربنا على عبادتك ونستعين بك على أنفسنا ونستعين بك على الشيطان ونستعين بك على حوائج الحياة، نستعين بك وحدك فلا أحد يقدر غيرك وليس لنا سواك، نستعين بك أن تهدنا ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ الصراط الذي ترتضيه لنا وارْتضيناه لأنك ارْتضيته لنا من النبيين ومن الصحابة الأولين ومن أنعمت عليهم بدينك فاهدنا صراطهم، وساعدنا على أن نسير على خطواتهم ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾، من اليهود، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين بدلوا من النصارى.

ثم كبر "الله أكبر" هل يمكن أن نحيا تلك اللحظات الغالية بهذا المعنى؟ وهل يمكن أن تأخذنا الدنيا الفانية من بين يدي الله؟ إن كانت قد استطاعت أن تأخذك لحظات فعُدْ وكبر "الله أكبر" ثم ارْكع وقل "سبحان ربي العظيم" ثلاثًا، ذكر نفسك بها، بعظمة الله سبحانه وها نحن الآن نحني رؤوسنا وظهورنا إعظامًا لشأنه، ثم نعتدل ونقول "سمع الله لمن حمده" ونحمد حمدًا يليق بمقامه، ألم نتفق أنه وحده المستحق للحمد؟ "حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، حمدًا يرضيه وحمدًا يليق به، حمدًا كما بين السماوات والأرض وبعدد الخلق.

هل اعْترانا فتور؟ هل أخذتنا الدنيا؟ كبَّر وقل "الله أكبر" ثم "اسجد واقترب"؛ أتدري أنك أقرب ما تكون من ربك وأنت ساجد؟ مرِّغ جبهتك بين يديه وقل "سبحان ربي الأعلى" مهما علا شأنك ومهما بلغت منزلتك جبهتك الآن في التراب ذليل ضعيف، مستسلم مستكين كل ذلك لمن؟ لله وحده، لله الأعلى، فسبحانك يا من أنت الأعلى سبحانك يا ربي، ابْكِ، ادْعُ، اسْأل، فأنت قريب، قريب منه ولن يخذلك، ولن يضيعك، ادْعُ لنفسك ولأولادك ولأمتك الجريحة "أمة الإسلام" التي أمست بلا إسلام، ادْعُ بما شئت وأنت قريب.. ولكن إياك وأنت قريب أن تبتعد وتأخذك الدنيا في لحظة الله مقبل عليك فيها والخسارة الكبيرة أن لا يجدك؛ حيث يريدك، وإن حدث فكبِّر "الله أكبر" وادْع بين السجدتين واطلب منه المغفرة على أي تقصير يكون قد بدر منك واطلب منه أن يسامحك ويرحمك ويرزقك "اللهم اغْفر لي وارْحمني واهْدني وعافني وارْزقني".

كبِّر "الله أكبر" ثم عُدْ للسجود بين يديه، عُد بشوق المحب للقاء حبيبه، عُد واقترب فلا أقرب من الله من السجود، وحين تفهم، وحين تتعايش مع تلك اللحظات الغالية فاحْسب أنك ستتعجل صلاتك كلها حتى تصل إلى لحظة السجود، تلك اللحظة التي وكأنك تنفرد بها مع رب العالمين تبثه شكواك ونجواك فلا يدري بك أحد ولا تشعر أنت بأحد حتى ولو كنت في وسط الجموع، لحظات تود لو ما تنتهي وأن يقف الزمن عندها لو فقهت ما بها من حلاوة مناجاة فعشها وجرب ولن تخسر فالخاسر هو من ابْتعد والخاسر هو من فقد لذة الوقوف بين يديه ولذة المناجاة له، الخاسر وحده هو من لم يصل كما أراده المولى أن يصلي، فعد إلى مولاك، حبيبك، خالقك، ربك،

فالحمد كل الحمد لمن سمح لنـا أن نقضـي بعض الوقت بين يديه في الصلاة "الصلاة الأخيرة في رمضان الأخير ولا تنس أنك بعد السجود ستعود مرة أخرى تُكبِّر وتحمد وتـذكر إلـى أن تجلـس فـي النهايـة بـأدب الحضـور مـع الله تحييـه "التحيـات لله والصلوات والطيبـات"؛ أنـت الآن تتحـدث مـع مولاك فإياك أن يتشتت فكرك إلى غيره أن تتحدث إليه لـيس هذا وفقط وإنمـا تسلم علـى حبيبك المصطفى ﷺ "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته".

بـالله عليـك جلسـة هـذا شـأنها كيـف تكـون؟ الله ٥، ثـم السـلام علـى النبـي وانْتظـر، انْتظـر حتـى يـرد عليـك السـلام فتقـول- وأنـت مستشـعر أننـا أمـة وحـدة كاملـة لا أمـة أفـراد متفـرقين كـلٌ فـي حالـه-: "السـلام علينـا وعلـى عبـاد الله الصالحين"، في كل مكان أينما كانوا وفي أي زمن كانوا، ثم تصلي وتسلم على محمد وعلى آلـه وصحبه الكرام وتصلي وتسلم على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ثم تسلم وتعود إلـى الدنيا وأنت، كيف أنت الآن؟ إن كنت قد خرجت كمـا دخلت فما صليت.

وأخيـرًا، قـال ﷺ: «علـيكم بقيـام الليـل، فإنَّــه تكفيـر للخطايا والذنوب، ودأب الصالحين قبلكم، ومطردة للداء عن الجسد».

[رواه الترمذي والحاكم]



حين يقرر أحدنا الرحيل..

كلانا مهزوم، كلانا خاسر، كلانا أمسى وحيدًا في عالم يضج

بالهموم والوحشة

فلا يوجد منتصر حين تنحسر الظلال عن القلوب الواجفة،

وحين تحترق تحت نيْر شمس الفراق الحارقة

حينها

لا تحسب أن ذكورتك قوة، ولا أن أنوثتي ضعفًا.



حين ينهدم الصرح

إنه الحصن المنيع، حصن ضد الشيطان، ضد الفتن، ضد الأعين المتربصة، والقلوب المريضة الطامعة، بنِيَ بكلمة الله وكلَّلَه سبحانه بتسميته الميثاق الغليظ ﴿وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١]**.. ليست مواثيق دنيوية زائلة بأوراق وأقلام مصنوعة بأيدي البشر وإنما هو موثق من الله ﷻ وبموجب ذلك الميثاق سلم ولي الأمر ابنته أو موكلته للزوج ليصبح هو المسئول الأول عنها، عن حمايتها وراحتها واحتياجاتها وسعادتها وأمانها وسترها، أصبح هو كل شيء، السكن والأمن والدفء والمودة والرحمة والعزة، في كنفه الأمان، وفي لمسته رضا الرحمن، وفي نظرته الراضية تتساقط الذنوب، وفي كلمة حانية منه جنة الرضوان.**

ذلك هو الحصن الذي طالما حلمت به المرأة، وتلك هي الجنة التي طالما تمنت أن تحتويها جدرانها، الزوج والأولاد هما حلم كل فتاة وغايتها، وحين يتحقق تشعر وكأنها قد ملكت الدنيا وما فيها، فهو الستر لها أكثر من أبيها وأخيها، تشعر وكأنها قد صارت جزءًا منه، وكيف لا وقد جعلها الله كذلك في كتابه العزيز في سورة الروم ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجًا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١] **جعلها من نفسه، جزء منه تأوي إليه وتستريح عنده وتطمئن في كنفه.**

تغضب وتعود إلى حصنها، تبتعد وتعود، تُقصر وتعود، تشرد أحيانًا لكنها مطمئنة في كل الأحوال لوجود ذلك الحصن الآمن الذي سيحتويها في كل الأحوال، والذي يسترها في كل الأحوال، والذي يضمها كذلك في كل الأحوال.

مضت أيام جميلة مع الزوج الحبيب ومضت كذلك أيام مؤلمة وحتى الألم جمعهما، تمنيا معًا الولد الذي يحيل هدوء البيت لصخب محبوب ويكلل الحب بذرية صالحة تقربهما أكثر وأكثر، ويتحقق الحلم بكل ما في التجربة من روعة وحب وكذلك ألم، تتعلق بزوجها أكثر ويقتربا أكثر في كل فرحة وفي كل ألم وفي كل أمنية وفي كل ضيق، يلتقيا أكثر ويقتربا في السعادة التي تضمهما وفي المرض الذي يسهر أحدهما على الآخر..

وتتوالى الأيام ليدخل الشقاق بعد الوفاق، وتهجر الملائكة العش الدافئ ليعشش فيه الجليد والفرقة والصمت المخيف فلا يحتمل أحدهما للآخر كلمة، ولا يصبر له على موقف ولا يبتلع له خطأ، وينسى كل منهما للآخر أجمل ما فيه وأجمل ما أعطاه إياه، ويهجر الحب ويهجر الدفء وكذلك تهجر الابْتسامة التي تذيب الكثير من الكدر ولا يبقى سوى العبوس وكلمة هي عند الله مكروهة وعند الناس بشعة وعند الأحباء موت ونهاية محزنة..

- طلِّقني الآن، فما عدت أطيق العيش معك.

- أنتِ طالق.

وينهدم الصرح وتضيع أسمى المعاني الإنسانية ويضيع كذلك بالنسبة للمرأة أعز ما تملكه أيُّ امرأة، الشعور بالستر والأمان، تدور بها الدنيا ولا تصدق بأنها الآن صارت وحدها، دون ذلك الأنيس الذي ملأ حياتها يومًا بهجة وسعادة وشاركها ما تستحي أن تقصه على أمها، شاركها ما لا يستطيع غيره أن يشاركها إياه، وأعطاها ما كان يومًا حلمها، فجأة تفرغ الحياة من كل ما هو جميل وينكسر القلب الذي طالما أحب وتعلق وشارك الأحلام، وصدق رسول الله ﷺ: «خُلقت المرأة من ضلع أعوج، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإذا ذهبتَ تُصلحه كسرته، وكسرها طلاقها» صدقت يا رسول الله "كسرها طلاقها" فلا الموت يكسر المرأة ولا أيّ خسارة يمكن أن تكسرها، لا يكسرها سوى الطلاق، لقد صار الحبيب غريبًا عنها، أجنبيًّا مثله مثل أيّ رجل آخر تمرُّ عليه في الطريق، يجب أن تغض طرفها عنه وكذلك هو، الرجل الذي كان يمثل الستر لها أصبح غريبًا عنها؟ وكل هذا بكلمة واحدة: الطلاق.

تذهب المكسورة القلب تلملم من عشها الذي طالما حلمت به حاجياتها، كل قطعة لها معه ذكرى، وله فيها رائحة، ويمضي هو يتحسس الجدران وقد انْتصر عليها بكلمته أو أنه صار هو الآخر مهزومًا بفعلته، تسير المكسورة وتهجر المكان وربما كان هناك أفراخ صغيرة يصرخون الآن، يتعلقون بها- أو به- كلهم يريدون كليهما.. أبي، أمي، نريدكما معًا.. أحتاج لقلبكِ يا أمي، أحتاج رعايتكِ وحنانكِ وعطاءكِ، أحتاج لحضنكِ كي أنام وعينك تحرسني كي أطمئن وحكاياتك المسلية التي تسعدني وطعامك الذي لم أتعود على غيره،

والذي كان لا يعجب أبي- يومًا- سواه، أحتاجكَ يا أبي، أحتاج عطفك وحمايتك وتوجيهاتك، أحتاج كليكما معًا فلا تمزقوني بين حبيبين صار كل منهما- وهو حبيبي- عدوًّا للآخر.

وتصرخ الجدران: لقد شهدت معكما أجمل أيامي فلا تهجروني فلا أرغب في غيركما يملأني دفئًا وسعادة.

وينادي الحب المذبوح: كيف جرؤ أحدكم أن يمزق ميثاقًا كتبه الله بينكما؟

ويمضي الحبيبان وقد صار كلٌ منهما غريبًا عن حبيبه، كلٌ في طريق يحمل بين جنبيه قلبًا مكسورًا مليء بدلًا من الحب أشواكًا.



يحاولون إطفاء الشمس، سيحاولون ويحاولون ويحاولون،
ثم يأتي يوم ليَعُوا أنهم لا قِبَل لهم بإطفائها، ثم يموتون،
يأتي غيرهم عبر سنوات وحقب ليفعلوا نفس الفعل،
ليذهب الجميع ولتبقى الشمس كما هي نور ودفء وعطاء
للجميع، معها أو عليها.



لن تسرقواعمري

كالعادة اسْتيقظتْ مبكرًا، اليوم وككل يوم أزاحت بقايا النوم من عينيها وبحركات وئِيدةٍ ذهبت إلى المرآة تتعثر في خطواتها المجهدة من طول سير البارحة، ويبدو أن قسط النوم لم يكن كافيًا للراحة، تحسست وجهها أمام المرأة، يا له من وجه! ذلك الوجه الجميل الذي طالما شد انتباه الآخرين، طالما جذبتهم هاتان العينان الساحرتان ذواتا اللون الأزرق الملفت، عيون عميقة بعمق المحيط يخشى من يقترب من الغرق فيهما يرغب البعيد في الرؤية ويشتاق المحب إلى الغوص، تحسست بأناملها بخفة.

آه يبدو أن بعض الخطوط بدأت ترتسم وتلقي بظلالها تحت العيون، يا له من شيء بشع أن يختبأ ذلك الوجه تحت تجاعيد غبية لا تعرف كيف تتخير الوجوه، دلفت إلى المطبخ وتناولت بعض اللقيمات القليلة، والتي لا تتعارض مع أصول الرجيم، ثم عادت إلى غرفتها لتقف مرة أخرى أمام المرآة، وفي هذه المرة نظرت إلى الساعة.. آه لم يعد أمامها كي تذهب إلى العمل غير ساعة واحدة، يجب أن تتخير فيها الزي المناسب والتسريحة المناسبة ولون المساحيق ولون الحذاء، ثم الإكسسوار الذي يلائم فترة الصباح.

إن عليها عبئًا ثقيلًا يوميًّا، ويجب أن تنتهي منه بأسرع وقت بمهارات فائقة، وباسْتخدام المساحيق اسْتطاعت أن تخفي تلك الخطوط المتطفلة فإن عملها بقسم العلاقات العامة وفي هذه الشركة الكبيرة لا يسمح بمثل هذه التجاعيد، انْتهت مهمتها الشاقة حملت حقيبتها

وأسرعت إلى العمل تعلقت بها كل العيون التي رأتها حتى عيون النساء نظرت إليها في حقد وغيرة يحسدنها على ما هي عليه من جمال وأناقة، لوحت بيدها للجميع ملقية عليهم تحية الصباح وكأنها نجمة لامعة تحيي الجماهير المستقبلة إياها، ألقت بحقيبتها على المكتب وغاصت في كرسي مريح وهي تلتقط أنفاسها، دعاها أحد الزملاء لتناول إفطار.. شكرته قائلة بأنها تتناول طعامًا خاصًا بالرجيم، ثم نظرت إليه في خبث قائلة ولِمَ لمْ تتناول إفطارك في المنزل مع زوجتك؟ فضحك وقال: لو عندي زوجة جميلة مثلك لتناولت معها الإفطار والغداء والعشاء، وربما حملت عنها الأطفال.. ولكن أصحو كل يوم على وجه محمل بالهموم كئيب المنظر.. الأولاد والبيت والأزمات لا تجلس ساعة إلا شاكية أو باكية فلم أتناول معها الإفطار!

إن عليّ أن أفِرّ منها ولو إلى الجحيم، تبادَلا الضحكات وأصبحت مادة للفكاهة زوجة هذا الزميل بل وكل زوجات الزملاء أصبحن مادة للتفكّهِ، وانْطلق كل منهم يحكي نوادر زوجته والتي لا تجعله يعود للمنزل إلا للمبيت حتى الزميلات شاركن حتى الزميلات شاركن في الحديث فتارة يدافعن عن الزوجات الغائبات من باب الدفاع عن النفس وتارة يهاجمن الأزواج الظالمين حتى كادت أن تكون مشاجرة بين الطرفين إلا واحد فقط لم ينبس ببنت شفة وكعادته وضع رأسه في أوراق أمامه، وكأنه غاب عن الدنيا فلم يشعر به أحد، ولم يشعر هو بأحد!، وكأنه لم يستمع إلى تلك المظاهرة العنيفة بين الجنسين ولم ينجح أحد حتى الآن في أن يستدرجه في هذه الأحاديث.

قطع صوت الشقراء الجميلة تلك الضجة قائلة: وأنتَ يا أستاذ (محمد) ما بال زوجتك؟ إنني سمعت أنها جميلة جدًا، وأنكما تعيشان في سعادة ولكني أتعجب إذا كانت جميلة إلى هذا الحد فلِمَ تُخفي وجهها عن الناس؟ لِمَ تُخفي الجمال الذي وهبها الله إياه؟ أليس ذلك حرامًا؟ وقبل أن يُجيب تدخل أحدهم في الحديث قائلًا: إياكِ ثم إياكِ تتحدثي إليه أو تقتربي من المنطقة المحظورة أنصحكِ فأنا أخشى عليكِ من الإرهاب.

وضحك الجميع إلا هو لم يضحك، وإنما اكْتفى بالنظر إليهم نظرة رثاء وشفقة نظرة طالما تعجبوا منها، ولكن لم يفكر أحدهم في أن يتساءل يومًا لِمَ هذه النظرة؟ ثم التفت إليها دون أن يرفع طرفه قائلًا: ولم لا تأتين لزيارتها؟ إن منزلكِ قريب من منزلنا ونحن نتمنى حقًا أن تزورينا، لم تتوقع منه هذا الرد مالها هي وزيارة امرأة لا يوجد بينهما أيُّ تشابه أو ميول!، وهي حتى لا تعرفها، ثم هذا الأستاذ "محمد" ماله يدعوها للزيارة وهو دائمًا المُعْرض عنها!، الكل يتهافت عليها إلا هو، الكل يسعى لإرضائها إلا هو، الكل يحلم بالخروج معها ولو لمرة واحدة إلا هو.... وكم أذل غرورها إعراضه عنها وإهماله لها، حاولت أكثر من مرة أن تخرجه من صمته لكنها لم تستطيع فإذا به اليوم يدعوها للزيارة ودارت برأسها الأفكار السريعة بماذا تجيب؟ هل تعتذر أم تقبل وأجابت بلا تريث سآتي، أشرق وجهه مبتهجًا، سأبلغ زوجتي لتكون بانْتظارك إن شاء الله.

انْتهى يوم العمل سريعًا بعد أن أنهى كل واحد عمله وأفرغ ما في جعبته من ثرثرة وذهب كلٌّ إلى بيته ليستعد لجولة جديدة في اليوم التالي.

كانت تستمع لكلمات الإعجاب من السباب كانت تتصنع الغضب بينما هي في نفسها كانت سعيدة بتلك الكلمات، والتي كانت ترضي جانبًا من غروها، وتتمنى سماع المزيد والمزيد، تباطأت في المسير أمام الفاترينات لترى ربما يكون هناك المزيد ليثير الفتنة، تذكرت فجأة الزيارة المرتقبة اليوم ولا تدري ما الذي جعل القشعريرة تسري في جسدها.. حينئذ كيف ستقابل تلك السيدة التي لا يُرى منها شيء وأي حديث هذا الذي سيجمع بينهما! كانت تحادث نفسها بصوت مسموع للقريب منها وربما حسبها البعض تهذي في الشارع: تُرى ما شكلها ثم كيف ستقابلني؟ هل سترحب بي أم أنها ستنظر لي نظرة ربما تثير غضبي؟ لن أذهب وسأعتذر للأستاذ "محمد" غدًا بأنني تعبت ولم أستطع الذهاب، هكذا كان حديثها لنفسها بينما هي في الطريق إلى المنزل.

في الموعد المحدد للزيارة كانت متأهبة للخروج فيبدو أنها قد ضجرت من المكوث وحيدة في المنزل فقررت الخروج، وكانت في حيرة ماذا ترتدي! هل أتحفظ في ملابسي أم أبهرها بجمالي؟ بلا وعي وجدت نفسها تبحث عن أطول ثوب لديها، ارْتدته ووضعت الطرحة فوق شعرها المنسدل فوق ظهرها، في هذه المرة لم تهتم بإزالة خطوط الوجه بالمساحيق.

دقت جرس الباب ويدها ترتعش وقلبها يدق مع دقة جرس الباب، كاد وجهها ينفجر من شدة الحمرة وجاءها الصوت من خلف الباب: من الطارق؟ كاد صوتها ينحبس وهي تجيب: أنا، انْفتح الباب وإذ من خلفه لا تدري إن كانت ملاكًا على هيئة بشر أم هي بشر ارْتدى ثوب الملائكة!، قالت لها: تفضلي يا حبيبتي، صافحتها بحرارة وكأنها صديقة قديمة أو أخت لها كانت غائبة عنها..

دخلت وهي ترتجف، ولا تدري لماذا؟ لماذا تهتز وهي الصلبة أمام هذا الموقف البسيط؟ دخلت وكأنها خلعت نفسها أمام الباب وارْتدت نفسًا أخرى.. كأنها داخل محراب عبادة لا بيت عادي، ولكن أهذه زوجته حقًّا؟ زوجته المنتقبة؟ كل هذا الجمال المبهر! كل هذا السحر الأخاذ! كل هذا النور!، فلماذا تخفيه تلك الغبية! لماذا؟ وهو أيضًا لِمَ لا يُخرس الألسنة ويُظهرها عليهم؟ جذبتها الزوجة الجميلة برفق من يدها وبابْتسامة رقيقة دعتها كي تريها الشقة، قالت: إنها شقة بسيطة، ولكنها هادئة وجميلة وبحبها لزوجها وحبه لها أصبحت جنة لا يمكن أن تغادرها إلا للقاء الله.

كانت هذه الكلمات غريبة على أذنها وربما تسمعها لأول مرة، لم تسمعها من أيّ زوجة من اللاتي تعرفهن، حتى هي نفسها كانت زوجة في يوم من الأيام لإنسان أحبها وأحبته أو على الأقل كانت تعتقد أنها أحبته وأحبها، ولكن يبدو أنه من ذلك الحب المُزيف والذي تكون نهايته دائمًا الفرقة والألم، فما هذا النوع من البشر!

ثم أن حياتهم أقل من عادية فما يعجبها؟.. أهذه هي الشقة التي تطلق عليها الجنة؟ حقًّا إنني أشم فيها عبقًا خاصًّا.. رائحة مريحة تشعر معها وكأنك في مكان مختلف، ولكنه بيت بسيط لا يحتوي حتى على أبسط الكماليات، تجولت، لا يوجد شيء غريب، لربما يكون السر هنا؟ في بساطة المكان؟ وكأن الزوجة الملاك كانت تقرأ أفكارها كلمة كلمة.. قالت لها: يا أختي، السر ليس في المكان، السر هنا في قلوبنا "نحن في سعادة لو علمها الملوك لحاربونا عليها، السر هو في العودة إلى الحبيب الأول إلى الأمان المطلق إلى القوة العظمى إلى سعة الدنيا والآخرة" السر في العودة إلى الله، ساعتها ستجدين الجنة بداخلك أينما تحلين حتى ولو كنت في صحراء مقفرة.....

لقد خلقنا الله لأسمى وظيفة، خلافته في الأرض واسْتعمارها وتسخيرها، خلقها لنا وذللها لتكون لنا ولا نكون لها، فمتى خدم السيد خادمه؟ وعندما نفهم معنى الخلافة الحق ساعتها ستكون أوامر الله محببة إلينا بل سنشتاق إليها شوق الحبيب للمحبوب ساعتها لن تجدي الحجاب حجرًا على حريتك وإخفاءً لجمالك، بل ستجدينه صونًا وعفة، ستجدينه رحمة، ووالله لو لم يكن فريضة لتمنيت أن يكون ساعتها لن تبالي بكل الرجال، لن يكون إلا رجل واحد زوج أحله الله لكِ، بيت ورحمة وسكن ومودة، ولن يكون الزوج سجَّانًا بل فارسًا يحمي من ضباع تنتظر الفريسة كي تلتهمها.

في الصباح، كانت جلسة العمل المعتاد قد أُعدت، زميل يتناول إفطاره والآخر يرتشف كوب الشاي وأخرى تنظر في المرآة كي تطمئن، تسأل أحدهما: لقد تأخرت زميلتنا العزيزة اليوم، فيا ترى ما بها؟ فتح الباب ودخلت منه أخت محجبة فضفاضة الثياب وقالت: السلام عليكم، لقد جئت لتوديعكم فإنني عائدة إلى الجنة.



علمنا البعض قيمة أن نحافظ على الحياة

وعلمنا آخرون قيمة كيف نحياها.

بعضهم علمنا قيمة الوطن

وبعضهم كان لنا وطنًا.



نصف ساعة حياة

اسْتيقظتْ لصلاة الصبح في الموعد المحدد على صوت المنبه الذي ضَبَطته قبل نومها، قامت ببطء على غير العادة فهي كل يوم في هذا الموعد تصحو نشطة من نومها غير متعبة ومتكاسلة بهذا الشكل الغريب.. ذهبت وتوضأت ثم عادت لتوقظ زوجها للصلاة، ألقت نظرة عابرة على المنبه فإذا به قبل أذان الفجر بساعة كاملة..

زالت دهشتها على قيامها متكاسلة، وقالت لابد أن فرق الساعة أثَّر معها سلبًا في الاستيقاظ، وتذكرت أنها ربما أخطأت وهي تُحرك عقارب الساعة كي تضبط المنبه، فكرت أن تعود للنوم مرة أخرى ولكنها نهضت، وقال: لأنتهز الفرصة وأصلي ركعتين في جوف الليل والناس نيام.

انْتهت من صلاتها واضْطجعت في مكان الصلاة انْتظارًا لأذان الفجر، الذي لم يبقَ عليه سوى نصف ساعة فقط.

في الصباح، وفي الموعد المحدد للعمل، تناول كل واحد إفطاره ولملم حاجياته متوجهًا للطريق الذي يبغيه، كانت هي في طريقها إلى المدرسة قبل الجميع.. في الطريق وجدت على غير العادة الشوارع نظيفة هادئة حتى كأنها قد أعيد رصفها تعجبت، ما هذا؟ هل حدث كل هذا ليلًا؟ حتى تلك البركة من المياه الراكدة أمام منزلها قد أزيلت.. إن هذا المستنقع القابع أمام المنزل لم يكن أحد يتصور يومًا أنه سيزول من الوجود أبدًا فهو ملازم لهم سواء شاءوا أم أبَوْا، حتى أنه قد خُيّل للبعض أن له أهمية استراتيجية معينة أو أنه موجود قبل وجود العمارة نفسها، بل وجوده أهم من وجود السكان فما بالها اليوم لا تجده؟ هل ابْتلعت المياه داخل الأرض أم تراها قد تبخرت؟

ابْتلعت دهشتها ومضت في طريقِها الذي تغير فيه كل شيءٍ، دخلت المدرسة وتوجهت لتوقع في دفتر الحضور أولًا، وكانت المفاجأة في انْتظارها لقد وجدت دفترًا خاصًّا بالمعلمين ودفترًا خاصًّا بالمعلمات، بعدما كانت تأتي كل يوم لتجد معركة حامية الوطيس بين الجنسين على الدفتر للتوقيع، ويختلط في هذه المعركة الحابل بالنابل، ثم بعد ذلك تأتي التحيات والسلامات والابْتسامات وما يتبع ذلك من فوضى وعدم الْتزام، أما اليوم فهو شيء جديد تمامًا ذهبت لتوقع بلا تزاحم وقد توجهت إلى زميلاتها بالتهنئة على هذا النظام الجديد.

في طابور الصباح، يقف الجميع وكأن على رؤوسهم الطير فها هو المدير خرج ليلقي كلمة الصباح، تحدث اليوم في إيجاز شديد بل تكاد تكون كلماته معدودة أخبرهم فيها أن هناك تغيير في سياسة الحكم، وأن هناك مزيدًا من الحرية والديمقراطية والرخاء، وأن هناك تغييرًا في نظام التعليم بما يحقق مصلحة الفرد والمجتمع، ثم هناك تغييرٌ جذريٌّ ننتظره وهذا التغيير يتأتَّى منكم أنتم أيها المعلمون والمعلمات، أنتم أصحاب التغيير القادم أنتم يا من تملكون عقول الشباب وتضعون فيها ما تملكونه من خبرات وقيم ومبادئ، فاتقوا الله فيهم واعْلموا أنكم عندما تبنون هذا الجيل فإنكم تبنون وتتحكمون بمستقبل الأمة.

وضعت يدها على فمها لتكممه حتى لا يخرج منها كلمة تعجب أو خوف على هذا الرجل المسكين، إنه لن يبيت في بيته اليوم، بل إنه لن يجلس على كرسي الإدارة سيُبلغهم المُبلِّغون بما قال، بل ربما هم هنا الآن يستمعون بأنفسهم.. أليسوا هم المسئولون عن أمن الدولة والساهرون على راحتها والمتواجدون في كل شبر فيها يحسبون حتى على الناس أنفاسهم، انْتهت من أفكارها سريعًا على صوت تصفيق حاد، غير أن المدير الهُمام أشار بيده أن يكفوا فقد انتهى عهد المصفقين وَوُلدَ عهد العمل والجدّ فإلى العمل المخلص أيها الشباب، إلى العمل يا مستقبل الأمة الواعد..

توجه الجميع إلى فصولهم الدراسية وليس لهم حديث غير كلمات المدير الغريبة على آذانهم جميعًا، توجهت إلى فصلها وقطعت على الجميع حديثهم الهامس عن التطورات الجديدة، بدأت الشرح سريعًا لتقطع عليهم مجرد التفكير فيما حدث، مراجعة سريعة على الدرس السابق، إنها تدرس مادة التاريخ وبرغم أنه تاريخ أيْ أنها أحداث قد حدثت وتمت بالفعل وغير قابلة للتغيير إلا أنه كان يتعرض للتغير تبعًا لِهَوى من يكتبه، وأصبح من الممكن أن تتبدل وتتعدل الأحداث الثابتة الراسخة وهي لا تنسى أبدًا ذلك اليوم الذي اسْتدعوها فيه وهي بين الطالبات في الفصل، وهناك قال لها أحدهم: إنك أخطأت خطئًا كبيرًا عندما لم تقرني قولة عمر بن الخطاب "نحن قوم أعزنا الله بالإسلام" بقول الزعيم "ارْفع رأسك يا أخي"، يجب أن تغرسي في قلوب الشباب حب الوطن،

وحب الوطن معناه حب الزعيم فهو الوطن والوطن هو، ويجب أن يعرفوا أن سيادته خلص البلد من المستعمرين والمتربصين والإرهابيين وغيرهم ممن يتربصون بأمتنا الحبيبة، وهو في ذلك شأنه شأن الفاتحين العظام.. إن لم يكن أعظمهم جميعًا.

وإلا قولي لي كيف تتصورين حالنا اليوم لو لم يقُم بما قام به؟ كنا سنظل عبيدًا عند الآخرين لا حرية لا حياة كريمة لا وظائف لأحد لا مساكن لا مواصلات لا صحة لا تعليم، ألا يستحق منا التقدير والتعظيم!؟ هي لا تنسى ذلك اليوم وأيام أخرى أخذوها كي يعلموها كيف تربي وكيف تعلم!، نبهتها إحدى الطالبات لطرقات خافتة على الباب، توجهت إليه وفتحت فإذا بها برجل تذكر إنها قد رأته من قبل، انخلع قلبها وتذكرت خطبة المدير الفصيحة، وقالت: ها أنا ذا سأدفع ثمن الخطبة، وما لي أنا به وهل أنا التي كتبتها أم أنني أنا التي دفعته لقولها، أم أنني سأدفع ثمن ما أقول وما لا أقول!؟

ابْتسم الرجل في أدب جمٍّ وغض طرفه، وقال: نريدك فقط للحظات كي نغلق ملفك عندنا، وأرجو أن يكون ذلك بعد الحصة فنحن لا نريد أن يضيع الوقت بلا فائدة.

في طريق خروجها من المدرسة، لم تجد الاثنين من المخبرين اللذين كانا ينتظراها دائمًا ليجذبنها داخل السيارة الخالية من الأرقام، وهناك وجدت الضابط يقابلها بكل احترام قائلًا: تفضلي يا معلمتي الفاضلة، دخلت حجرة التحقيق، قربوا إليها مقعدًا مريحًا، جلست عليه في ترقب وريبة، وبعد لحظات دخل أحدهم قائلًا: ماذا تشربين يا سيدتي؟ نظرت إلى الرجل نظر الفريسة إلى آكلها،

فأشار إليه الضابط بأن ينصرف ويحضر معه كوبًا من عصير الليمون، توجه إليها بالحديث قائلًا: في الحقيقة يا سيدتي، نحن أرسلنا إليك وإلى كل من هم مثلك قد ظلموا في الماضي؛ لنعتذر إليك اعتذارًا شديدًا، ونحن بالطبع غير مسئولين عما حدث من قبل، وإنما هي الأوامر ونحن مجرد أداة تنفيذ، ولكننا سنحاول بكل جهدنا أن نغير الصورة القاتمة وأن نعوض الشرفاء أمثالك عما لاقوه من غباء في الفترة السابقة، وما عليكِ إلا أن توقعي على هذه الورقة الصغيرة لإغلاق ملفكِ لدينا، تناولت الورقة بيد مرتعشة وقرأتها بحذر شديد وتوجس فربما يكون بها أي شيء يضرها أو يدينها في ما لم تفعل أو ربما قد جاءوا بها ليدسوا لها السم في عصير الليمون الذي ستتناوله فهي لا تستبعد عليهم أي شيء.

قرأت الورقة فلم تجد فيها شيئًا، فهي بمثابة إخلاء طرف حقًّا من هذا المكان الرهيب، وقعت عليها وناولتها الضابط الذي اعتذر مرة أخرى ووعدها بالتغيير في العهد الجديد، الذي جاء ليحافظ على كرامة الإنسان وإنسانيته.

في طريق العودة من مبنى أمن الدولة، اضْطرت أن تستقل حافلة عامة، وعلى غير العادة وجدت بعض الكراسي خالية نظيفة وكأنها مركبة آدمية غير تلك التي كانت تستقلها كل يوم، ودخلت المدرسة وسط ترحيب من زميلاتها واللاتي كُنّ يفرُرْن منها من قبل حين كانت تعود من ذلك المكان، شكرتهم بشدة وابْتسمت للجميع ابْتسامة رضًا عما يحدث وسعادة واسْتبشار بالعهد الجديد.

فتحت المعلمة عينيها على صوت زوجها يوقظها لصلاة الصبح، اسْتيقظت فإذا بها تسمع أذان الفجر بعد أن نامت نصف ساعة بعد صلاة الليل.



إن من أهم شروط السعادة في الحياة
هو أن تعيش اللحظة التي أنت فيها.



رسائل هامسة

جاءتني بغير ما عهدتها دومًا..كانت كلما رأيتها أشعر بذبول الكون من حولي، تحمل همومًا بقدر العالم كله، كنت أنصحها بأن تفتح قلبها للكون فبقدر الباب المفتوح سوف يغدق عليها ربها بالخير والرضا، حتى ابتسامتها علمتني أن الضحك في معظم الأحيان لا يكون معبرًا إلا عن الهم، كنا نختلف في مكانة الشهيد؛ أقول لها: إن أعلى مكانة هي الشهادة، فمن يستطيع أن يتغلب على حبه للحياة الدنيا وعلى ضعف نفسه، ثم هو يضحي بقرب أحبابه فهو كامل الإيمان.

كانت تقول لي: ما أروع الشهادة!، كانت تتمنى الموت، وكنت أعلم أنه يأس أكثر منه حبٌّ للشهادة، اليوم جاءت بشكل آخر، وبروح أخرى، ولولا أني أعرفها حق المعرفة لشككت أنها هي.. لمعة عينيها تُنبئ بميلاد جديد، خطواتها التي كنت أراها وكأنها تسير نحو المجهول أصبحت لا تكاد تضع قدميها على الأرض، وكأنها فراشة طائرة.

ابْتسمتُ لها، من أنتِ؟

قالت: أنا.. إنها أنا.

سأطلب منكِ طلبًا، سأعرض عليكِ رسالة، واذْكُري لي رأيكِ فيها، صححيها لي، أخبريني رأيكِ، أريدها بغير أخطاء، أريدها في أروع حُلة، أريدها كما لم تكن رسالة من قبل.

وقبل أن أفهم منها قلت لها: اكتبي كما يملي عليكِ قلبكِ، اكتبي كما تريدين أن يعرف.. وقرأت، قرأت ما كتبت، ويا لروعة ما كتبت!



ماذا دهاني؟ أهرب من الدنيا وأهرب حتى من نفسي لأصطدم بها في مواجهتي لتأخذني إلى طريق واحد، طريق أخشاه، بل يُرعبني السير فيه.

أخاف عليك ربما حتى من نفسي وأضن بك حتى عليها، أشعر بالأمان والسعادة والدفء في الحديث عنك، والقراءة لك، وأيضًا القراءة عنك، حاولت أن أبتعد فما أجد إلا أنني أسرع في الاقتراب..حاولت التناسي فما أجد سوى أنني أفرغ عقلي وقلبي من كل ما هو دونك.

حاولت أن أجد مهربًا منك فما وجدت سبيلًا سوى الهروب إليكَ، يُسعدني الأمر وقتًا ويحيرني أوقاتًا أخرى، إن كان الأمر داءًا فادْعُ لي بالشفاء، وإن كان غير ذلك فعلمني كيف أواجهه وكيف أقوده ولا يقودني،ولروعة ما أشعر به، فقد قررت أن أعيشه بكل ما فيه من سعادة وألم.. فما أجمل أن تعيش لحظة ميلاد شيء جميل خاصة حين يكون نبيلًا!

وأسرك قولًا بأن الحياة علمتني بأن للحب رائحة، عبق يحيط بصاحبه ويتنسمه كل من يقترب منه ممن لهم قلب محب، طاهر وبريء وكبير.. وأن على الإنسان- أيّ إنسان- إن أراد الحياة الحقيقية أن يحب، وإن لم يجد من يحبه فليبحث عن قلوب أحبت فليعش معها وليتعلم منها، اليوم، وبعد لقائنا، عدت إلى بيتي، أتدري كل ما كان يشغلني في الطريق؟

إن كل ما شغلني هو كيف أتحول إلى سحابة كبيرة تسير أينما تسير أنت، أظلك بظلي وأحميك من هجير الصيف القاسي، تخيلت نفسي تلك السحابة واصْطحبتُ معي من نسمات البحر الباردة المنعشة بعض الهواء الرطب، وسعدت وأنا معك في كل خطوة تخطوها أرقبك من بعيد أحميك كأم تحمي وحيدها دون أن ترغب منه أي شيء سوى أن يكون ذلك الإنسان السعيد، وفي خضم أحلامي أجدني وقد تركت قلبي هناك حيث ستكون يومًا قريبًا، تمنيت لو كنت في استقبالك، ولكن أُصدِقك القول أخذتني الرهبة والرجفة وذبت في نفسي من تخيل لحظة لقائك كيف ستكون؟ وكيف سأتحملها ورغم الأحداث الكثيرة اليوم التي أخافتني على البلد وعلى الثورة وعلى شبابها؛ إلا أن حياتي وجدتها تسير في اتجاه تصاعدي؛ حيث قمم الجبال وبين النجوم والمجرات وكأنني غُيِّبتُ تمامًا عن عالم الأرض.

أضحك ويطرب قلبي وأرْتعش وأخجل وأغض طرفي ويغيب عقلي، ثم بعد لحظات أجدني باكية حزينة خائفة شاردة، فرحت باحْتمال رؤيتك وفرحت حين تأجل اللقاء لست أدري لماذا؟ تلك هي مشاعري التي أردت أن تشاركني إياها... مجموعة من المتناقضات والتي لا أدري إلى أين ستنتهي، أو إلى أين ستأخذني، سأعيشها لحظة بلحظة، وسأستمتع بها وسأجاري قلبي في سعادته بك، لكن أبدًا، لن أقترب بما يؤذيك ولو حتى بنسمة من نسمات تلك المشاعر..

سلمت لمن يحبك، وسلم قلبك.

معك حق، فأحيانًا كثيرة نحب أن نستعيد تلك اللحظات الرائعة التي عشناها في وقت كنا فيه في قمة مشاعرنا، وعندما عدت إليها وأعدت قراءتها فكأنني أعيدها للحياة أو أكرر حدوثها والعيش بها، أو قل إن شئت كأنك معي نتحاور ونتحدث ونفرح ونغضب ونقترب ونبتعد، ثم نعود لنقرر الاستمرار، وقد أعطتني حالة شعورية غريبة وأخذتني في عالم رحب ليس له حدود لو أحببت أن تكون معي فيه فاقْترب وأغمض عينيك ووَجِّه نظر قلبك لأعلى وأنصت بروحك إلى هدهدة الكون وترحيبه، بأعلى صوت أناديك في فضاء لا متناهي، ولأول مرة منذ زمن أضحك ملء قلبي، أنشد اسمك في قلبي فيسمعني الكون كله ويفرح معي ويردد معي أجمل أنشودة للحياة.



في طريق الرحيل، تجوب الروح في دروب الذكريات باحثة عن أحاديثهم القديمة، علّها تصحب معها بعض السلوى في غربتها الجديدة..

ترنيمات في ذكرى الرحيل

احكي لي عما يجول بخاطرك، ماذا يغضبك مني؟ كيف أصالحك؟

تلك بعض كلماتك أذكرها، لا.. لست أذكرها، بل أسمعها بأذني الآن، أعيشها، أبتسم لبعضها وأغضب من أخرى.

حبيبتي، أين أنتِ؟ هل أنتِ جاهزة، تأخرنا على الخروج.

الصوت قريب من هنا، لا، إنه من هنا، إنه في كل مكان يحيط بي، صوتك يملأ المكان، يملأ قلبي وسمعي وكياني كله، هل أنتَ هنا؟ هل هو أنتَ حقًا؟ منذ اليوم الأول، وقد علم أحدنا أنه امْتداد للآخر، لا حياة له بدونه، وكذلك اعْتاد الناس ذلك المشهد، إذا اضْطرتنا الظروف للخروج كلٌّ على حدة، قيل لنا: وأين نصفك الآخر!.

- لأجلكَ أنتَ اعتزلت كل البشر.

- وما البشر! لقد صرتِ أنتِ كل البشر.

أتذكر ذلك اليوم، قررنا أن نرحل عن الجميع، في ذكرى أول يوم خرجنا فيه سويًا لنصنع عالمنا الخاص، قررنا أن نعيد الزمن، وحسبنا أننا قد أعدناه، بينما هو كان يمر من بين أيدينا دون أن نشعر، وسرعان ما مضى، وقد كنا نحسب أننا نملكه

قرر أن يكتب السطر الأخير قبل أن تكتمل الحكاية ويأخذك مني ويدعني في منتصف الطريق وحدي.. نصف بشر..نصف روح.. نصف إنسان.

علمتنا الأيام كيف أن الحب يصنع ألف حياة، وأنه حين تمضي أيامه مسرعة؛ فلا علينا منها، فقد عشنا أزمانًا لم يعشها غيرنا حتى لو توقف بنا الطريق فِي منتصفه، اليوم هو ذكرى ذلك اليوم الذي خرجنا فيه سويًّا ككل مرة، لكنني عدت ليس ككل مرة، عدت وحدي بينما اعْتادت يدي أن تكون بين يديك، عدت لأحتضن ذكريات حيَّةً أبت الأيام إلا أن تحتفظ حتى بهمساتها، ومضى العمر، ورحلت عنا الأيام، وأصبحت حكاياتنا مع الوقت ذكرى، مجرد ذكريات ربما مع الأيام تمضي، لكنني على يقين من أن كل المعاني الطيبة التي حملتها قصتنا إلى الكون لن تضيع سدًى، كل كلمات الحب التي تغنينا بها، كل نظرة حملت كل حنان بعمق المحيط، كل دمعة حارقة بين الجفون حين وداعٍ بيننا، كل ربيع هلَّ علينا بينما الهجران لم يكن لنا رفيقًا، كل شتاء ضمنا بين أمطاره الدافئة، وفي أحضان شمسه الهادئة، ستصبح حكاياتنا شمسًا تطل على الكون بعدنا، فتضيء فرحة وبهجة لم يعتدها العالم قبلنا..

فلتنسنا الأيام كيف شاءت، ولترحل عنا وقتما شاءت، فمع مطلع كل شمس ستولد حكاية لنا من جديد؛ لتتذكر العالم أن الحب الصادق- أبدًا- لن يضيع.



آه من البحر!

موجاته، سحبه، سمائه، نسماته، غضبه، وصفائه..

مدرسة نتعلم فيها فنون الحياة،

وأصناف الناس،

وقوانين العيش بين البشر؛

فللبحر دروس حيَّةَ.

لا يفقهها إلا أحبابه



كنت يومًا على شاطئ البحر

جلست أتأمله عن قرب وفي غيبة من البشر والمتطفلين عن الشاطئ الحبيب، كان الجو غائمًا بعض الشيء وقد حجبت الشمس خلف سحابة قاتمة قد اختلطت بماء البحر الذي اكْتسب لونها؛ فصار الأفق كله لونًا واحدًا يميل إلى الرمادي الرائع لا تستطيع معه أن تميز حدود البحر من السماء، الموج متقارب جدًّا وسريع جدًّا يكاد يكون غاضبًا مع قدوم الشتاء الرائع.. الموجات الساحرة بأنواعها المختلفة أميز بينها جيدًا وأعرف كنهها وطبيعة كل منها؛ فتلك موجة هادئة تهدهد الشاطئ في سلاسة وجمال وروعة تسحب معها بعض الأصداف المختلفة الألوان؛ فتنبئ عن بديع صنع الخالق سبحانه.

ناعمة كنعومة رمال الشاطئ الخالية من آثار الناس.. رقيقة كقدوم قمر الشتاء الهامس.. وديعة كطفولة أيام الحب الطاهر.. هكذا هو قدومها، وهكذا هو انْصرافها نسمة هادئة ينعم بها الناس ولا تجرح أحدًا منهم، وأما هذه، فموجة هادرة ترتفع وترتفع وتستعرض قوتها على مثيلاتها لتمثل نوعًا من الرهبة لناظريها، وربما لموجات تسبقها أو تلحق بها، تكاد في علوها تنافس السماء، وكأنها تريد الوصول لخيوط الشمس الباهتة المتسربة من بين الغمامة السوداء، تعجبت كيف تصمت الشمس وتستسلم لتلك الضربات المتعمدة وهي التي أرهقتنا طوال صيف مقيت وكنا نحسبها أبدًا لا تهزم، عالية وعريضة وقوية، وربما تكون مُميتَة إذا تطاول أحدهم وتحداها فربما تجرفه في طياتها حتى يتلاشى ولا يبقى غيرها،

اخْتار قلبي لها وعقلي، بعدها لاحظت عجبًا، وقررت أن أقوم بمسابقة بين تلك الموجات لأرى أيها تسبق إلى نقطة معينة، حددتها بناءًا على آخر علامة مائية لاحظتها كدليل على وصول الماء إليها، قمت فعلًا بالمسابقة بالعد والمقارنة، رأيت أن الموجة الهادئة التي تسير بانْتظام نحو هدفها تصل إلى أبعد نقطة وصل إليها الماء بالفعل دون أن يسمع لها ضجيج، وأن الموجة الأخرى الهادرة المرتفعة أجدها وقد اصطدمت ببعضها البعض، تنكسر، ثم تجدها وقد فقدت كل قوتها بينما هي تسقط من علٍ فوق موجة أخرى، وهي لثقلها لا تستطيع المقاومة فينتهي بها المقام بعيدة عن الشاطئ ولم تصل لأدنى مستوًى للوصول، تعلمت منها كما أتعلم من البحر دومًا درسًا لم أعرفه من غيرها، ولذلك أحببت أن أطمئن أهل بلدي، لا يغرنكم طغيان الطغاة، لا يغرنكم بأس أفعالهم ولا ضجة أصواتهم، فهم حتمًا منكسرون، منكسرون حسب القانون الرباني الذي حكم به الله كل شيء في ملكه الكبير، اطمئنوا فالنصر يصنعه الله والتمكين بيده.. ولن يكون أبدًا لهؤلاء الذين بغوا واعْتدوا وتجبروا، وعلا صوتهم وصمَّ الآذان ضجيج جبروتهم وباعوا ضمائرهم بلا ثمن.



قل الحقيقة كلها؛
لا شيء يُجدي غيرها.
قل لهم أحببتها،
وعشقتها،
ذاك الربيع عبيرها..
هذا النسيم حنينها..
أمَّا زمان الحب..
عفوًا، إذ يحين..
زمانها.



إشراقة ميلاد جديد

هل جربت يومًا رؤية كلمات أحد تتجسد أمام ناظريك، وكأنها صارت كائنًا حيًّا جميل الوجه رقيق القلب دافئ اللمسات؟ هل حاولت أن تتلمس تلك الكلمات بأناملك، فأحسست بها ووجدت نفسك قد ارْتوت وأُشبعت بالحياة؟ هل شعرت يومًا وأنت تنظر في رسالة من عزيز عليك أنك تراه في كلماته، وأنه يبتسم لك ويقول عندي لك المزيد من الكلمات، غير أنه ما زال هناك ما يمنعني وأنه سرعان ما سيأتي الوقت وسأقولها لك؟ هل ارْتعشتْ يداك وازْدادَ نبض قلبك وتغير لون وجهك، وحاولت أن تتوارى من صاحب الرسالة خوفًا من أن يرى ما بك رغم أنه بينك وبينه مسافات، لكن شعورًا ما بداخلك يقول إنه قريب ويراك فعلًا، وأنت تحاول إخفاء حيائك وخوفك؟

هل هربت منك الكلمات يومًا- وأنت من تصنعها وتصوغها- فتجد نفسك وقد عجزت عن الحديث رغم كثرة ما تريد أن تقول وكأنك طفل صغير ما زال يتعلم النطق بالكلمات؟ هل عرفت معنى أن تحب الحروف حين تنسج اسمًا بعينه، فتجدها وكأنها مرسومة لا مكتوبة ومعزوفة لا منطوقة؛ لتعطي أجمل صورة وأعذب لحن؟ هل رأيت يومًا هاتفًا يتمايل مع اتصال، ويشرق وجهه وتزداد نغماته طربًا، وكأنه سينطق ويقول لا تقم بالرد الآن ودَعْه يُعيد الاتصال ليطول إحساسي بالحياة؟ إن حدث هذا فلا تتعجب فسوف يحدث الكثير..

ليس يهمك ما به من عيوب يعلمها الناس أو لا يعلمونها، فإنك سوف تتقبلها وتراها من مكملات الصورة حتى تتضح معالمها الرائعة، سوف يخفق قلبك كثيرًا لأسباب تجهلها، خوفًا عليهم أو شوقًا إليهم أو ألمًا لبعدهم، ولا تتعجب حين الشوق أن تجدهم وقد أتي بهم القدر إليك مبتسمين فتسألهم بلا حروف: ما جاء بكم الآن؟ فيكون ردهم أن شيئًا ما دفعهم إليك رغمًا عنهم، فتكون لغة جديدة تعرفها الأرواح ولا تفقهها الألسنة والجوارح، لا تتعجب حين ينقبض قلبك فجأة فتعلم أن شيئًا ما أصابهم، وكأنك أصبحت ترى من خلف الحجب أسرارًا لا يعرفها إلا أصحاب أرواح شفافة.

حينها...

تصغر أشياء كنت تعيش عليها، ثم تتضاءل حتى أنك تعجب كيف أنك كنت تهتم بها يومًا، وغالبًا ما تنتمي تلك الأشياء لعالم المادة الجاف، ثم تكبر أشياء بداخلك ما كنت تحسب أن تولد لديك، تكبر طفولة حسبتها مضت مع السنوات وماتت، تكبر سعادة لا تعرف كنهها ولا سببًا لها، تكبر آمال ما كانت لتولد لولا مشاعر سكنت فيك فسكن معها قلبك..

حينها، اسأل الله ألا يبعدهم عنك، ولا يحرمهم منك، ولا يكتب عليكم شقاء البعد أبدًا.

حينها...

لم أعد أخاف من شيء، ولن أخاف فما يقدره الله سأرضى به ثم أي سعادة أبتغيها أكثر مما أنا فيه؟ وأي حلم أحلمه أجمل من تلك الحقيقة التي أعيشها الآن؟ إنها أبسط مما يتخيلها أي أحد، يعجبون من عالمي وهم صانعوه! لون القمر تغير، أمسي وكأن له ملمسًا أحسه بيدي، وصوت الطيور تغير، وكأنه ما كان له وجود من قبل، حاول أن تعيش في ذلك العالم لبعض الوقت فصدقني لن تخسر وتستطيع أن تفتح عينيك لترى الوجود كله أجمل مما كان عليه، اجْعله عالمنا الذي نستمد منه طاقة البقاء والاستمرار، وساعتها ستعود لعالمك حتمًا وأنت أكثر إشراقًا وعطاءً وحبًّا لكل ما حولك ومن حولك.

افتح عينيك لكن لا تبتعد، فما زال هناك في الأفق الكثير.

الآن أستطيع أن أقول لك..كنت يومًا ذات حلم، وذات يوم، صحوت.. على حقيقة أروع من كل حلم.

تحب، تغضب، تهجر، تعود، تسامح، تبتسم، تبكي، تحزن، تتأمل، كل هذا لا يخرج عن كونك إنسان طبيعي، لكن ما يخرجك عن إنسانيتك أن تحقد أو تحسد أو يملأ السواد قلبك على أحد من البشر لهوى في نفسك، فيحجب عن بصيرتك الرؤية فلا ترى الحق حقًا ولا الباطل باطلاً.



قيمة الحب

يقول النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا» [حديث شريف، رواه مسلم].

حاولت أن أستجمع كل ما أعرفه عن الحب؛ كي أخرج بتعريف له، لكني للحقيقة لم أستطع ذلك، وقفت على عدة معاني، فوجدت أن كل من تعرض لتعريفه، إنما هو يصف حاله فيه، يصف تجربته، يصف ذاته وآخر يصف أمنياته.. منهم من قال إن الحب ذوبان، تلاشي، إيثار، لا تعرف أين بدايته من نهايته، لا تريد قبل أن يريد، لأنك لن تريد إلا ما يريد، ومنهم من قال إن الحب هو تمام الرضا عن المحبوب، بل هو درجة أعلى من الرضا.

ومن قال إنه تعلق القلب بغير سبب معروف، فلا يهدأ ولا يقر إلا بقرب المحبوب ومعيته، ومنهم من قال إنه الإيثار المطلق؛ فالحبيب لا يهمه قرب محبوبه بقدر ما يهمه أن يكون سعيدًا، حتى ولو كان بعيدًا عنه، تعريفاتٍ كثيرة لم تملأ قلبي رضا عنها، ولأنني لست أملك تعريفًا بداخلي يقنعني؛ فقد أقنعت نفسي أن أكتفي بأماراته.. قالوا- قديمًا-: لو أحب الناس ما احْتاجوا إلى العدل أو القانون، ذلك لأن الحب وحده يعطي وكفى، فلا تجد حبيبًا يسأل وماذا أخذت، ولا تجد حبيبًا يهضم حبيبه حقه.

وقديمًا قال صوفي شاعر كبير (هو الصوفي الكبير جلال الدين الرومي، وهذه الفقرات من شعره الصوفي الوجداني، وقد نقل هذه الفقرات السيد أبو الحسن الندوي في كتابه «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ص ٢٨٨وما بعدها):

"إن الحب يُحول المُر حلوًا، والتراب تبرًا، والكدر صفاءً، والألم شفاءً، والسجن روضة، والسقم نعمة، والقهر رحمة، وهو الذي يلين الحديد، ويذيب الحجر، ويبعث الميت، وينفخ فيه الحياة..".

"إن هذا الحب هو الجناح الذي يطير به الإنسان المادي الثقيل في الأجواء، ويصل من السمك إلى السماك، ومن الثرى إلى الثريا..".

"بارك الله لعبيد المادة وعباد الجسم في ملكهم وأموالهم!! لا ننازعهم في شيء، أما نحن فأُسارى دولة الحب التي لا تزول ولا تحول."

"حياك الله أيها الحب المضني! يا طبيب علتي وسقمي! يا دواء تخوفي وكبري! يا طبيبي النطاسي! يا مداوي الآسي! آه"

وسواء كنت معه من عدمه، فإن الحب نوع من أنواع السحر الجميل، السحر المباح بين البشر كي يتيح لهم الحياة على هذا الكوكب المُبتلي.

من أمارات الحب.. أن المحب يغفل عن كل الخطايا، وكل الأخطاء وكل العيوب، قد يغضب المحب، وقد يساوي غضبه كل الغضب من الآخرين مجتمعًا، لكنه يصفح بكلمة، بنظرة اسْتعطاف، بابْتسامة، بسؤال، بدمعة عين؛ فالمحب لا يسود قلبه مع غضبه، وإنما يضعف القلب حتى يرق، ويتعالى عن دنيا كثيرة فيتصاعد ويتصاعد عن صغائر الأرض وصَلادَتِها، لكن آفة الحب التجاهل، فالتجاهل هو ذلك السكين الذي يذبح دون أن يحاسب عليه القانون.

ومن إمارات الحب كذلك، أن كلماتهم إن كانت يومًا جرحًا، فلا دواء إلا صوتهم، قد يوجع أحدهم الآخر، لكن الدواء لا يكون إلا عنده، ومن أماراته أن الحب لا يهدأ أبدًا أو تستريح له نفس، حتى يطمئن على المحبوب، كذلك لا يرضى حتى يرضيه تمام الرضا، ترقبهم من بعيد وتطمئن عليهم دون أن يشعروا.. تسعدك كلماتهم، وتؤلمك آهاتهم، تبتعد وتقترب، وتغضب تسامح، ثم تعود.

ويكفيك..أنهم هنا معك، حيث تكون، حين تبحث في أشيائك القديمة، لتجد أثرًا لهم قد خلفوه منذ زمن وقد نسيته، فكأنك حينها قد الْتَقيتهم، اشْتممت رائحتهم، تحسست ذكراهم، فتغمض عينيك وتتناسى أين أنت.. وتعيش حيث كانوا يومًا معك.

ولذلك قال الإمام الشافعي فيمن يدَّعي حب الله ٥، وهو يعصيه ولا يقدم له الطاعة الكاملة، تلك الطاعة التي تليق بالمحب والمحبوب، خاصة إذا كان المحب عبدٌ، والمحبوب ربُّ العالمين.

تَعْصِي الإله وَأنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ　　هذا محالٌ في القياس بديعُ

لَوْ كانَ حُبُّكَ صَادِقًا لأَطَعْتَهُ　　إنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

في كلِّ يومٍ يبتديك بنعمةٍ　　منهُ وأنتَ لشكرِ ذاكَ مضيعُ

والغريب في الحب أنك حين تجد سببًا في حبك من تحب، فتلك هي بداية النهاية له، فالحب دومًا بغير أسباب، وبغير شروط، أما عن شوق المحب للمحبوب فحدث كما شئت فحين تشتاق إليهم تشتاق لكل مكان جمعك بهم.. تشتاق للطريق الذي سرتم فيه ولخطوات تأخذك إليهم، ولاتجاه هو اتجاههم، ولكل الكلمات التي قيلت بينكما يومًا، وأحيانًا، وأنت تتملكك رغبة كبيرة في البكاء وتنأى بنفسك بعيدًا عن كل ما هو حولك وكل من هو حولك، ثم تسقط منك- رغمًا- دمعة لا تستطيع حبسها، ثم تكتشف أنك في هذه اللحظة قد اكتويت بنار الشوق لحبيب مضى عليه سنوات بعيدًا عنك؛ فتجد أن دمعتك أصبحت نهرًا من الدموع والابْتسامات.. دموع الشوق وابتسامة الذكرى.

ومـن مقتضـيات الحـب أن تسـامح، لكـن هـل يتنـافى التسامح مع كون القلب ما زال منكسرًا؟ وهل يمكن أن يعود المنكسـر كمـا كـان أبـدًا؟ ومـن عجائـب الحـب، أن يصـلح الانْكسار، وكأنه لم يكن، وطريق الحب يحيل الخطوات التـي نسيرها عبر الزمن تصنع مستقبلًا رائعًا، لا يمكن أن تصل إليه بقلب غير قلب المحب، وكما أنها تصنع مستقبلًا رائعًا، فهي كذلك تصنع أروع الذكريات، والسؤال، هل يستطيع كل النـاس بلـوغ هـذه الدرجـة مـن الحـب؟، هـل تلـك هـي طاقـة البشر؟

لقد جعل الله ﻷ القلوب لها اسْتعدادات متعددة وتلقيـات مختلفـة، جعلهـا كـالألوان تمامًـا، منهـا الأبـيض، ومنهـا الأسـود، ومنهـا الرمـادي، ومنهـا الألـوان العديـدة، ولـذلك؛ فليست كل القلوب مُهيأة لتلقي الحب، وكما أنها ليست كلها مُهيـأة لتلقـي الحقـد والكراهيـة والحسـد بـنفس الدرجـة، إن القلـوب شـخوص كاملـة، تقـرر مـاذا تريـد وكيـف تحـب أن تكـون، تقـرر الطريـق الـذي تـود السـير فيـه، ثـم إذا هـي اختارت، يسَّر لها الطريق الذي تريد.

فمن يختار الحب تهيأت لـه كل الأسباب لذلك، ووضع الله في طريقه هؤلاء الذين هم من عينته، لذلك تجد البعض يقول: لَم ألتقِ في حياتي بأناس غير طيبين أبدًا، وذلـك لأنـه هو كذلك، وهو اختار الطريق فيسره الله، ومنهم من يـدعي أن الجميـع سـيء، وأن الكـل يتـربص لـه، وأن مجمـوع المجتمـع لا خيـر فيـه، فـإذا بحثـت فيـه لوجدتـه هـو سـوأة المجتمع ولا أحد غيره، وهؤلاء مـن قـال النبـي ﷺ عنـهم: «إذا قال الرجل هلك الناس؛ فهو أهلكهم».



حين أكف عن السؤال عنك، وحين أكف عن الغضب منك، فلا تفرح كثيرًا، وتقول صفا قلبها، وعَمُقَ فهمها، وإنما لتعلم حينها، أنه لم يعد يعنيني أمرك، وأن المساحة التي كنت تشغلها قد احتلتها أشياء أخرى لست من بينها...



قلوب مليئة فارغة

هل كان حلم العمر كله؟ لا، كان أكثر، هل هو فرحة الحياة ونورها؟ لا، كان أكثر، هل هو سبب السعادة وسبب انتظار الغد، وسبب كل الأحلام؟ لا، كان أكثر، هو كان انتظار السنوات العجاف حين تمتد لتسرق بهجة الحياة كلها، وتضيع من بين أيدينا وتتسرب دون أن ندري ولا تتركنا إلا وقد خطت بأناملها بعض الخطوط على جبيننا المنحني المنهك من طول الانتظار، هو ابتسامة ما كانت لتعرف طريقها إلى شفاهنا، إلا نادرًا، وما كانت تتجاوز حركة الشفاه، لم تتخطَ أبدًا للقلب يومًا.

هو ليس تلك الابتسامة وحدها، وإنما كان سببها، وحارسها، وصاحبها والحريص عليها..هو، كان الأمس الراحل، الأمس الذي طال فأخذ معه العمر، وهو الغد المنتظر، والذي طالما حلمنا به وحسبنا أنه أبدًا لن يأتي، وأتي، هو كان أنا وما أروع أن يناديك أحدهم "يا أنا"، في وقت يكون هو أغلى الناس لديك، أحيانًا يتساءل: البعض هناك من يمتلك كل شيء، رفاهية العيش، حب من حوله ورعايتهم واحترامهم وتقديرهم له، عمل يرضيه ويمنحه فوق ما تريد، صحبة طيبة تغنيه عن فراغ الوقت وقسوة بعض أوقات الوحدة...

كل هذا، ثم تجد الهم لـه رفيقًا، نفسه فارغة وحيدة، تسأل نفسك في حيرة: ما بالها الدنيا، أصبحت وكأنها بغير بشر، برغم كثرة البشر، ثم يأتي الآتي الجديد؛ ليملأ كل الفراغات، ويغني عن كل البشر ليصير هو كل البشر، ما شأنه هذا الآتي؟ وما الذي يملكه حتى يفرض كل شروطه على القلب فيستجيب بغير شرط، وتستقيم له الحياة المائلة، وتنضبط كل الموازين.

هو كان كل شيء..... كان.

وكما أتى فجأة وأتى معه بكل شيء، رحل كذلك فجأة، وأخذ معه كل شيء، فتنكسر، ويهيم قلبك في سماوات الحرمان، مطلِقًا ألف سؤال، لِمَ أتى؟ ولم رحل؟ لماذا تكسرنا دائمًا كلمة ممن نحبهم ولا تؤثر فينا رصاصات من لا نهتم لشأنهم؟ هكذا فعلوا بنا، وهكذا تركونا..

خرجت بدروس لا نهائية، واتَّخذت قرارات، ومع علمي بعدم جدوى اتّخاذ قرارات وقت الغضب إلا أنني أقسمت يمينًا ألا أنجرح أبدًا، إياك أن تتعلق بقلب أكثر مما يحتمل قلبك؛ فالقلوب متقلبة، وويحك منها حين تتقلب، أحبب هُوَينا، وعاشر هُوَيْنا، وفارق هُوَيْنَا، وخاصم هُوَيْنَا، واترك دومًا مساحة للتغيير مهما كان الوضع الذي أنت عليه الآن، فلا سعادة تدوم، ولا همٌّ يبقى.

كل همٍّ يبدأ كبيرًا فيصغر مع الأيام، وكان موعدنا الشتاء.. الشتاء الذي طالما حمل في رحم أمطاره هناءة وبهجة ودفئًا للمحبين وعالمهم، لكنه كان الشتاء الأخير، رحل ولم يعد، أبكي، كل شيء يستحق البكاء، وحين تريد البكاء لا تنظر حولك، فمن سيلومك لا يستحق أن تنتبه لوجوده، ويرحل الشتاء بكل ما فيه من روعة، تاركًا ذكرياتنا لتحرقها شمس الصيف الحارقة، تُرى هل نلقاك مرة أخرى أيها الشتاء؟ ما أشد مرارة طعم الحزن!

حاولت الغضب، حاولت الكراهية والحقد والندم، حاولت كل شيء سلبي، إلا أنني لم أستطع، ورغم أننا سامحناهم، لكني بحثت في مكان بقلبي خالٍ لهم؛ فلم أجد، يبدو أنه قد فات الأوان ويبدو أنهم قد تأخروا كثيرًا. كنت أحسب أن الفراشات حين تقترب من النار لا تدري أنها نارٌ، فكنت أشفق عليها من الحرق، ما يؤلمك أنها تدري، ومع ذلك تنجذب للنار وتحترق بها، ولا يردع بعضها احتراق سابقاته.

وبرغم كل الألم المتبقي، بحثت في طيات أيامي عن صوت يواسيني، فلم أجد، وتساءلت لماذا؟ فأتاني الجواب.. عذرًا، فكل الأصوات غريبة بعدهم، لن يسليكم غير صوتهم، وقد رحل بغير عودة، آااااااااااااااااااااااه، الألف عندهم، والهاء عندي.

آه لو كان يجدي البكاء؛ لقضينا العمر نحيبًا.



أتمَّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بناء الكعبة؛ فأمره الله بأن يؤذن في الناس بالحج.. يؤذن من مكة، وما عليه سوى أن يفعل دون أن يساوره شك في أن الناس سوف تسمع أذانه.

أذَّن إبراهيم وبلَّغ الله تعالى عنه، إنها البشرى ورب الكعبة،

فما علينا سوى الثبات في الميادين،

والله بالغ أمره رغم كيد الكائدين.



وعلمتني جدتي هاجر

أنت الآن زوجة لرجل متزوج من غيرك، ولم ينجب من قبل، وتزوجك وقد يئس من الإنجاب، ثم أنتِ تنجبين له الولد، الذي لم يكن يتخيل أنه سيُرزق به، ما هو شعورك الآن؟ وماذا تتخيلين مكانتك عنده؟ وكيف تتدللين عليه؟ سأترك لكِ الجواب واذكري ما شئتِ.

يطلب منكِ زوجكِ في تلك الظروف ووسط تلك الفرحة العارمة أن تصطحبيه في رحلة، تخيلي إلى أين تكون تلك الرحلة؟ ربما رحلة اسْتجمام، أو رحلة سياحية، المهم أنها ستكون رحلة مكافأة لكِ على ما قدمتيه له من هدية العمر كله، اسْتعدي للرحلة، فها هو المتاع قد تم إعداده، إنه ما يستطيع الزوج حمله من ماء وطعام، احْملي وليدك الآن وسيري مع زوجكِ وسلمي له القياد دون أن تسأليه إلى أين؟ فثقتكِ به لا متناهية خاصة أنه ليس زوجًا عاديًا، وإنما هو إنسان رباني له مهمة وله رسالة، وهو والد ابنكِ الوحيد.

تسيرين معه وها هي مشارف الصحراء تظهر في الأفق، تتعجبين لكن لا تسألي فما زالت الثقة موجودة، يأخذك إلى مكان بعيد في قلب الصحراء، وتقلبين النظر بين ذلك المكان الموحش وبين زوجك... من فضلكِ أختي المسلمة تخيلي نفسك فعلًا في هذا الموقف، لا يتحدث إليكِ زوجك، وإنما ينظر إليكِ ويدير لكِ ظهره دون كلمة، ويتركك لينصرف، دون زاد إلا من قليل، دون ماء إلا من قليل، دون بشر، دون مأوى.. تُرى ما هو أول سؤال سوف يخطر ببالكِ كي تسأليه زوجك!؟ تُرى ماذا سيكون تصوركِ للموقف؟ وهل سيكون للعقل حكم أم لثقتكِ به؟

ربما تصرخين، ربما تنادي عليه وتبكين بكاءًا مرًّا وتطلبين منه أن يرحمكِ ويرحم ابنكما، ربما تحاولين تعقبه والعودة معه إلى حيث الأمان والحياة المستقرة.

"آالله أمركَ بهذا؟" تلك هي كانت إجابة جدتكِ "هاجر"، وذلك هو الدرس الأول الذي علمتّه لنا، درسٌ لا يمكن أن نتعلمه في الجامعات أو على يد أعظم الأساتذة، إنه اليقين في الله وحسن الظن به- سبحانه.

يجيبها الزوج النبي الخليل ليس بكلمة، وإنما فقط بإشارة أن نعم وبدعاء خالص لله ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

[إبراهيم: ٣٧، ٣٨]

فتعود لتعلمنا فن التسليم.. "إذًا لا يضيعنا".

" إذًا لا يضيعنا"، ذلك هو اليقين الذي إذا سكن قلب المؤمن انْطلق في الدنيا ليُعمرها ويبنيها غير هيَّاب لأحد إلا لمولاه، وغير مُتوكل إلا على مولاه، وغير مُبتغي بعمل إلا وجه مولاه، وهكذا حال المرأة المسلمة إذا توكلت على الله حق التوكل، وعاشت اليقين بكل معانيه فهي لا تحب إلا له، ولا تكره إلا فيه، ولا تعطي إلا له، ولا تمنع إلا لرضاه، وهي ليست حجر عثرة في طريق زوجها، خاصة تلك التي حباها الله ٥ بزوج مجاهد داعية،

ومطلوب منها التضحية وحمل معظم الأعباء معه وإلى جانبه يدًا بيد وقلبًا بقلب، فهي لا ترهقه بمشاكلها وبمزيد من أعباء الحياة فيتأخر عن الركب أو بمزيد من اللوم والعتاب على تأخره مثلًا وتغيبه لأوقات طويلة عن البيت، أو لإنفاقه الكثير من وقته في أعباء الدعوة دون أن ينفقها في جلب المزيد من المال أو تخويفه من عاقبة الطريق والخسائر المحتملة فيه، بل هي الزوجة المؤمنة التي تنتهج طريق جدتها طالما أنها تعرف أن زوجها على طريق الأنبياء والصالحين، ولها أن تفخر بذلك وأن تتحمل المشاق في سبيل تيسير أمره.

فها هي جدتنا الغالية تسير إلى جنب زوجها إلى حيث المجهول ولا تسأله إلى أين تأخذنا، وكيف تسأله وهي أصلًا تثق به وتعرفه جيدًا، وهو الإنسان الرباني المؤمن فلماذا لا تثق به اليوم أو تخافه أو حتى تخاف عليه؟ تسير دون أن تسأل، وحين يصلا إلى المكان المقصود لا يقول لها شيئًا، بل يتركها ولا يُعقب امتثالًا لأمر ربه ويمضي، وهي كإنسانة يعتريها بعض الخوف، وإنصافًا من لا يخاف في ذلك الموقف؟، آتونا بأعظم الرجال وأقواهم وأصبرهم وافعلوا معهم ذلك وانظروا ماذا يفعلون؟ والأمر هنا لا يحتاج إلى قوة جسدية أو نفسية، ولا يحتاج إلى مزيد من الطعام والماء لتأمين أبسط مطالب الحياة، ولا يحتاج لبعض الحراس ليقوموا عليها في الليل البهيم في ذلك المكان البعيد الموحش الخالي من مظاهر الحياة.

إنما يحتاج إلى قوة من نوع آخر، إنها قوة اليقين في الله، وهي قوة لا تؤتى لأيٍ إنسان، ولا تؤتى هكذا ببساطة، وإنما تؤتى لقلب دائم الاتصال بالله، وعين طالما سهرت وبكت، وبطون طالما صامت وزهدت، وأيادٍ طالما امْتدت بالصدقات دون أن تدري شمالها ما تنفق يمينها، وعقول شغلها البحث في ملكوت الله وبديع صنعه، وأسر أعانت بعضها البعض على الطاعة ذلك هو معين اليقين وذلك هو سبيله، لا يأتي هبة، ولا يُشترى بالمال، ولا تؤمنه البيوتات الفاخرة.

مجرد إشارة من سيدنا إبراهيم أن "هذا أمر الله" وفي هذه الحالة يظهر الإيمان قويًا مُتحديًا أي صعاب وأي عقبات وأي جبروت وأي طاغية وأي ظالم، وأي قوة مهما بلغت فهي مهما بلغت ماذا تساوي إلى جانب قوة الله، ولماذا الخوف من الجوع؟ هو من يسقي ويطعم، خوف على الأجل؟ هو يُحيي ويُميت ولا أحد غيره، فإذا كان هو الرازق؛ فلِمَ الخوف؟ وإذا كان هو من يملك الأجل؛ فمِمَّن الخوف؟.

اليقين في الله الذي يجعل امرأة تواجه الدنيا كلها بكلمة واحدة "إذا لن يضيعنا ".

عـودي الآن يـا أختـي مـن رحلتـكِ المُرهقـة، والْتقطـي أنفاسكِ فما أظن أن أحدنا يمكن أن تقدر على ما تبقى منها أو تطيق، عودي لنتعلمٍ من تلك السيدة التي علمت البشرية فنون الإيمان بالله عمليًّا، وتحملت ما يشق على الرجال....

الدرس الأول: اليقين، وحسن الظن بالله.

الدرس الثاني: حسن التوكل على الله.

تعود جدتنا أدراجها إلى وليدها وهي تحمل في صدرها قلبًا يحمل إيمانًا يستعصي على كل شياطين الأرض أن تعبث به ويبدأ الطعام في النفاذ، ويبدأ الماء في النفاذ، ويجوع الرضيع ويصرخ ألمًا، وهي تعرف إلى من تلجأ، لكن لنتعلم كيف يكون اللجوء الحق إلى المولي، إنها لم تقعد تصلي وتدعو وتبكي لله أن يرفع ما بها من بلاء ويرزقها أحسن الرزق من أوسع الأبواب، وإنما إلى جانب كل هذا السعي الدؤوب الذي يعجز عنه الرجال، السعي في طلب الرزق كي نتعلم كيف يكون حسن التوكل على الوكيل، إنه توجه كامل القلب إلى الله مع العمل المتواصل وترك النتيجة كلها عليه سبحانه، ويأتينا الدرس الرباني.. "اسعَي كما يجب أن يكون السعي فسيأتيك رزقي من حيث لا تحتسب، فقط عليك السعي، وعلينا نحن التوفيق حين تنقطع كل الأسباب، وتتعلق بمسبب الأسباب جميعًا".

ربما تعمل في اتِّجاه ويأتيك النجاح في اتِّجاه مخالف تمامًا، لكن ذلك لا يعفيك من العمل والمثابرة، فذلك هو حسن التوكل، يريد الحبيب المصطفى ﷺ الهجرة إلى الطائف ويفعل فيكافأه الله بالمدينة المنورة، ويريد أن يدعو أهل الطائف فيُقيِّض الله له الجن ليستمعوا القرآن ويؤمنوا به، وهكذا نريد وإرادة الله هي النافذة لكن لابد من السعي والعمل، تسعى جدتنا بين الصفا والمروة باحثة عن شيء، عن أحد، تسعى مرة واثنتين وثلاثًا، حتى سبعَ مرات لتسير سبعة أشواط، ولم العودة؟ ولم إعادة الكرة؟ إنها فعلت ما عليها فعلًا وصعدت بين جبلين مرة؟ مرتين؟ ثلاثًا؟ أي رجل في العالم وأي عقل سوف يتهم نفسه إذا فعلها أكثر من هذا، علام تبحث؟ إنها لن ترى جديدًا إذا عاودت، وهذا هو الدرس فطالما أنه بقي لديها أنفاس، وطالما أنها بقيت لديها قدرة فلم تفعل ما عليها بعد، متى تشعر أنك قد فعلت ما عليك، وأنه يجب أن تنتظر فرج الله؟ هذا في حالة واحدة يوجهنا إليها مولانا في كتابه العزيز في سورة النمل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢] ويقول ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة: ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وهكذا قال هاهنا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي: من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه، وقال وهب بن منبه: قرأت في الكتاب الأول: إن الله يقول: بعزتي، إنه من اعْتصم بي فإن كادته السموات ومن فيهن، والأرض بمن فيها؛ فإني أجعل له من بين ذلك مخرجًا، ومن لم يعتصم بي فإني أخسف به من تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء، فأكله إلى نفسه" ليس مجرد حركة جسدية، وإنما ليتعلم العالم كيف يكون التوكل الحق، تسعى بعيدًا بين جبلين لينبع الماء من تحت أرجل الوليد، وقد يسأل سائل ولماذا لم ينبع الماء مباشرة دون أن تتكبد تلك الآلام؟ ألم يكفِها ما عانته؟ إنها المدرسة النبوية التي يجب أن تدفع الثمن كاملًا حتى نتعلم.

ينبع الماء وتكون زمزم، صبرت وبذلت وتوكلت وأحسنت الظن فكانت النتيجة عين ماء تروي الحجيج إلى يوم القيامة، ويكون ماء اليقين والذي نبع نتيجة يقينها في الله، ويكون ماء زمزم لِمَا شرب له تكريمًا لامرأة آمنت بالله، وتأتيها القبائل العربية ليعيشوا على مائها ويتربَّى وليدها ويتلقى اللغة العربية على يد أصحابها، وتنشأ مدينة مكة ببركة بيت النبوة.

ويأتينا الدرس الثالث: التسليم المطلق لله ٥، يعود الأب الذي غاب كثيرًا؛ ليجد ابنه وقد صار فتى يانعًا تسر له العين ويبش له القلب، فيجد ابنه وقد توَّجه الإيمان الذي ربته عليه أمه، يعود لا ليكافئ الأم التي صبرت واحْتسبت ويعوض ابنه عن تلك الأيام التي عاشها بدونه؛ وإنما لأمر جلل، إنه قد عاد ليذبح ابنه، ويأتيها إبليس اللعين، أدركي ابنك يا هاجر، لقد جن إبراهيم، إنه سيقتل ابنك، فتكون المفاجأة الكبرى، تقوم المرأة لترجم إبليس اللعين وتسلم ابنها لأبيه ليذبحه، وليتحول فعلٌ فعلَتْه للمرة الثانية إلى شعيرة من شعائر الحج وهي الرجم، يؤديها الحجيج كذلك كل عام تكريمًا من الله إلى تلك المرأة العجيبة، ويظهر حسن تربيتها الرائعة لابنها حين يقول بمنتهى التسليم: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

تلك هي مجموعة الدروس الرائعة التي عشناها وتعلمناها من جدتنا الحبيبة في تلك الأيام المباركة عسى أن تكون معينًا لنا على حسن الفهم وحسن الطاعة، وهو وليٌّ ذلك وعليه قدير.

سوف يأتي يوم نمتلك فيه حرية تجفيف الدموع،
أما اليوم فلنا مع الأحزان شأن آخر،
لا وقت لها حتى نفرغ من مهامنا الإنسانية.



قلب في الزنزانة رقم (٧)

اخْتطف زوجها وحبيبها من الشارع، ولم تعرف أين هو، وماذا فعلوا معه؟، كانت كأم تاه منها ابنها، كانت كحبيبة لم تهنأ بعد بحبيبها الذي ضاع منها توًّا، كانت كالأرملة الثكلى اليتيمة، اجْتمعت عليها كل الأوجاع، وكانت تلك الليلة هي الليلة الأولى له ولها (اعتقال) أسميتكِ في أحاديثي غزة..فتلك هي حبيبتكِ، وحبيبتي، فآثرت أن أناديكِ بحبيبتنا معًا.

تلك هي الليلة الأولى التي ينام فيها أحدنا ولا يعلم عن الآخر شيئًا، لا أعلم أين أنت؟ كيف تنام؟ كيف يغمض لك جفن؟ هل تتألم؟ هل أتى بك الحنين إليَّ؟ هل تناولت طعامًا؟ هل شربت الماء الذي تحب الإكثار منه؟ هل شعرت ببرد؟ كيف؟ وهل؟ وماذا يا أنا؟ لماذا طعم الماء مرٌّ؟ لماذا فرغت الحياة فجأة، وصارت وكأنها ليست حياة؟ كيف يطيب العيش فيها وأنا بغير روح؟ هل تشتاق لي مثلما لك أشتاق؟ هل أنت غريب مثلما أنا في بعدك عني؟ تلك ليست مجرد ليلة، إنها جبال ثقيلة ليست كجبال الدنيا تمر على صدري جاثمة لا أستطيع منها فكاكًا.

إنها تجربة العمر والقهر والضنك والخوف متجسدًا في ظلام لست تضيئه بكلمة منك، إنها اخْتبار مؤلم لقدرة كلينا على الصمود في غياب الروح، هل يصمد ذلك الجسد بغياب روحه؟ تعرف.. كنت أحسب أن أنفاس العالم سوف تتوقف، كنت أظن أن الساعات كلها لن تمضي في مسيرتها الأبدية،

وتأبى إلا أن تتوقف عند لحظة كنت فيها معي، كنت أرجو ألا يمضي الليل إلا وأنت في رحاب قلبي حاضرًا بصوتك وهمسك وغضبك وابتسامتك وصمتك وكلامك كنت أدعو الله في ملكوته ألا تغيب في ليلي، وألا يأتي الصبح إلا وقد أصبحت حاضرًا ليطرب سمعي بصوتك، تمر الدقائق.. مريرة، فارغة، هائمة، حزينة، وحيدة، موحشة، ما بك أيها الوطن تحرمنا من حياتنا وقد وهبناها لك! أما آن لهذا الليل أن ينقضي؟ كيف أنت يا عمر العمر بأكمله! كنت أغضبك وأعلم أنني لن أخرج من رحابك... لن أستطيع.

ذلك الجسد المتهالك الآن في حاجة إليك كي يقدر على الصمود، كنت أغضبك وأستمد منك القوة على البقاء، أغضبك وأعلم أنك معي بقلبك النابض وروحك الحاضرة التي لا تغيب، أغضبك وأعلم أننا في رحاب واحد يضمنا شوق وحب وحنين، تضمنا روح واحدة تجبر أحدنا ألا يغيب ولا يبتعد عن الآخر، كنت أغضبك وأعلم أنني عائدة، وأعلم أنك ستعلم من نبرات صوتي أنني أبدًا لن أغيب، كنت أغضبك وأعلم أن تلك الروح التي تحوينا لن تسمح لنا أبدًا بالاغتراب.

جسدي يعتصر دموعًا وألمًا.. نهرًا لا أستطيع إيقافه، هل يأتي لذلك الليل نهار؟ هل يأتي النهار؟ يبدو أنه ليل بغير نهار، يبدو أن حياتي ستصير ليلًا من الآن! تلك نجوم ما قبيل الفجر..باهتة، باكية، أنت كنت حبيبها مثلما كنت لي.. أنت منها، وهي منك، ليالٍ كثيرة كنت أتساءل وأنتظر جوابًا.. أيكما النجم، وأيكما الإنسان؟ إنسانيتك علت فصرت قريبًا من الملائكة، ونجوميتك غلبت فصرت أكثر نورًا من النجوم، أتذكر؟ كنت أسألك.. لِمَ أنت اليوم أكثر جمالًا من ذي قبل؟

وكنت تقول لي بل منكِ أقتبس كل معاني الجمال، أكنا من الجنة جزءًا هبط إلى الأرض ليعلم أهلها كيف يكون الحب؟ أكنا من ملكوت آخر في خلق الله أتِي بنا هنا كي نذوق مزيدًا من اللوعة فيعلم أحدنا قدر الآخر؟ أكنا هنا؟ أم كنا هناك جزءًا من الأزل؟ تبكيك نجوم السماء..لكن ما بهتني وأوجعني..هو كيف تسير الحياة بدونك، كيف تجرؤ الشمس على الشروق؛ فتشرق.

شمس تلك أم قطعة نار ملتهبة خرجت من قلبي توًّا ألمًا عليك لا، إنها قلبي ذاته، خرج ليحرق الأرض بمن عليها وجعًا، لولاك أنت عليها لأحرق العالم غضبًا.. كيف أنت الآن يا عمر العمر؟ أتى صباح الدنيا ولم يشرق صباحي بعد! صباحي هو سماع صوتك: صباح الخير حبيبتي، كيف أصبحتِ؟ كيف حالكِ؟ لم يأتِ صباحي، ولم تشرق شمسي، ولم يغرد بيتي، انتظرت..ولم أفتح عيني، رأيتكِ في نومي آتيًا.. كانت روحك تلك تناديني وتؤنس وحدتي وأنت بعيد، يبدو أنك أرسلتها توًّا تناديني..نعم يا حبيب أسمعك، سمعت نداءاتك كلها، وأيقظتني لكني لم أشأ أن أفتح عيني حتى لا تغيب عن ناظري، وجدتني وأنا مغمضة أراقب هاتفي عله يضيء باسمك كما كان كل صباح حين تخرج لعملك، لكنه ليس صباحي..ليست شمسي، ليس يومي، فيومي حين تعود..

يومي حين يسمع ذلك الجسد صوتك.. صباح الخير حبيبتي، ليس ذلك يومي، فكيف أنت يا حبيب؟ كيف أنت الآن؟ حتى صفحتي الخالية الآن من اسمك.. هرولت إليها علّني أجد من يحبك فأحدثه عنك، ما أطيب الحديث عنك!

ما أروع اسمك حين تنطقه حروفي!ما أجمل سيرتك حين أسمعها من غيري! آتية شوقًا وطربًا وفخرًا بك، أكتب بك، قلتها لي ذلك اليوم: أنتِ تكتبين بي، والآن أنا أحيا بك، لم أرد الحياة مثلما أردتها اليوم، أريدها لأنتظرك بها، أريد عمرًا على عمري كي أفنيه فيك، لم أرده كما أردته اليوم، عمري يا عمر العمر، أتعلم..بكيتك كثيرًا، وابتسمت لك كثيرًا، لكنه لم يكن بكاءًا كالبكاء، ولا ابتسامًا ككل مرة.

كان حالة من الذهول..أحكي لك، واحكي عنك، حالة من السكون، لا أنا حية ولا أنا ميتة، حالة جمود الانتظار، توقف كل شيء حتى تعود.. توقفت الحياة، حين حدثتهم عنك ووجدت الحزن يتملكهم عليك، فرحت، ابتسمت، أحببتهم لحبهم لك، أحببت كل من أحبوك وغضبوا من أجلك وحزنوا لبعدك مثلي، تمنيت لو أقبل أقدامهم التماسًا لرائحتك لديهم، تمنيت لو أقبل أيديهم حتى يتحركوا من أجلك، وددت لو حملت كل الألم ووزعته على كل البشر ليحزنوا ويغضبوا من أجلك.

سأنتظر في ذلك الظلام حتى تأتي فيأتي صباحي، لكنني لن أسكن، ولن أصمت، سأملأ الدنيا غضبًا، حتى لو اضْطررت لتحرير العالم من أجلك، لن أستسلم حتى تعود؛ فتعيد الحياة للأحياء.

تعرف..الساعة الآن الواحدة ظهرًا، لم أستطع أن أقرب الماء، أنت تحبه. يحبه الحبيب ولست أدري إن كان معه الآن أو هو محروم منه، أردت أن أقوم بحبس نفسي في غرفتي وأطفئ أنوارها الزائفة وأنتظرك في ظلام كالذي يكتنف قلبي الآن، كي أكون مثلك.. حبيبة بلادي التي تسلبنا أروع ما فينا، لكنني آثرت الخروج علّني أبحث لك عن مخرج يعيدك إلينا، إلى صدر حبيبتك وجسدها المتحرق إليك شوقًا ولحياته التي يستقيها منك حنينًا.

خرجت هائمة على وجهي؛ أبحث عمن يحبونك أحدثهم عنك، وأسمع منهم أحاديثهم عنك.. فكما قلت لك: ما أطيب الحديث عنك!



من الجميل أن نجد من نكتب لهم،
ومن الرائع أن نجد من نكتب عنهم،
ومن رحمة الله أن نجد من نكتب بهم.



حواء في غاية العبودية لله

كثيرون أتوا إلى الحياة ومضوا دون أن يعلموا لخلقهم سببًا، ولا لبقائهم على وجه الأرض غاية، تمضي بهم الأيام طولًا وعرضًا لتصير مجرد عدد، لا ينتظرون غدًا ولا يؤثر فيهم فوات الأمس، والله الخالق يحدد بنفسه الغاية من الخلق ولا يدعها لاجْتهاد الإنسان الذي تتغير مذاهبه حسب أهوائه إن ترك له الأمر ليقرره.

يقول الله في الآية ٥٦ من سورة الذاريات ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، تلك هي القضية الكبرى والغاية العظمي، ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ العبادة بكل ما تشمله العبودية لله من معني: الخلافة، والإعمار، والبحث، والعدالة، والتراحم، والبناء، والأخلاق، الحرية والتحرير، التعاون، التكامل، العطاء، الحب، السلام، الجهاد، التعبد، الذكر، الخير.

﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ الطفل حين يأتي للحياة وقد أخذ الله عليه ميثاقًا حين كان في عالم الذر ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، الأم التي تتحمل آلام الحمل والميلاد في سبيل إخراج نفس تسبح بحمد ربها، الأب الذي يسعى رفقًا بعائلته فيتحمل ويتكبد ويشقى في الأرض كي يستريحوا هم ابتغاءً لوجه الله الذي جعل الجميع راعٍ،

والجميع مسئول عن رعيته، الطالب الذي يسهر الليل ليواصل استذكار النهار ولا يُنسيه ذلك الصلاة على وقتها، ورغبة منه في النهوض ببلاده لينهض دينه، الزوجة التي تتفانى حبًّا وإخلاصًا وعطاءً وسهرًا ورعاية وخوفًا وشفقة، ورحمة ورغبة، تتناسى الألم، ولا تذكر إلا الحب ولياليه الدافئة لتعم على الجميع بركة ورضا.

بمعنى أن جملة العبارات المفروضة على الإنسان في العمر بأكمله لا تستهلك من عمره إلا القليل.. فماذا عن بقية العمر؟ هل تلك الغاية الكبرى والمحددة من الخلق يتحكم الخالق سبحانه فيها في جزء قليل من عمر الإنسان، ويدع الباقي له يصلح فيه أو يفسد كيف شاء؟

يقول الله تعالى في كتابه الكريم في سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. هنا لم يترك الله مساحة للإنسان الذي قرر أن يختار بكامل إرادته الحرة أن يكون إلى جنب الله.

لكل دولة أو قبيلة أو حتى أسرة مجموعة من القوانين تضعها لتنظم الحياة فيها، علاقة كل فرد فيها بالآخر، علاقته بالآخرين، علاقته بالمسئول، واجباته وحقوقه، لا تفرض تلك القوانين إلا على أهلها، وأنت تريد الانْتماء لذلك المجتمع الجديد فعليك أولا أن تطلع على قوانينه، ونظمه، وشروطه؛ فإن أنت قبلتها "مختارًا" فلك الدخول فيه والانْخراط بين أهله، وإن رفضت فلك ذلك بكامل حريتك، لكن ليس لك الدخول فيه، أما إن أنت تحايلت للدخول، ثم لمْ تحترم تلك القوانين فسوف يكون مصيرك شر الطرد،

ولله المثل الأعلى، لله ۵ شروطٌ؛ كي تكون من عباده المتقين، وكي تحقق معنى العبودية للمعبود الحق، هو من يضع الشروط والقوانين والشرائع، عليك أن تتبع، وعليه سبحانه أن يكتب لك القبول والفوز في الدنيا والآخرة، وهنا أحب أن آخذ جزءًا صغيرًا من اللوحة الكبيرة في خريطة العبودية لله ۵، وكيف تكتمل تلك العبودية كي تليق بالمعبود الذي لا إله إلا هو وهي اللقطة الأولى في قصة خلق الإنسان.

خلق الله ۵ آدم ﵇ بيده وعلَّمه من علِمه، أسكنه الجنة وتحدَّى به الملائكة، وأسجد الملائكة له، وظل آدم في الجنة وحده إلى أن استوحش، أي أن آدم ﵇ شعر بالوحدة والوحشة رغم أنه لم يعرف مخلوقًا إنسانًا غيره، لا رجلًا ولا امرأة.

أحدنا قد يقرر مثلًا أن يسافر ليقضي بعض الوقت وحده، أو أن يعتزل في بيته لنفس السبب، ثم بعد وقت تهاجم أفكاره صور من يحب من أحبابه وأصدقائه، ثم إذا به يستوحش ما هو به ويحن لتلك الصحبة التي تملأ عليه فراغ حياته، ذلك لأن هناك كيانًا يشتاق إليه، يعرفه جيدًا، عاش معه، تتخلل صوره ذاكرته وتطاردها، تجتاح الذكريات كل ذرة في خلاياه، فهو يستوحش المكان بغيرهم، فسرعان ما يعود، أما آدم ﵇ فاسْتوحش ما لا يعرف، هو شعور بالوحدة دون أن يدري لِمَ، وماذا؟، لكن الله ۵ الخالق المبدع خلق آدم في الأصل لهذا الغرض؛ ليكون مع حواء رجلًا وامرأة لإعمار الأرض، ولتتم التجربة الإنسانية، ذلك المخلوق "المختار المُخير"، يخلقه الله بيده ويكرمه ويسكنه الجنة قبل هبوطه للأرض ليعرف من عدوه،

ويعرف أن الوطن الأصلي له هو الجنة وليس غيرها، فهو على الأرض ضيف ليعود باخْتياره للجنة إن هو أراد.

خلقت حواء من آدم لتكون له سكنًا، ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

ومعنى سكن في لسان العرب: السُّكُونُ ضدّ الحركة، سَكَنَ الشيءُ يَسْكُنُ سُكونًا إذا ذهبت حركته وأَسْكَنه هو وسَكَّنه غيره تَسْكينًا، وكل ما هَدَأَ فقد سَكَن كالريح والحَرّ والبرد ونحو ذلك، وسَكَنَ الرجل سكت، وقيل سَكَن في معنى سكت، وسَكَنتِ الريح وسَكَن المطر وسَكَن الغضب.

فهو يلجأ إليها من غربة، ويهدأ معها بعد حركة، ويستريح إليها بعد شقاء وعناء، قد يتساءل البعض وما علاقة ذلك بموضوعنا عن العبودية لله والغاية من خلق الإنسان؛ في حين أنه لب الموضوع، إن الله ۵ لم يخلقنا ليعذبنا، ولم يخلقنا لنكون وحيدين في هذا الكون، بدليل خلق من كل زوجين اثنين، رجل وامرأة، ذكر وأنثي، سالب وموجب، بقدرة الله ۵ كان من الممكن أن يكون التكاثر بشكل مختلف، وأن يكون المخلوق موحد النوع، وإنما شاءت إرادته أن يكون ذكرًا وأنثي، يكون أحدهما للآخر إما سعادة وإما فتنة، إما سببًا للنجاة أو سببًا للهلاك، إما نعيمًا مقيمًا في الدنيا والآخرة، وإما عذابًا مقيمًا في الدنيا والآخرة كذلك.

أرادت المشيئة الإلهية أن يضع في فطرة آدم احتياجًا لها فيخلقها منه، جزء ينتمي إليه، فاسْتوحش شيئًا في نفسه لا يدركه، فخلق الله ﷻ له حواء؛ لتكون له سكنًا،

يعود لرحابها، ويأوي لصدرها، ويسكن لقلبها، ويتسعين بروحها فيصبر على آلام الحياة والمشقة في الأرض والسعي فيها وبنائها وتعميرها، يتحمل ويكد ويبذل من أجلها، ثم هو يرغب فيها ويعود مختارًا لذلك الحضن الدافئ الذي يضم ويسعى ويُعطي ليكون سكنًا وملاذًا لذلك العائد المكدود.

وكما نوهنا من قبل؛ العبادة ليست دقائق نقضيها في بضعة ركعات يومية أو صيام أيام معدودة في العام أو حج مرة واحدة في العمر؛ إنما جعل الله ﷻ حياة الإنسان كلها له، وجعل لكل منا غاية ورسالة وهدفًا ووسائل، كلٌّ على حدة ليحيل حياته كلها لله، وجعل المهمة الأولى للمرأة هي تلك السكينة التي تضفيها على زوجها الذي هو إما جنتها أو نارها، وحين أنظر لحال الأسر المسلمة اليوم أرثي لها أيَّما رثاء، فليس هذا ما أراده الله ﷻ لها، وبرغم الهموم، وبرغم كثرة ما يشغل أسرنا اليوم، من هموم تخص الأمة يدفع ثمنها كل فرد فينا؛ إلا أن هناك مساحة واسعة يجب أن تحياها بيوتنا تمثل تلك المساحة لب العبادة بالنسبة للزوجة، هي كما أراد الله ﷻ منها، سكن، والسكن تشمل كل ما يسعد زوجها، ومنه مشاركته اهتماماته وهمومه وقضاياه، وترتيب الحياة بما يتوافق مع تلك الغاية التماسًا لمرضاة الله ﷻ، لا يقلل ذلك من شأنها كإنسانة حرة شيئًا، لها أن تفعل ما لا يتعارض مع رغباتها في التفوق والنجاح والعمل شرط ألا يخرجها ذلك من دائرة الهدف الكبير.

ولقد أثار انتباهي أمرٌ في كلمة "روح"، وكلٌّ من الزوج والزوجة مطلوب منهما البذل لإنجاح السعي لتلك الغاية، كلاهما عليه واجبٌ يبذله، كل منهما عليه نقطة يقدمها لتتحول كلمة "روح" إلى "زوج" فيصير الزوج هو الروح، الزوج هو الحياة، هو الحصن، هو الأمان، هو الفخر، هو الري والعطاء، منه البدء، وإليه المنتهى، هو العودة، هو زوال كل وحشة وغربة، حين يكون هو.. يكون الوطن، وحيث يكون هنا.. يكون الرجوع.

فهي حين تفتح ذراعيها لاسْتقباله على باب البيت الحبيب، إنما تفتح له أبواب الدنيا كلها لتحتضنه، تخفف عنه، تحمل عنه همومه وأتراحه قبل أن تحمل عنه ما يحمله في يده إليها، حين تضمه تذوب في ضمتها كل الثلوج، وكل الغضب، ويشتعل الحنين، وتعلو الوجه ابتسامة الرضا، وتزول الأمراض وتهرب الشياطين، حين تضمه.. يعود إليها طفلًا بريئًا عائدًا لحضن أمه ملتمسًا لديها كل معاني الخير، فالأم لا تمثل في الوجود إلا كل خير، حين تضمه وتربت على ظهره وتنظر لعينيه ستجد رجلها الذي طالما حلمت به وتمنَّته، هو لها كل الرجال، وهي له كل النساء، به تفخر، وعنده تهدأ، وله تستكين.

حين تضمه تصير له الحبيبة العاشقة، والزوجة المخلصة، والأم الحنون، والمرأة التي يردها الله ﷻ أن تكون، حين تضمه تنمحي كل المعاني السلبية في البيت ليصير موطن الملائكة، حب، ودفء وعطاء بغير حدود، حين تضمه لا تشعر أنها تعطي، بقدر ما تشعر أنها تأخذ، فالحب حين تعطيه تأخذ بالمقابل أضعاف ما تمنح دون أن تدري، تلك هي ضمة واحدة على الباب،

فما بالنا بضمات عديدة، وابْتسامات مستديمة، وتعبير عن الحب لا يفتر، واهتمام بمواعيد الراحة والعمل لا يلين، ودفع في طريق النجاح كأنه نجاح لها، ما بالنا لو استقامت بيوتنا على ذلك الفهم فكيف يكون حالها؟

وحديثي عامة أقدمه للمرأة، فهي من أمثل، وهي من أوجه لها رسالتي، أنتِ أيتها الحبيبة من تقدرين على إدارة الحب في المتجمع، أنتِ صاحبته وملهمته، أنتِ من تملكين مفاتيح مدائنه، أنتِ بقلبكِ ملكة بلاد الحب، متوجة عليها، فإما أن تكوني ملكةً عادلةً فتهبين مما تملكين لرعيتك التي أنت مسئولة عنها، وإما أن تكوني ملكة ظالمة، تسألين عمن ظلمتيهم ممن تعولين، أنتِ من جعل الله ﷻ سورة باسمك في سور القرآن الكريم، وأنت من جعل الله من يكرمك كريمًا، ومن يهينك لئيمًا، أنت رمز مروءة الرجال، ورمز تقدم الأوطان، فبقدر مراعاة حقوقك، وبقدر إحسان معاملتكِ تقاس الحضارات.

أنتِ من تتحملين الحمل والميلاد والإرضاع بقدرة وهبها الله ﷻ إياكِ، ثم لا تزيدك تلك الآلام كلها إلا قوة وتعلقًا بأبنائك وأحبابك، أنت من خلقك الله من الرجل، وهو كائن حي، وليس من تراب مباشر كما خلق آدم، خلقك ليسكن إليك، ويقدر على الشقاء في الأرض بك، أنتِ أول من أسلمتِ لله وركعتِ وسجدتِ لله بعد النبي محمد ﷺ، متمثلة في أمك خديجة ل، أنت من جعل الجنة تحت أقدامكِ وأنتِ أم، وخفف عنكِ عبادات وأنت متعبة تعب قسري شهريًّا أو في كل ميلاد، أنتِ من أكرمكِ فجعل الشقاء على الرجل في الأرض دونكِ ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [طه: ١١٧]،

يخرج الاثنان من الجنة، فيشقى آدم سعيًا على رزق زوجه وهي المكرمة في بيته لا يُصيبها تعب ولا نصب.

أنتِ من جعل تعاملك مع رجل واحد ليصونك فتُحفظي من كل الرجال، كل هذا لكِ، في سبيل إعانة زوجكِ على إتمام مهمته في الحياة؛ لتصير تلك مهمتك في الحياة، وتلك غاية الخلق منكِ أيتها الغالية، كوني له؛ فيكون.. ويكون.. ويكون، لا تنسيكِ هموم الدنيا همكِ الأول، لا يُنسينكِ الطغاة والمرابون بك والمتاجرون قضيتك الأولى، لا يُنسينكِ الغرور ما خلقك الله ﷿ له، أنتِ سكن؛ فكوني كما أرادكِ الله ﷿ إن شئتِ بإرادتك الحرة أن تكونِ من أهل جنته.



وكأنهم نحن،

وكأنهم منا ، ونحن منهم،

وكأنهم حين تناديهم يحتار لسانك،

هل تناديهم باسمهم وهو الأحب إليك؟

أم تناديهم باسمك وتلك الحقيقة التي تشعرها ؟



عدت يا بيتي الحبيب

لم تتوانَ يومًا ولم تُكسل عن الخروج في سبيل دعوتها منذ كانت طالبة في بيت أبيها، خرجت في مظاهرات الجامعة، وارتادت المساجد، وحفظت كتاب الله ﷻ، وقرأت السيرة النبوية وحفظتها عن ظهر قلب، ثم سيرة أمهات المؤمنين لتصبح بها خبيرة، حضرت المؤتمرات وسافرت خصيصًا كي تحصل على الدورات المتخصصة في التواصل مع الآخرين في سبيل أن ترقى بنفسها لخدمة دعوتها، ثم حين طرق الزواج باب والدها طالبًا إياها لحسن خلقها وتدينها، أبَتْ إلا أن ترتبط بإنسان على نفس الطريق، وله نفس الفهم ونفس الطريق ونفس العزيمة، ولصدق نواياها وتوجهاتها رزقها الله ٥ بالزوج الصالح الذي طالما تمناه والدها لها، زوج يتقي الله فيها، يعرف حدود دين ربه، إن أحبها أكرمها وإن كرهها لم يظلمها.

واليوم، أصبحت زوجة لهذا الداعية تحمل نفس الفكر ونفس الهم ونفس الروح ونفس الحمية، أحبته كثيرًا ووقفت خلفه تحثه على العطاء المتواصل، لم تحمله الكثير ولم تطلب منه ما لا يطيق، تحملت غيابه لفترات طويلة في سبيل دعوته، وتحملت عناء التضييق في لقمة العيش بسبب اضطهاده في عمله، ليس هذا فقط، وإنما خرجت هي الأخرى، في سبيل نفس الفكرة ونفس الهدف، جابت المساجد وكانت صاحبة لسان عذب وأسلوب رقيق جذاب، جمعت حولها قلوب التائبات ومشكلات المتعثرات، حتى امتلأ وقتها بهموم لا تنتهي ومهام تستغرق سنوات وعمر فوق عمرها..

خرجت في سبيل الله ﷻ لكنها ابتعدت كثيرًا، كثيرًا عن بيتها.. يعود نهارًا فلا يجدها، يعود ليلًا فتكون المنهكة المتعبة التي لا تستطيع أن تؤدي له واجبًا، يريد الحديث معها فيجدها مشغولة بالرد على الهاتف في مشكلة أو عمل أو استشارة، ابتعدت كثيرًا عنه، ورغمًا عنها لم تدرك أن الخيوط بدأت تنقطع من بين أيديها.

الأولاد كل واحد منهم يحمل همًّا ويغلق عليه بابًا لا يعرف الباقون عنه شيئًا، يحمل همه ليبثه على صفحات الفيس بوك، والهاتف المحمول مع صديق أو قريب، وجبات الطعام الدافئة التي كانت تجمعهم في فترات الأجازات المشتركة تقلصت شيئًا فشيئًا، فالوقت لم يعد في الإمكان التحكم فيه من كثرة المهام والانشغالات، ابتعد الجميع على التوالي بعد اجتماع عمود البيت وأمانه، تلك الأم الحانية التي طالما احْتوت واسْتمعت وضمت وعالجت وسهرت وذاكرت ومدت أيادي المساعدة بلا سؤال عن مقابل أو انتظار له، وتلك الزوجة الرائعة التي ساندت وأحبت وأعطت وكانت معينًا لا يمكن الاستغناء عنه ودفئًا يمد الجميع بما يحتاجونه من الدفء وما يطلبونه من الحب والحنان.

غابت فغاب كل شيء جميل في البيت الذي يجمع كل الأطراف ليصبحوا رواد غرف يرتادونها وقت الحاجة للنوم أو الراحة أو الطعام، وتلمس الجليد طريقه إلى ذلك البيت الدافئ يومًا، وعلت فيه الأصوات التي ما علت يومًا إلا بالضحكات واللعب، ارتفع الصوت إما بالشكوى أو التبرم أو لطلب حق غاب عند أصحاب الحقوق، فتتغير الأولويات وتضيع الرؤية فيصبح الواجب ثقيلًا والمندوب واجبًا،

والفريضة مستغربة ومستنكرة، تضيع أغلى المعاني التي تجمع أفراد أسرة واحدة وسط اهتماماتٍ لا ينكرها أحد، وإنما فقط هو ترتيب أولويات وفهم صحيح للحقوق والواجبات، ويقظة مستمرة تحدد المسار الصحيح وتحمي من أي انحراف أو تجاوز أو تقصير بمرور الوقت، وبرغم سمو الهدف؛ إلا أن الوسائل انْحرفت بنا عن المسار الصحيح، وترمومتر الاستشعار لم يعد يميز بين الأولى والأولى منه.

أصبحت عصبية الزوج ظاهرة لدى الزوجة، الأخت، الأم، ولدى الأبناء الذين ما عهدوا على والديهم ذلك الجو المشحون، أصبحت الكلمات قليلة، جافة، مشحونة بوجوه عابسة، أصبح الصوت حزينًا مهمومًا، والقلب مثقلًا والروح متعطشة ليوم من أيام الدفء الأسري التي كاد الجميع أن ينساها، وبمرور الوقت تزداد الانشغالات الخاصة بالأم خارج البيت وتبعد المسافة بينها وبينهم.

وذات يوم اشتعل الموقف فجأة بينهما؛ بين الحبيبين اللذين جمعتهما الفكرة والحب والهدف والوسيلة، موقف بسيط وانْفجر الزوج الذي يفتقد زوجته الحنون، انْتقد كل ما تفعله وأظهر كرهه وامْتعاضَه من تصرفاتها تجاهه وتجاه أبنائهما، انْتقد خروجها المتكرر في اليوم الواحد، وانْتقد إهمالها لشئونه الخاصة، وانْتقد انْشغالها حتى بالتحاور معه بالتليفونات التي تأخذها منه ولا تنتهي، انْتقد عدم تحريها تنظيم وقتها، وإهمالها واجباتها الأولى على مرتبة أخرى، انتقد فهمها للدين وتفسيرها للاهْتمام بالدعوة على نحو تنسى فيه أنها زوجة وأم مسئولة في المقام الأول عن هؤلاء وراعية لهم، ومن كثرة الاتْهامات زاغ بصرها ودارت بها الأرض وهي التي تحسب أنها الموفقة في حياتها كل التوفيق.

ظنت أنه من الواجب عليه هو أن يوفر لها ذلك الوقت الذي تؤدي فيه تلك الأعمال المنوط بها إنهاؤها كل يوم، حسبت أنه هو الذي يُسيء إليها بعدم تحمله المسئولية معها، وعدم دفعه لها لتُكمل الطريق على خير وجه حتى ولو كانت ستبذل كل وقتها في سبيله، كانت تحسب أنه يجب عليه أن يتنازل عن كل حقوقه عندها وهو سعيد بهذا التنازل، إذ كيف يطلب منها حقوقًا وهُمَا معًا على نفس الطريق الذي سارا فيه سويًّا دون اتفاقٍ مكتوب أو منطوق بينهما، وإنما عن تراض وسعادة لهما معًا، ليس هذا فقط، ليس مجرد توجيه انتقادٍ وإنما تخيير صريح بين ما تقوم به من شغل كل وقتها للدعوة أو أن تنظم واجباتها ووقتها فلا يتعارض كل هذا مع واجباتها كزوجة وأم وراعية في بيت زوجها، دارت بها الأرض وتذكرت كيف بدأت حياتها مع زوجها الحبيب؟ وكيف أنها كانت في قمة السعادة رغم ما كان يمر بهما من مشكلات وعراقيل مادية وأمنية، كيف أنها اختارته هو دون غيره لحبه لدينه وحفاظه عليه ولحسن خلقه وتمسكه بمبادئ شريعة الله ﷻ، تذكرت كيف أحبته وتعلقت به وذابت فيه، تذكرت كيف كانت سعادتهما معًا بأول مولود لهما، وكيف كانت الهموم المشتركة وكيف تغلبا عليها معًا، تذكرت كيف يرتبط مصيرها بمصيره، فلو مرض فهي السهرانة المتعبة ولو غاب فهي القلقة المنتظرة، ولو تألم فالجرح عندها، فكيف بعد كل هذا يصل بها الأمر إلى أن يصير كل منهما غريبًا عن الآخر، كيف اضطرته وهو الزوج الذي جعله الله ﷿ إما جنة أو نارًا أن يطالبها بحقوقه وهي التي كانت تسارع في تلبيتها حتى قبل أن يطلبها.

كيف تضطره أن يقول لها بمنتهى الود والحب: أريدك، بينما هي تتبرم وتمتعض وتسوف حتى يمل من الطلب فيسكت مرغمًا، وبينما هي وحيدة يمر بذاكرتها شريط حياة طالما حلمت به وهي ما زالت فتاة صغيرة في بيت والدها الذي يضمها الآن بين جدرانه تتذكر كل الأحداث الصغيرة والكبيرة لتقارن بين ما كانت تحلم به وتتمناه وما قامت به فعلًا من تضييع للأمانة التي آمنت يومًا أنها هبة من الله ٥، وأنها مسئولة أمامه سبحانه عن رعايتها بما لا يتعارض مع حمل دعوة الله ﷻ وأمانته، وبما لا يخل في واجبها تجاه كل قضية منهم، وهبَّت واقفة لتلملم حاجياتها بحسن فهم لتعود مسرعة إلى رحاب بيتها وجنة زوجها.

وكأن مقاييس الزمان تغيرت، لم تعد ساعات تمرّ،

بقدر ما هي أحداث وصحبة.

الآن، أنت مع من؟

أو في انتظار من؟

الآن، صار الشعور بالزمن ليس الأمس واليوم والغد.

وإنما صار، أنت الآن هنا،

أو أنت الآن هناك.



جسد حر..

أعرف جيدًا إرهاق النفوس حين يستحثها صاحبها لتعلو رغمًا عنها؛ لتسبح في جنبات السماء، فترتع حيث ترتع الأرواح فيصير الإنسان متناغمًا سالمًا مع ذاته، سمعت عن كثيرين حاولوا أن ينهضوا بتلك الأنفس، فلانت معهم تارة وأبت مرات، ومنهم من استطاع ترويضها لتصير كما يريد وقتما يريد.. وهناك نفوس طيبة، سامية، ولست أقصد سموها عن رغبات الناس الاعْتيادية، وإنما هي من تتحكم بتلك الرغبات وتصطحبها معها إلى حيث ذلك السمو، وإلى ذلك الرحاب الواسع في سماوات العفاف، تسمو الرغبات الإنسانية معهم لتصير إنسانية ملائكية، تختار الركون إلى جانب الروح التي أتت من الجنة حيث خلق الإنسان وأصله وموطنه.

سمعت عن عجائب تحدث حين تسمو الروح والنفس بصاحبها، فيصبح ذا رؤى ثاقبة، يرى بنور الله ﷻ الذي اخْتار جواره، يسير لله وبالله ﷻ، لكنني حقيقة لم أسمع عن جسد يسمو وكأنه روح، جسد يحلق وكأنه نفسٍ تعلقت بملكوت العلا، جسد ذاب مع الشمس فصار مضيئًا، وسار في مدار القمر فصار يحمل هدوءه وخفوت نوره ولون بريقه، جسد لم يتخلَ عن صفاته البشرية، ولم ينسَ الجنة.. موطنه الأول، فتصرف بسمو ذلك الموطن، جسد يتخلى ويتحلى ويحل، كالروح تتخلى عن الدنايا في مقابل نور السموات والأرض المستمد من نور الله ﷻ الواحد الأحد،

ويتحلى بأسمى الصفات التي يمكن أن يُحلى بها كائن حي، مُسبح، ذاكر، مُفكر، باحث، مُتأمل، سائح، هادئ، مُتحرك، ثائر، يبني كل ما هو خير، ويهدم كل ما يمثل الباطل، ثم هو يحل بعظمته في جسد آخر ليصيرا معًا نحو السماء.



كثيرًا ما نبحث عن أنفسنا..

غرباء، وحيدون،

ثم نكتشف في النهاية أننا ابتعدنا كثيرًا..

ابحثوا عنها بداخلكم..

قبل ضياعها للأبد.



وسقطت الثمار مختارة

مهمة الموت انتحارًا

..وتباعدت بنا الأيام كثيرًا عن كل ما رجوناه يومًا، خيالات الطفولة وأحلام "حين نكبر"، أحلام الصبا وكيف أن الغد يشمل تحقيق كل الأمنيات مقدمة بين يدي، الممكن والمتاح والمباح، محمولة إلينا على أجنحة السعادة، ثم يأتي الشباب لتبدأ معه كل المحاولات حثيثة نحو كل الأهداف، السباحة ضد كل التيارات، والحفر في الصخر، والجري ضد الريح العاصف، فيمضي كل ما سبق دون أن تدري أي المعوقات كان السبب في قتل حلمك، يضعف القلب، ويغزو الشيب المفارق، وتخفت أضواء الأمنيات كلها، لتصير كل أمنيتك أن تعبر متاهات المستحيل حتى ولو بالموت، فيصير الموت أمنية.

ألهث وأمسك بقلبي أعتصره ليكف عن ضرباته المتلاحقة والمؤلمة في بعض الوقت، ولا يوقفني ذلك عن إطلاق الضحكات البريئة الصاخبة، أرتمي على الأرض من شدة الإعياء من سرعة الجري وطول المسافة والضحك المتواصل، كلهم من حولي في مثل حالتي، أولاد وبنات، نتسابق على أعلى كوبري بالمنطقة، كنت قليلًا ما أسبق أحدًا، لكنني لم أغضب يومًا، ولم تتوقف ضحكاتي.

في المدرسة، كانت الأساطير تستهويني، قضيت فيها الليالي رعبًا، أخبئ رأسي في صدر جدتي، وأغمض عيني خوفًا مما يصوره لي خيالي، وأنكمش حتى أصير ككرة منسية في ركن من أركان الزمان، المدرسة موحشة، صمتها مخيف،

على كل درجة من درجات سلمها العالي شبح يحاول إغرائي بالاقتراب، أما أنا فأقاوم، ليس بصراخ، فقد حبس صوتي، وليس بالهروب وقد شلت قدمي كل مقاومتي كانت تتمثل في إرادة، مجرد إرادة وصوت بداخلي يقنعني بأنني الأقوى، وأن تلك حكايتي، ولي كامل الحق في أن أكون بطلتها التي لا تُهزم، هم كانوا في عالمي، طوع أمري، يحاولون تخويفي بإرادتي، وأنتصر عليهم برغبتي، كل حكاياتي كنت أنسجها بكامل وعيي، ولست أدري لم كنت أستدعي كل هذا قبل نومي، ربما كنت أفعلها لأستدعي النوم ذاته، ويبدو أنه تعلم مجافاتي منذ الصغر، فصار الطريق إلى الراحة يلزمه عبور مفازات الخوف والألم ليلًا، وصارت للحزن لذة، نسيت بها أن ما أستدعيه مجرد وسيلة لاسْتجلاب النوم والراحة، فصار في حد ذاته مطلبًا.

يتأجج الصراع بيني وبينهم، يحاولون جذبي عبر درجات السلم بشكل غريب فلا يقدرون رغم اجتماعهم، فيتحول الصراع بيننا بين إرادة وإرادة، بين قوة جسدي الواهن، وبين قوتهم الغير مرئية، والغير محدودة، وحتى أشعر بلذة أكثر، أنزع عني كل قوة محتملة، وأضيف إليهم كل قوة متاحة، يجذبونني وأقاوم مرة بمساعدة جدتي، ومرة بادّعاء القوة المطلقة، أحاول فيها هزيمتهم بالإيحاء بأنني الأقوى، لكنهم لا ينخدعون، ثم في النهاية أهزمهم بادّعاء الموت، ينصرفون عني، فتكون تلك لحظة الراحة الكبرى، أدَّعي الموت؛ فأترك نفسي له أستسلم تمامًا، ولا أظهر أي حركة ولا يصدر مني صوت يُنبئ عن كوني بين الأحياء، ثم أتحسس جدتي لأطمئن أنها هي أيضًا في سبات حتى لا تؤذيها الأشباح،

وحين أجد منها حركة أقنع نفسي بأنهم لا يستهدفون الكبار، فيحتويني السبات وأستسلم له وتشملني الراحة بعد أن انتصرت توًّا بادّعاء الموت.

حين تكبر أحلامك عن أيامك فسوف تأخذك مرغمة إلى حيث المستقبل قبل الأوان، تكون هنا فقط جسد، مجرد جسد محبوس في الزمن لو استطعت العبور به لفعلت، يمر اليوم وعيناك هناك، وقلبك هناك، وروحك هناك، يكبر فيك الوطن، وتكبر فيك الأشياء، وتحملك الأيام إلى حيث الغد الذي لا يأتي أبدًا.

غدًا، سوف يكون لي شأن أحقق فيه ما أشاء.

غدًا، سوف ألهم الأيام كيف تفكر من جديد تجاه هذا الوطن المكروب بأبنائه.

غدًا، سوف أنتصر بغير الموت هروبًا.

غدًا، سوف تصير بلادي ملاذًا للأحرار.

غدًا، سوف يصير لديَّ أمنيات مُحققة، وأحلامًا أرويها لأبنائي وأبنائهم عن كيف صارت حقيقة في أروقة بلادي.

غدًا، تشرق شمس جديدة لا تحمل معها ظلمًا أو قهرًا أو حرمانًا، تمر الأيام وكل يوم يحمل معه شمس لا تدفئ أحلامًا فتنمو وتكبر بشكل طبيعي، وإنما تحمل نارًا تحرق فنتخلى عنها مرغمين، وفي بعض الأحيان راضين مستسلمين، الأشباح لم تعد تكتفي بالانتظار على سلم المدرسة ليلًا، إنما انتشرت في كل أرجاء بلادي، كنت ألوذ منها في صدر جدتي وأغطية سريري، الآن صارت تطاردني حتى بداخلي، الأشباح لم يعد يجدي معها ادعاء الموت، صعدت درجات كثيرة،

غادرت المدرسة بسذاجتها، وصعدت درجات الجامعة ثم درجات أكثر في رحلة البحث عن تحقيق حلم، أي حلم.

يطويني الليل، أصوات أبواق السيارات توقظ النوم في عيني وتسلب الراحة من قلبي، ترسم ظلالًا مختلفة بأضوائها الخافتة أو الصارخة، تسبح عيني معها على الجدران أينما سارت، تأتي مسرعة وترحل مسرعة لتبدأ من جديد مع ضوء سيارة أخرى، ترسم ظلالًا كالعمر الذي بدأ، ويبدو أنه قرر الرحيل.

ظل قصيرًا، صغيرًا، بطيئًا، يبدو أنه لسيارة متهالكة تصارع الأحداث كي تصل لمبتغاها، سار قلبي معه، حملني إليه، صعدت روحي برفق قبل جسدي، وكانت قد اعتادت أن تفارقني ثم تعود، لكن جسدي الآن أبى إلا أن يصحبها وتسابقا صوب الظل، شعرت بدوار رهيب، دوار روح وليس دوار جسد، كانت الدنيا كلها أرضًا ثابتة، أما هذه المرة.. فلم يكن هناك شيء ثابت، الكون كله يدور، تهاوت روحي في مكان وجسدي في مكان آخر، وظل الزمن يتأرجح بي محاولًا جمع شملهما معًا، وعيني رغم كل ذلك لم تفارق ذلك الظل الراحل.

كنت في الصف الأول الابتدائي حين تهاوت مئذنة الحي، لم أرَ المشهد نفسه، وإنما رأيت آثاره، واستمعت لوصف من شاهدوه عينًا، فكأنني رأيته، كنت أصغي لكل كلمة وأضيف عليها مشاعري فصرت وكأنني شاهدة عيان..شعرت بدوار بينما تتهاوى، شعرت.. وكأن الأرض تغيض بي، تحسست موضع قدمي فلم أجده، رأيتني معهم،

وكأن الحطام كله فوق رأسي، شعرت بحرقة التراب في حلقي، والاختناق يجتاح صدري، والرعب كالثمالة يسري في جسدي بدءًا من قدمي لأجدني أعلو وكأن الرياح تحملني.

رأيتهم بجواري أجسادًا ملقاة تحت الركام، كل منهم ينظر صوب هدف واحد، هو ذات الهدف لنا جميعًا، نظرت معهم، ويا لروعة ما رأيت، إنه طريق ممهد من السحب البيضاء التي يتخللها ضباب أبيض، سمعت من بينه نداء الله ﷻ "يا أيتها النفس المطمئنة" شعرت ببرودة تسري في جسدي، شعرت بملمس السحاب على وجهي، اشْتقت لجدتي، هي أماني، وجوابي على كل سؤال أكبر من قدرتي على الفهم، وهي حكاياتي كلها التي عرفتها وكنت وأسمعها منها كل ليلة، حين رحلت عن العالم، لم ترحل عني، كانت معي دومًا، كانت تناديني فأستجيب وأسرع إليها فتدفعني بعيدًا، وتهمس لي، يكفي أن رأيتك، رأيتها يومًا على مائدة ترتدي ثيابًا بيضاء وكأنها في عرس، كانت فرحة كما لم أرها من قبل، تحتفل بعرس أحد أحفادها لعروس كنت أعرف مسبقًا أنها رحلت، شهدت معهم الحفل ثم دفعتني لأمضي بعيدًا، وفوجئت بعدها برحيل ذلك الحفيد، قضيت في صدرها تقلبات الطفولة كلها، حين كنت أصارع أشباح مدرستي حتى أستطيع النوم، وكأنني أدمنت مذاق الموت وسكينته، سكينة وطمأنينة غريبة سرت بداخلي مع ملمس البرد القادم، سمعت صوت الجنة، رأيتني على أبوابها، عالم أهواه، سكون طالما رحلت إليه بقلبي ليحميني من صخب الأحلام والعجز.

ر

أيـت ابتسـامات القـابعين تحـت تـراب الـدنيا بجـواري تُشجعني على المسير أكثر واكْتشاف عالمي الجديد أكثر.

هذه المرة، رحلت بروحي وجسدي معًا، تدور الأشياء بينما أنا في السماء ثابتة رغم الحركة الصعودية، يا الله، كنت حين أسمع صوت المنادي في المسجد يعلن موت أحد محدِّدًا موعد الجنازة ومكانها؛ يكتنفني الحزن، ليس حزنًا على الميت، وإنما كنت أحسب أن من يناديه الموت يكون بالمسجد، وكنت أحسب أن الله ٥ يتنزل من السماوات ليقبض روحه فيموت، قلت لجدتي يومًا: أتمنى أن أبيت في المسجد، قالت: ولم؟ قلت: لأرى الله ﷻ وهو يميت الميت.

ضحكت من قولي ولم تجبني، ولست أدري لمَ لمْ تصحح لي!، ربما رأت عندي اشتياقًا لرؤية الله ٥ فلم تشأ أن تميت أمنيتي، وظلت نفس الأمنية تراودني في كل مرة أمر فيها بالمسجد، وأتعمد النظر بداخله علني أجد أحدًا منتظرًا لله يميته، كثيرًا ما تقت لذلك إلا في وقت واحد، هو وقت البحر، حين يأخذني بسحره وصوته وأمواجه ورماله، فما كنت أحب أن يأخذني من البحر شيء، كنت أكره كل ما يأخذني منه أو يقتطع من وقته المقدس في رحلتي المنتظمة إليه، وقتها كنت أقول لو جاءني الموت لن أموت، لن يهزمني الموت، ولن أسلم له نفسي، وسأبقى مع البحر حتى يلقنا الأبد في بقائه، والآن، ما أطيبه، رائع هو الموت، ما أروع طريق الجنة عبر تلك السحب البيضاء والبرودة الدافئة.

بين أصحابي على سلم المدرسة الأمامي كنت أروي لهم حكايتي ورحلتي الاستكشافية في عالم البقاء الرحب، قلت لهم: إن المئذنة كانت عالية جدًّا، أعلى من أي مئذنة تعرفونها، وقد رأيت يد الله تطيح بها لتهوي وتبتلعها الأرض كأن لم تكن من قبل.

قلت لهم: لقد حملت المئذنة على رأسي حين ابتلعتني الأرض معها، ومن بين الركام صعدت إلى السماء مع الراحلين، وقد أعادني الله لأحكي لكم عن روعة ما رأيت، كانوا يحيطون بي في سكون الطفولة الشغوفة للمجهول حين تسمعه تحت شمس الشتاء الدافئة، بعضهم كان فاغرًا فاه يشجعني بنظرة التصديق كي أروي المزيد، وأن أطلق لخيالي العنان.

توارى الظل الشاحب البطيء بعيدًا ليوقظني من حلم آخر، حلم الطفولة الراحلة؛ ليصير العمر كله أحلام راحلة، لأعود إلى بلادي التي ملكتها الأشباح، كيف هو الهروب منها، أنَّى لي بجدتي تحميني بحضنها الدافئ، أشباح بلادي ما عاد يغريها سلم المدرسة، وإنما ملكت وتحكمت، سرقت منا النوم الذي كنا نستدعيه حين نريد، سرقت منا العمر وأحلامه كلها، أصبحنا والخوف شركاء، وطن يئن.. وطن يفتقد للجدة، وبراءة الطفولة، ماتت الأحلام فماذا تبقّى منا؟ وماذا تبقّى لنا؟ كثرت سلالم البحث، ولم يعد هناك غيرها لنصعده..سلم واحد هو المتوفر الآن، أراه من بعيد ولا أرى سواه، صوت جدتي لأول مرة يجذبني ولا ينهرني لأبتعد.. حضنها يتسع لي من بين الركام، ابتسامتها الخجولة تنير درب الرحيل، تجذبني

وأشعر بدفئها وأمان صدرها، أشباح الوطن تطاردني، ولن يحميني منها سوى جدتي، تناديني وأسمعها بوضوح:

- قادمة أنا يا غالية.

سلم يحملني للسماء، واجهة كبيرة تحمل شعار موت الوطن.. أقصد يحيا الوطن، هي مبتغاي للخلاص من تلك الأشباح التي طالما طاردتني، حضن الوطن يبرد ويخيف، حضن الوطن امتلكته الأشباح، هو حضن جدتي ليس لي سواه.

- قادمة أنا إليك وداعًا يا وطن الأشباح.



حين تحاصرنا الأحزان...

تصمت الحروف عجزًا عن التعبير

ويتحدث الصمت متجاوزًا حدود كل اللغات.



الستر الحمراء

(١)

حول الفراش الأبيض اجتمعت العائلة بأكملها: القاصي، والداني، الصغير، والكبير؛ كي يطمئنوا على صحة الشيخ المريض، تمتلئ الحجرة عن آخرها بالزائرين ثم تخلو بعد حين لتعود وتمتلئ من جديد داعين لكبيرهم أن ينجيه من ذلك البلاء، وهناك في ركن من أركان الحجرة كانت تجلس "سمية" وحيدته، عيناها تدوران في المكان هنا وهناك بلهفة مقلبة النظر بين المتحدثين؛ عسى أن تستمع إلى كلمة تطمئنها على والدها، بينما الدموع تنهمر من عينيها صامتة، وقلبها يرتجف بمجرد أن تتخيل أن تكون هذه هي اللحظات الأخيرة لذلك الأب الطيب!.

إنها لا تتصور أن تحيا يومًا بدونه، لقد كان لها كل شيء.. إنه الأب الحاني، والعقل الواعي المفكر، والرجل الفاضل الذي يشار إليه بالبنان، يجلّه الجميع ويحترمونه، كان لها العين التي ترى من خلالها الدنيا فهي لا تعرف بالخارج أي شيء عن أي شيء إلا من خلاله هو ومن ثقافته هو ومن تجاربه هو، بل إنها لم تقرأ كتابًا أو مجلة في حياتها إلا إذا أشار عليها هو بذلك، لا تثق بإنسان إلا إذا أعطاها إشارة الأمان، لا تستطيع أن تسافر لزيارة أعمامها بالريف إلا بصحبته، ليس لأنها لا تعرف الطريق ولكن لأنها لا تشعر بقيمتها كإنسان إلا وهي بجواره، تحب ما يحب وتعادي من يكره..

ذلك الإنسان الذي يرقد أمامها الآن ولا يكاد يدري شيئًا عن العالم من حوله.. طالما علمها كيف تتمسك بالحياة، ما باله الآن يفارقها ويستسلم لقهر الموت؟ أهكذا في لحظة واحدة يضيع الإنسان!؟ بكل خبرته وعلمه وقوته وأخلاقه وحبه للناس وحبهم له، يذهب هكذا ببساطة في رحلة بلا عودة!! يصمت الصوت الذي طالما تكلم وصاح، ويتوقف القلب، وتنطفئ الآمال ويخبو نورها، وتضيع الأمنيات؛ ليصبح مجرد ذكرى تتلاشى هي أيضًا مع الأيام!؟.

يمر أمامها شريط حياتها وذكرياتها مع أبيها الراقد.. تتذكر وهي طفلة صغيرة تتعلق يدها الصغيرة بيده في الغدوة والروحة إلى المسجد، وأصدقاء أبيها يداعبونها فيضحك الشيخ الفاضل ويقول: إن "سمية" بألف رجل عندما يذكرونه أنها فتاة وكيف يحضرها إلى المسجد، تتذكر أيامها الأولى في المدرسة وكيف كان يحملها على كتفيه فتصرخ وتقول: دعني يا أبي؛ فالأولاد يضحكون عليَّ، أريد أن أذهب إلى المدرسة مع زميلاتي فيأبى إلا أن يحملها على كتفيه في الذهاب والإياب، تتذكر حين مرضها.. وكيف كان يسرع الذهاب إلى الطبيب، وكيف كانت لهفته وخوفه عليها.

تذكرت وتذكرت، آلاف الذكريات تحملها في قلبها ووجدانها، حبٌّ بلا حدود، ورحمة لا منتهية، وتقدير كبير لهذا الشيخ الراقد أمامها.. فكيف لها أن تتصور أن تحيا بدونه يومًا!؟ وما شكل الدنيا أصلًا وهو ليس بين أحيائها؟ ولمن ستحيا!؟ إنها كانت تأكل وتشرب كي ترضيه، كانت تحافظ على صحتها من أجل ألا تقلقه عليها.. كانت تستذكر دروسها كي تحقق أحلامه هو. لقد كانت باختصار كالمستنسخة من أبيها.

تتذكر وتتذكر، وتزداد الدموع انهمارًا ليتحول البكاء الصامت إلى نحيب، وتتسارع دقات قلبها، بينما تنطفئ دقات قلب الشيخ وتخبو، ومع زيادة الدموع ومع صوت النحيب تتوقف حياة أغلى إنسان عندها وتهدا أنفاسه وتستريح، تقع على الأرض بينما يتوجه البعض إلى الشيخ لإكرامه وتجهيزه، والبعض إلى "سمية" كي يساعدوها على تحمل الموقف الصعب الذي تمر به.

(٢)

جلست "سمية" إلى جانب أمها كي تتلقى واجب العزاء.. في وقت الصلاة تسابق إليها ملبية نداء الرحمن تصلي وتدعو لأبيها الذي طالما أوصاها ألا تؤخر صلاتها وطالما علمها الدعاء، تبتهل إليه سبحانه وكأنها الوحيدة في العالم المبتلاة.. فكل مصيبة عندها بعد فقدان أبيها هينة، انفض الجمع، وذهب كلٌّ من حيث جاء، وبقيت "سمية" وحيدة هي وأمها الأرملة الضعيفة.. يغمرها الخوف من كل شيء، الخوف بعد قوة تربت عليها، وركن كانت تسند عليه، سقط فجأة، إن المجتمع بالخارج بدون أبيها مجتمع وحوش لا يجب أن تأمن على نفسها فيه.. هكذا فهمت بعد موت أبيها، فلا يجب عليها أن تستقل سيارة بمفردها، لا يجب عليها أن تسمح لأي شاب بأن يتحدث معها أو يقترب منها.. لا يجب عليها أن تثق بزميلات الجامعة؛ فيمكن أن يوقِعْنها في المحظور.

لا يجب عليها أن تجلس في مكان عام؛ لأنها كلها أماكن ليست فوق مستوى الشبهات.. كل من يقترب منها طامع فيها، يجب عليها أن تفترض سوء الظن بجميع الرجال إلى أن يثبت العكس، وذلك إلى أن يأتيها ابن الحلال الذي يستحق تلك الجوهرة المصونة، هكذا تغرس فيها أمها كل يوم، وهكذا هي اعتقدت وفقهت، مرت أيام وأيام، وهي تفكر كيف ستنزل إلى الشارع! وكيف ستذهب إلى الجامعة؟ وفكرت ألف مرة أن تتوقف في دراستها إلى هذا الحد، وتمكث في بيتها محتمية بجدرانه وبذكريات أبيها الراحل لولا صرخات أمها وتوسلاتها الضعيفة بأن تكمل "سمية" طريقها الذي بدأته، وأن تكسر قيود الخوف التي كبلتها بها بعد أبيها.

ولأول مرة تتحدث الأم بهذه اللهجة، ولأول مرة تتدخل في أفكار ابنتها التي أنشأها عليها ذلك الرجل الذي يحترمه الكبير والصغير، كانت في تربية ابنتها صامتة، تنفذ رغبات زوجها وهي مطمئنة أن ابنتها ستكون خير البنات، وكيف لا تصمت وهو من هو بالنسبة إليها، إن غاية علمها أن تكتب اسمها وهو الذي علمها إياه، لقد تزوج بها وهي ما زالت صغيرة لم تتعدَ الخامسة عشر من عمرها، كانت تنظر إليه كنظرة أمها لأبيها بكل إجلال وتقدير، وكيف لا! وهو العالم الذي يتلقى على يديه الآخرون علوم دينهم، ويستفتونه في كل أمر، ويستشيرونه في أمورهم الخاصة والعامة، فما كانت تفعل إلا كل ما يرضيه، تركز سمعها وبصرها إليه؛ كي تتعلم منه كل ما تستطيع، وهو بدوره لم يهملها، بل أعطاها الاهتمام كله كزوج يخشى الله ﷿..

علمها أمور دينها، وعلمها ما لم تعلمه عن العالم المحيط بها، كان ينفق عليها بلا بخل أو بذخ، يطعمها قبل أن يطعم نفسه، ويكسوها قبل أن يكسو نفسه، وعندما قرر أن يحج لبيت الله لم يفعل إلا وهي معه، إنه زوج تقيٌّ نقيٌّ يؤدي لكل ذي حق حقه، فكيف تعترض عليه! وكيف تعارضه؟ فأين فهمها من فهمه!

إلى أن رزقهم الله ﷻ بسمية، التي وهبهم الله إياها بعد سنوات عجاف من عدم الإنجاب؛ فكانت كالثمرة الحلوة التي جاءت لتبهج حياتهم وتضيف لها معنًى جديدًا، وبدأت الثمرة في النمو، وانتهجت الأم نفس النهج الذي أخذته مع نفسها حين ارتبطت بزوجها، تركت أمور التربية والتوجيه للأب العالم بكل شيء الواعي بكل الأمور التي لا تعلمها هي، كانت تلك الثمرة الطيبة تنمو أمامها شيئًا فشيئًا؛ فيهش لها قلبها، ويطرب، وترى فيها أحلامًا ما عرفتها يومًا إلا مع نمو ابنتها الحبيبة، العلم الذي كان ينهل منه الزوج كل يوم الكثير والكثير كل يوم حين كان يختلي بكتبه الضخمة.. أحيانًا كانت تأتي بالكتاب وتنظر فيه وتحاول فك تلك الطلاسم، فلا تستطيع، وحينما يراها زوجها يضحك ويداعبها بكلمات رقيقة؛ فتقول له: إنني أنظفه من التراب.

طالما حلمت أن تقرأ تلك الجريدة التي كان يحضرها كل يوم، وتتحدث معه وتناقشه مثلما يفعل مع أصدقائه، لكنها كانت تعجز حتى أن تفهم كلماته التي كان يتمتم بها في تعليقه على الأخبار بعد الفراغ من قراءتها.. طالما أمسكت بالقلم بين أصابعها وتحاول أن تنقل من أي كتاب إلى صفحة فارغة، وتنظر إلى كتابتها بإعجاب وهي لا تدري ما هي.. كل ما كانت تستطيع كتابته هو اسمها، والذي طالما ملأت به صفحات وصفحات..

وهـي فخـورة كـل الفخـر بأنهـا هـي التـي كتبـت هـذه الصفحات، وعندما التحقت "سمية" بالمدرسة طالما جلست إلي جوارها حينما كان أبوها يراجع لها دروسها؛ ناظرة إلي ابنتها نظرتها إلى الفاتحين العظام، تشجعها بالكلمات حينًا وتصفق لها بيديها أحيانًا، وتهلل..عندما يقول لها أبوها: أحسنت يا حبيبتي.

هكذا كان الحال مع ابنتها وزوجها، لم تعترض يومًا ولم تتفوه بكلمة ضجر، ولم تبدِ أيَّة ملاحظات، ولماذا تفعل وهي ترى كل ما يفعله صوابًا، إلى أن ذهب في رحلة اللا عودة ووجدت ابنتها تتراجع عن الطريق والخوف يستبد بها؛ فكان لا بد لها من أن تصرخ وتقول: لا.. لا للتراجع، لا للعودة للخلف، ولو قيد أنملة، حتى استطاعت "سمية" استجماع شجاعتها، وارتدت السواد، والذي زادها بهاءً على بهائها!، وذهبت في طريقها.

(٣)

لأول مرة في حياتها تنزل إلى الشارع وتسير فيه وتشعر أنها وحيدة بهذا الشكل، تشعر وكأنّ سدًّا منيعًا كانت تحتمي به قد انْهار، تنظر بطرفها خفية إلى من حولها فربما يحاول أحدهم أن يعتدي عليها، أو ربما ينظرون إليها نظرة مريضة، أو ربما يتحدثون عنها بمجرد أن تتعداهم، ورغم أن الشارع كان مليئًا بالمارة كلٌّ منهم مشغول بحاله وهمومه؛ فما أبقت هموم الدنيا لأحد وقتًا كي يفكر بالآخر؛ إلا أنها كانت تعتقد أنها فريسة ضعيفة ووحيدة لقطيع من الذئاب،

وقفت في محطة الانتظار؛ كي تأخذ وسيلة مواصلات إلى الجامعة. دست نفسها في حافلة حتى وصلت، هناك، تنتظر المحاضرة في قاعة الدرس، لا تلتفت يمنة أو يسرة، تركز عينيها على الأستاذ، وتكتب كل كلمة يقولها بل ربما كتبت أكثر مما قاله. في نهاية المحاضرات تأخذ أقصر الطرق إلى البوابة الخارجية، وتستقل حافلة وتعود.

مر اليوم الأول لها في حياتها الجديدة على خير، عندما وصلت إلى بيتها تنفست الصعداء، وجرت إلى حجرتها محتمية ببابها المغلق وجدرانها السميكة، وقفت أمام المرآة تتحسس نفسها وكأنها تطمئن إلى أنها لم ينقص منها شيء.. لمعت عيناها فها هي تعود من الجامعة وحدها منتصرة لم يمسسها سوء.

ابتسمت لأمها لأول مرة منذ رحيل أبيها، وجلست إليها تحكي لها كل التفاصيل من لحظة خروجها لحين عودتها سالمة بفضل الله ﷻ، في اليوم التالي، خرجت وهي على نفس التوجس والريبة، ولكنها بدأت تشعر بأن شيئًا بداخلها بدأ يتكون من جديد بعدما مات فجأة كما رحل أبوها، شعرت بلذة شديدة وهو يتنامى بداخلها شيئًا فشيئًا، هذا الجنين كان اسمه "الثقة".. شعرت به يكبر يومًا بعد يوم، وبدأت تتوالد معه أشياء أخرى.. آمال، وأمنيات، وكلما وجدَ أمل تباعدت ذكرى، وكلما خرجت يومًا تنامت الثقة وكثرت الآمال والأمنيات.

خرجت "سمية" من الجامعة تنظر إلى الفاترينات بانبهار شديد بعدما كانت تخجل من النظر إليها قبلًا، تسير في شوارع القاهرة العريقة وكأنها تراها لأول مرة- الجديدة منها وحتى القديمة- تذهب إليها وكأنها تتنسم منها رائحة التاريخ الذي طالما عاشت بين طيات كتبه.. وها هي تراه رأي العين بين جدران قلعة صلاح الدين وأحياء الحسين والسيدة زينب حينًا، والمتاحف التاريخية أحيانًا، كانت كلما سارت خطوة كأنها تعبر إلى المستقبل خطوات وخطوات.

تعلمت الكثير في فترة وجيزة، وازدادت جرأة وازدادت تعلقًا بالحياة وباستكشاف أسرارها، ربما تكون قد أحبتها أكثر رغم وحشتها!. ربما تكون قد انبهرت بها وبأضوائها.. المهم الآن أنها تنظر إليها نظرة أخرى غير التي رأتها في اليوم الأول لموت والدها، كل ذلك كان يحدث بتشجيع من والدتها، والتي كانت فخورة بابنتها كل الفخر وسعيدة بها أيَّما سعادة؛ لأنها أخيرًا استطاعت أن تعتمد على نفسها، وتواجه المجتمع دون خوف أو تردد.

اهتمت "سمية" أكثر بمظهرها الخارجي؛ فأصبحت بحق فتاة كاملة خلقًا وخلقة، أصبحت تطربها تعليقات زميلاتها على تناسق ملابسها وعلى ذوقها الراقي في اختيار ما يليق بها دون تخَلٍّ عن حجابها أو شروطه التي فرضها الله ﷻ، تعددت اهتماماتها بعدما كانت فقط مركزة في الدراسة، وبرغم ذلك لم تهمل دروسها، بل ظلت متفوقة بل تقدمت أكثر، وظلت تحوز على رضا وثقة أساتذتها، وانتهى العام الدراسي، وانتهت "سمية" من دراستها الجامعية، واستطاعت أن تحصل على المركز الثاني على دفعتها بجدارة، وكان يوم فرح كبير لها ولأمها.

اجتمع الجيران والأحباء مُهنئين ومتمنين لها دوام التوفيق في حياتها العملية.. أما والدتها، فقالت: إن الله ﷻ أكرمك يا ابنتي وحقق فيكِ حلم أبيك، والحمد لله، ولم يعد سوى أن يرزقك الله بابن الحلال، الذي يسعدك، وساعتها فقط تكتمل فرحتي وأطمئن عليك، وأكون قد أكملت رسالتي معكِ، فتبتسم "سمية"، وتقول: يا أمي، إن ما حققته ليس إلا بداية الطريق، إنني ما زلت على الدرجة الأولى من سلم النجاح، وما زال الطريق أمامي طويلًا؛ كي أصل إلى ما أريد.. إن أحلامي كبيرة يا أمي ولن أتراجع.

وكأنها كانت تقرأ ما خلف الحجب فسرعان ما التقت بالتحدي الأول لها في حياتها العملية، فبعد أن كانت تأمل في أن يتم اختيارها للتعيين في الجامعة كمُعيدة؛ تحركت أياد غبية لتنتزع منها ما هو حق لها، وتضيع عليها هذه الفرصة الرائعة، والتي كانت ستفتح لها آفاقًا واسعة؛ للحصول على مزيد من تحصيل العلم الذي تعشقه عشقًا.. ومع هذا الفعل الإجرامي، والذي كاد يُزلزلها ويحطم كيانها؛ إلا أن إيمانها القوي بالله ﷻ وبأن هذا قدرها ورزقها وبأن ما أصابها لم يكن ليُخطئها وما أخطأها لم يكن ليصيبها، ثم إيمانها وثقتها بقدراتها العالية على تخطي الأزمات والصعاب، وبأن الإنسان يستطيع بإيمانه أن يحول الهزيمة إلى نصر إذا أراد والضعف إلى قوة ويتحدى كل الصعاب ويُحولها إلى فرص للنجاح؛ كل ذلك ساعدها على تخطي تلك الأزمة، وأن تتعداها لتضع البدائل لهذه الفرصة الضائعة، وقالت: لئن حرموني منها فلا أحد يستطيع أن ينزع العزيمة من قلبي، ولن يُحول أي شيء دون الحصول على ما أبتغي من العلم، وبكل الوسائل الممكنة، وفعلًا قررت أن تستمر في الدراسة.

(٤)

يبدو أن أسوار الجامعة تعمل كحاجز كبير بين حياة وحياة، وشتّان بين الحياتين، بل إنهما عالمان مختلفان تمامًا، إن عالم الجامعة والذي كانت تخشاه يومًا، وتمنت أن تنتهي منه أصبح الآن يُمثل العالم الملائكي بالنسبة لما يتعدى حدود أسواره، إن أقصى ما يشغل الطلاب فيه.. إما النجاح والحصول على أعلى تقدير بما يضمن لهم الحصول على وظيفة محترمة ومستقبل مرموق وهذا حلم المتفوقين منهم، وأما البعض فكان يتمنى فقط انتهاء العام الدراسي على خير..

وبعدها يوجد ألف حل، وآخرون بين هؤلاء وأولئك يتركون كل شيء للظروف وما توجههم إليه الأقدار، حتى أولئك الفتيات اللائي كانت تنظر إليهن نظرة رثاء ولم يشغلهن سوى أن ينتهين من الدراسة؛ حتى يتزوجن وينتقلن إلى تلك الحياة السعيدة التي يحلمن بها، هذا العالم الآن بما يحويه من أحلام وطموحات؛ هو عالم بريء براءة الطفولة بالنسبة لما لاقته خارج أسواره.

إنه سوق كبير، وربما لم تبالغ حين صورته لإحدى صديقاتها بأنه سوق نخاسة.. إما أن تكوني جارية، وإما أن تكوني ملكة، كل شيء هناك مباح؛ فالنخاسون يريدون البيع بأغلى ثمن وأقل خسائر، إنها تلك الستر التي حذرها منها أبوها يومًا حين قال لها: إياكِ أن تغتري بالوجه المكشوف؛ فخلفه وجه كالح، وإياكِ أن تغريكِ الستائر الحمراء؛ فخلفها طرق ملتوية، فلتنظري جيدًا قبل أن تضعي قدمك، وإياك أن تتجاوزي تلك الستر؛ فخلفها الهلاك والضياع والنهاية الحتمية.

نزلت تبحث في سوق العمل هي ومجموعة من زميلات الجامعة ممن جمعتهن نفس الأهداف والأخلاق، كانت تحمل معها شهادة التفوق إلى جانب طموحات شابة قررت أن تتحدي؛ لتبني، تتبعت إعلانات الشركات في الجرائد اليومية، ولم تترك فرصة إلا وذهبت، وهناك، تفاجأ أنهم لا يريدون موظفة وإنما يريدون جارية، إن مظهرها غير لائق، نعم.. هي متفوقة وعندها مقومات الموظفة الناجحة، لكن لو تنازلت قليلًا لأمكنها أن تربح الكثير.. هناك وجدت البعض يتساقطون، يهتكون الستر ويغترون؛ فالحجاب يمكن أن يرفع قليلًا، إنه حكم المضطر، والثوب حبَّذا لو تقلص بعض الشيء فلن يأكلها أحد، ثم إن في الدين فسحة،

ثم إنهم إذا قارنوا أنفسهم بالغير لصاروا كالملائكة، ثم إن الظروف الحياتية صعبة وليس من المعقول أن يقضين بالجامعة أربع سنوات أنفقن فيها دماء قلوب آبائهن ويضيع كل ذلك سدى!!.

نعم والله، إنها لستر خداعة إذا رفعت إحداها وانزلقت إلى الأخرى تجد نفسك أخيرًا في طريق مظلم وبلا عودة.. لقد رأت بأم عينها.. رأت النخاسين يتهافتون عليهن تهافت الذباب على حلوى مكشوفة، ورأت الحقائق تقلب وسمعت من يدافع عن العري والتكشف باسم الحرية وباسم الثقة بالنفس وباسم الحقوق، وفي الحقيقة أنهم يدافعون عن إماء في سوق نخاسة.. رفضت الخضوع لقوانين ذلك السوق، وقررت أن تكون ملكة، والملكة ليس مكانها أبدًا في سوق يباع فيه كل شيء حتى الأعراض.

عادت إلى بيتها ولم يؤثر في عزيمتها شيء، بل قررت الاستمرار، ولكن مع تغيير الاتجاه قليلًا؛ ليستقيم والحق الذي تؤمن به، ولن تطالب أحدًا بحقها، بل ستأخذه هي بنفسها، ستُعلِّمهم كيف تكون حرة بلا تنازلات وإسفاف، تُعلِّمهم معنى الحرية التي أرادها ﷺ لنا، وستتعلم في نفس الوقت ولن تسمح لسارقي الأحلام بأن يوقفوها، كانت كلما قابلت في طريقها حجر عثرة صممت أكثر على مواصلة الطريق، وثبتت، وكان هدفها أن تُمهد لأجيال بعدها ذلك الطريق الشاق، وأصبحت صاحبة رسالة، كل يوم تتضح لها معالم الطريق أكثر، هي لم تعد تدافع عن قضيتها أو قضية جيلها وحسب، إنما أصبحت تدافع عن قضايا أمة ومستقبل شعب، بل شعوب بأكملها في عيش كريم وحياة فاضلة، لم تترك بابًا يمكن أن تقوم من خلاله بالإصلاح إلا وفتحته، اشتركت فترة في منظمات حقوق الإنسان،

وعملت مراسلة لبعض الصحف الهادفة، واشتركت في التظاهرات المطالبة بالحرية والإصلاح، وقامت بمجهودات كبيرة في بعض الجمعيات الخيرية، أصبحت بحق صاحبة رسالة.. ناقشت أخيرًا رسالة الماجستير، وكان موضوعها "الاقتصاد الإسلامي من النظرية إلى التطبيق" واجتازتها بتفوق وعن جدارة.

بعدها، استطاعت الالتحاق بالصفحة الاقتصادية في إحدى الصحف، وهناك أتيحت لها الفرصة؛ للتعرف أكثر على تلك المؤسسات والشركات الكبرى وكيف تدار، ويبدو أنها تعدت بعض الخطوط الحمراء؛ مما عرضها لبعض المضايقات من داخل الصحيفة وخارجها، وأكثر من مرة تتعرض للوقف من العمل بسبب ضغوط خارجية عليهم.

وفي هذه الأثناء، كانت والدتها في غاية القلق عليها، فها هي السنوات تمر، وابنتها مصممة على أن تكمل ما بدأته، وأضاعت من بين يديها فرصًا متعددة للزواج، وكان كل منهم لا يخير عن الآخر- من وجهة نظر الأم- لكنها كانت ترفض كل مرة بحجة أنه ليس هذا من يناسبها؛ فلم يكن منهم من يحمل قلبًا مثل قلبها، قلب يحمل هموم العالم كله، ولم يكن منهم من يحمل رسالة كتلك التي وطنت نفسها لها.. وفي هذه الحالة، فبيت أبيها خير لها من زواج يمكن أن يكون عائقًا عن أداء دورها في الحياة.

وازدادت الأم قلقًا عندما تخطت ابنتها الثلاثين ربيعًا، والأيام تمر، وكل ما يشغل بال ابنتها الوحيدة هو إتمام رسالة الدكتوراة والكتابة على صفحات الجرائد والعمل في الجمعيات، ونسيت أن كمال حياة الفتاة في أن يكون لها بيت وتنجب أطفالًا يكبرون بين يديها ويكونون قرة عين لها، ثم إن أكثر زميلاتها قد تزوجن وأصبح لدى كل منهن طفل وطفلان، لم يعد لوالدتها حديث معها سوى الزواج والارتباط والبيت والسعادة والأمان، فكلما همّت بالخروج ذكّرتها به، وكلما عادت من الخارج فاتحتها فيه إلى أن قالت "سمية" لها: صدقيني يا أمي، إنني لا أرفض المبدأ، وإنما لا أريد أن أتزوج وأندم بعد ذلك، وعمومًا، بمجرد أن أنتهي من بعض المشكلات التي أنا بصددها أعدك أنني سأفكر جديًّا في هذا الأمر، وسأكون طوع أمرك.

أما المشكلات التي تحدثت عنها "سمية" فقد كانت بشأن مقالة كتبتها عن الغش التجاري وأساليبه، وأشارت فيها إلى إحدى الشركات؛ مما دفع صاحب هذه الشركة للاتصال بالجريدة والتهديد برفع قضية ما لم تنشر اعتذارًا، فطُلِبَ منها ذلك لكنها رفضت؛ لأن ما كتبته حق، وجميعهم يعلمون ذلك.. فكيف تعتذر عن شيء هي على حق فيه؟ ومعها ما يثبته؟ حتى أنها فضلت أن تترك العمل نهائيًّا مع أنها تألمت كثيرًا للظلم الواقع عليها.

لم تستطع النوم في هذه الليلة لا تدري ماذا تفعل؟ هل تسكت عما حدث وتبحث عن عمل في مكان آخر، وأي جريدة تتمنى العمل معها بعدما أصبح لها اسمها المعروف في مجال عملها وبعدما أصبحت تعمل كمستشارة في فنون التسويق لبعض الشركات المعروفة، أم تتمسك بحقها وتفوت الفرصة على أصحاب النفوذ والسلطان في الإطاحة بها؟ حاولت أن تتصل ببعض من تعرفهن؛ لتأخذ رأي إحداهن، ولكنها تراجعت إلى أن تذكرت أستاذها المفضل في علم الاقتصاد واتصلت به؛ كي تستشيره فيما تفعله، وكيف تواجه هؤلاء الحيتان؟، حتى طلب منها أن توافيه في مكتبه في تمام العاشرة صباحًا حتى يتسنى لهما بحث تلك المشكلة وحلها، وفي تمام الموعد كانت هناك.......

(٥)

التقيا وهي غاضة عيون تملؤها الحيرة والقلق وبعض الدموع، التي حاولت إخفاءها وفشلت، ما العمل أستاذي؟ كل ما تعلمناه في جانب، وما يحدثٍ على أرض الواقع في جانب مخالف تمامًا، الموج عالٍ جدًّا، وما كنت أتصور أن أدخل دائرة الصراع وكل ما أبغيه الصدق وكشف الحقائق وحماية أصحاب الحقوق البسطاء من الناس!، استمع إليها باهتمام، وقام بالاتصال برئيس التحرير وكذلك استمع إليه باهتمام ليصل معها إلى أن الأمر ليس مشكلة بينها وبين الجريدة، إنما المشكلة الحقيقية بين النظام العام وبين كل من هم على شاكلتها، المشكلة في المنظومة الفاسدة التي تحكم البلاد وتحمي أصحاب المصالح من مصاصي دماء الفقراء وأعداء الإنسانية، سألته عن المخرج؛ فقال لها: إن ما عليها أن تكتب وتفعل ما يمليه عليها ضميرها،

وأنه سيكون في ظهرها مؤازرة وحماية قدر استطاعته، وأنه سيبحث لها عن منبر آخر يكون خارج دائرة السيطرة والانبطاح حتى لو خارج حدود الوطن؛ لتستطيع أن تقول كلمتها بحرية، أفهمها أنها في شأنها هذا شأن المجاهدين في سبيل الحق.

وأن الجهاد بالكلمة هو تطهير للعقول المُغيبة كما أن الجهاد بالسيف تطهير للأجساد العفنة، أخرج لها من مكتبه عشرات الأوراق المكتوبة، نماذج من مقالات تم رفضها في الصحافة الداخلية؛ لجرأتها على رأس البلاد، وعلى بريده الخاص قرأت عشرات الرسائل المُحذرة له إن هو استمر على نهجه هذا ولم يتراجع أو يعيد توجيه سهامه لمن هم أقل رتبة أو مكانة في منظومة الفساد العميقة، سألته لِمَ لمْ تقم بالرد على أيٍ من هذه التهديدات والتحذيرات؟، فقال لها: كل مرة كنت أقوم بالرد بمقال، أو لقاء تليفزيوني على إحدى القنوات الحرة، الرد على هؤلاء يجب أن يكون عمليّا وليس مجرد اعتراض أو قبول.

امتد اللقاء الأول بينهما لساعات، ساعات مرَّت وكل منهما يفتح كل ملفاته الشخصية للآخر، كان جهاز الكمبيوتر خاصته مفتوحًا بكل صفحاته وبريده وكتاباته، وهي تقرأ بنَهَم، وتقلب الصفحات بشغف، قطعته صلاة الظهر لتُصلي خلفه مع العاملين بمكتبه، ليستمر إلى قبيل العصر، فتستأذن وتنصرف مع اتفاق على موعد جديد، لم يعرف قلبها الفرحة منذ زمن بعيد، هكذا اكتشفت توًّا، فلو كان للفرحة مقياس كانت لتزن فرحها العمر الذي مضى كله بفرحة ساعات معدودة على أصابع اليد الواحدة، ليست تدري كنْهَ التغيرات التي طرأت عليها، ربما أصلًا لم تشعر بها، اكتسبت لونًا جديدًا،

واكْتسَت حلة جديدة، طاقتها تجددت أضعاف ما كانت عليه، وعزيمتها صارت حديدية، صوتها صار أكثر نعومة ودفئًا وحنانًا وحنينًا واطمئنانًا ولهفة، من يعرفها جيدًا.. يراها وكأنها تبدلت، الْتبَست بأخرى أكثر حيوية ونشاطًا على نشاطها، ربما هي نفسها لم تلحظ كم السعادة بداخلها بقدر ما رأته والدتها عليها، ترى ابنتها بفرحة لم تعهدها عليها من قبل، بل وكأنها لم تفرح من قبل، على لسانها ألف سؤال، وفي قلبها أمل طال انتظاره، تشعر وكأنه قد اقترب تحقيقه، ومن فرط لهفتها لا تجرؤ على السؤال خوفًا من ألا تجد ما تصبوا إليه فتدع الأمور لله، وتدعو أن يهدي ابنتها لبر الأمان الذي تمنته لها عمرها بأكمله.

تكررت اللقاءات بينهما على فترات متقاربة، كان اللقاء الأول قد أزال كل الجدران بينهما؛ ليصير القلبان كالبهو المتسع يشمل حياة كل منهما دون جُدر أو حوائل، بهوٌ متسع يجد فيه مستراحه ومتنفسه، ويلتقي فيه بذاته بعد عمر هجير جاف، صنعا لنفسيهما هذا المتسع؛ للهروب من ذلك العالم الذي اضطرا فيه أن ينتظرا حتى يلتقي أحدهم بالآخر دون ترتيب، أو حتى توقع، وكيف لا ينتظرا! وقد ينتظر البعض عمره كله كي يحصل على تلك اللحظة، وربما يمضي العمر دون أن يلقاها فيصنعها لنفسه، لكنه سيظل فيها منفردًا وحيدًا حزينًا لا يخرج عن دائرة الانتظار، كانت منذ أيام قليلة تحاول صنعها لنفسها، تُغمض عينيها حتى لا يلحظها أحد ولا أمها أقرب الناس، تُغمض عينيها لتعيش عالمها الخاص تلتقي فيه بذاتها

وأحلامها وغدها الذي يحْوي ماضيها وحاضرها، تُغمض عينيها لتكون فتاة مشتاقة لحلم كل فتاة، لكن أحلامها كانت كبيرة كحياتها، خلف أهدابها احتفظت بالعالم المكنون، عالم الهروب من المادية المفروضة على مثل هؤلاء فلا يجدوا متنفسًا إلا عالم يصنعوه لأنفسهم بأنفسهم.

اليوم لم تعد مضطرة لإغماض عينيها كي تراه، بل أصبح حتمًا عليها أن توقظ كل كمائن الحواس لتحيا مجددًا، فمنذ مفارقة والدها الحياة وهي ميتة، تحيا ميتة، وبغير تصريح اجتاح كل منهما الآخر، بغير كلمة سقطت الجدران الفاصلة ليصيرا عالمًا واحدًا، بغير كلمة باح كل منهما للآخر، كأنها السنوات العجاف التي كانت تنتظر الغيث، رأت فيه الكثير مما كانت تحلم به، بل رأت فيه كل أحلامها، ربما رأت فيه صورتها الباحثة عن حقيقة الدنيا التي لم تعرفها بعد، صورتها الباحثة عن الحب الذي يهدي الحيارى والتائهين، ويُشفي القلوب الجريحة والمريضة، الظالمة والمظلومة، الباحثة عن العدالة في الطرق الضالة، وربما وجدت فيه صورة والدها الراحل بوقاره وحلمه وعلمه وأدبه وطيبته الفطرية.

كانت مشاعرها تجاهه كالسيل الجارف كأنها خبأتها طوال تلك السنوات له هو، كانت تتعجب عندما كانت وهي في المرحلة الثانوية من همس الفتيات ومغامراتهن العاطفية..فهذه تعشق أستاذها! وتلك تهيم بجارها! وأخرى مفتونة بمطرب الشباب!، وكانت إحداهن تذوب شوقًا لذلك الفارس الذي سيأتيها على حصانه الأبيض، وبالطبع انتهى عصر الحصان فيمكن أن يستبدل بسيارة فارهة أحدث موديل، وغيرها الكثير من الحكايات كانت تستمع إليها وتتعجب كيف تواتيهن الجرأة على التصريح والاعتراف بهذه المشاعر، أما هي، فكانت تنظر من أعلى برج العلم والأخلاق.. برج وضعها فيه أبوها،

وصنعه خصيصًا من أجلها، كانت تحلم بفارس الأحلام فهي في النهاية فتاة، ولكنها ليست ككل الفتيات فحتى هذا الحلم لم يدعها والدها تحلمه وحدها، بل وضع شروطا وموازين ومقاييس..

لا يمكن التنازل عنها لذلك الفارس المنتظر، وكيف لا! وهي الجوهرة المصونة فإن كان الناس يتفاضلون بالعلم والعقل لرجَّحتهم، وإن كانوا يتفاضلون بالجمال لسبقتهم، وإن كانوا يتفاضلون بالنسب لأخرجتهم من حلبة السباق.. فكيف لا تضع الشروط التي تضمن لها من يكون في نفس مكانتها أو يَضاهيها شرفًا وعلمًا ونسبًا وخُلقًا.. وذلك ليس من باب الكبر أبدًا، وإنما هو من باب تقدير الذات واحترامها لنفسها، فأبوها يعرف قدرها جيدًا فهي أولًا وأخيرًا صنيعته التي شكلها بيديه، إنها حقًّا بنت أبيها، فما بالها اليوم تتبدل ويتغير حالها مع ذلك الذي أسر قلبها؟ وما هذا الشوق الجارف الذي يكاد يُحطم قلبها من شدة طرقاته عندما يتغيب عنها ولو ليوم واحد، كانت كثيرًا ما تغلق على نفسها باب غرفتها وتبكي بكاءً مرًّا إذا تأخر دقائق معدودات عن موعدها، تعلقت به أكثر من أي إنسان آخر على وجه الأرض انطلقت بأحلامها معه تارة تبني عشهما السعيد، وتراها تُحلق في سماء البلدان تطوي المسافات والمسافات مُسافرة معه بعيدًا عن كل ما يمكن أن يُكدر صفو حبيبين ليس لدى كلٌ منهما سوى الآخر.

وهي معه ترى أنها تمتلك الدنيا وما فيها، لا تفكر فيما مضى ولا فيما هو آت، كل ما يهمها هو تلك اللحظة الحاضرة التي تجمعهما،غريبة هي بعده، حتى إنها كثيرًا كانت تتساءل كيف عاشت عمرها من قبله؟ وكيف مرت تلك السنوات التي لم تجمعهما؟ قالت له يومًا: أنا أحسد الشارع الذي تسير فيه، أحسد الجيران الذين يرونك كل يوم مارًّا عليهم، أحسد الطلبة الذين تحاضرهم، أحسدهم جميعًا على وجودك بينهم، بل إنني أحيانًا أود لو سرت في كل مكان كنت فيه يومًا كي أرى بعيني ما رأيته أنت؛ لأحب ما تحب وأتنسم نفس العبير الذي داعبك، كان يبتسم لكلماتها ويطرب لها ويزداد بها تعلقًا وحبًّا، بل كان يهيم بها حبًّا.

كان يُهاتفها يوميًّا، وفي بعض الأحيان المُتاحة يذهبا معًا للاطمئنان على سير العمل في عشهما المنتظر، وكثيرًا ما عرضت عليها والدتها أن يمكثا معها في بيتها؛ فهو بيت كبير وطالما وسع الكثيرين في مجالس علم ومناقشات بين زوجها وأصدقائه، فلم لا يتسع لابنتها وزوجها خاصة وقد كانت تنتظر ذلك اليوم من زمن طويل؟ ولكنها، رفضت ذلك العرض، وأصرت أن تحيا حياة مستقلة مع زوجها، وليس معنى ذلك أنها تتخلى عن أمها، ولكنها أرادت أن تنفلت من تلك الدائرة التي احتوتها سنوات طوال.

قاما سويًّا بتجهيز كل ركن فيها بما يتناسب وذوقيهما معًا، يتخاصمان أحيانًا ويتصالحا في نفس اليوم لا يُفرقهما إلا الليل، وحتى هذا لم يقدر على التفريق بينهما؛ فكانا يُكملان أحاديثهما هاتفيًّا، وأحيانًا كانت تمتد تلك الأحاديث حتى الصباح ولا تنتهي إلا بوعد بلقاء واتفاق على موعد.. الْتِحام تام بين روحين، وتوحد بين قلبين، واندماج كامل بين حياتين، هكذا كان حالهما معًا.. حين يتخاصمان يمر يوم أو يومان ولا يُحادثها فتُبادره هي بالاتصال وهي تصرخ: إياك أن تقاطعني، وإن كان يجب أن تعاقبني فبأي شيء سوى المقاطعة، فيقول: حاشا لله أن أفكر في أن أعاقبك أو أهينك؛ إنما أردت معكِ أن أكون إنسانًا في كامل إنسانيته، علاقتنا إنسان حر بإنسانة حرة، فكيف لي أن أعاقبك!؟

كانا أحيانًا يختلفان في وجهة النظر في حل المشكلات.. خاصة، وإنّ اهتماماتهما متعددة ومتشعبة، فهما لا يحملان في قلبيهما هموم اثنين، إنما يحملان معًا هموم أمة بأكملها، كان يرى أن مشكلة الأمة في عدم تطبيق المنهج الرباني الكامل، وأننا لو طبقناه كما أنزل ستنتهي كل مشكلاتنا، وأنه يجب علينا نحن المثقفين والمفكرين ومن يحملون هموم هذا الوطن؛ أن نتكاتف جميعًا ونبدأ بأنفسنا في تطبيق هذا المنهج، ولا ننظر إليه باعتبار أن فيه صغير وكبير، وإنما كل ما فيه هام وكل ما فيه يجب تطبيقه ابتداءً من الابتسامة في وجه الغير وانتهاءً بعلاقتنا بدول العالم.

أما هي، فكانت تقول له: إن مشكلتنا هي الانتماء، فلا أحد يشعر أن دينك دمك وعرضك، ولا أحد يشعر بأن وطنك أمك وأبيك لينتهي الخلاف في كل مرة لنقطة اتفاقٍ والتقاء.

قالت له يومًا: إن الانتماء الذي أشعر به تجاهك يجعلك تشعر أنك دائمًا مع من تحب؛ لأنه بداخلك وأنت بداخله كلاكما جزء من الآخر، وكلاكما مكمل ومتمم للآخر، بل إنني تجاوزت هذه المرحلة إلى مرحلة أخرى، وهي الاندماج الكامل أو الذوبان، ففي هذه المرحلة لا تعرف حدودك من حدود الآخر، بدايته عندك ونهايتك عنده، حينها تهدأ الأرواح وتطمئن حتى لو فرقت بينهما الأيام.

طالما حلقا معًا في عالم الحب.. عالم بلا أشواك بلا أحقاد بلاٍ خوف بلا عيون تترصد، عالم صنعاه معًا وعاشا فيه سويًّا، عاشا في أحلامهما كيانًا واحدًا وهوية واحدة، حتى أنهما اتخذا نفس الملامح ونفس الرائحة ونفس الملمس، كانت تتناثر كلماتهما معًا فوق مروج خضراء؛ فتنبت ابتسامات وردية، كلمات عذبة عذوبة ماء النيل قبل أن تلوثه أيادي البشر، أما ابتساماتهما فكانت صافية صفاء الجدول الرقراق، هادئة كماء الخليج، دافئة دفء شمس الشتاء في يوم صافٍ جميل، وأما النظرات فكانت من عيون تلمع بالبراءة والأمل في غد اللقاء، إلى أن هبت عليهم زلزلة كادت تطيح بهم، ريح عاتية جاءت معها بسحابة سوداء فغابت شمس الحب وأظلمت الدنيا وضاع الأمان، وتساوى كل شيء بعدما ضاعت حتى معالم الطريق.

(٦)

فتحت عينيها ببطء، بينما لازالت تشعر بالدوار، تنظر يمنة ويسرة فترى أشباحًا تتحرك وأصواتًا بعيدة.. بعيدة، لم تستطع أن تميز بينها، تحس أن شيئًا ثقيلًا فوق كاهلها، وكأن صخرة كبيرة تجثم فوق صدرها، بالتأكيد هي تحلم حلمًا مزعجًا، بل كابوسًا مرعبًا، تُحرك يديها وكأنها تحاول أن تبعد عنها أشباحًا تدور حولها، أو تحاول الاستيقاظ من ذلك الحلم البشع والذي في النهاية لم يكن حلمًا، بدأت تفيق شيئًا فشيئًا، حتى هبت من رقدتها صارخة: لا، لا. أنتِ كاذبة، ماذا تريدين مني؟ ومن أنتِ؟ ولماذا تفعلين ذلك؟

فتُهدئها أمها، بينما تقف على استحياء امرأة لا يبدو عليها أنها من ذلك النوع الذي يقوم بتلك الخدع، تقبل عليها قائلة: سامحيني، فوالله ما قصدت إيذاءك، ولكن هذه هي الحقيقة إن أردتِ أن تعرفينها "إنني زوجته"، انخرطت هي الأخرى في البكاء، بينما استعادت "سمية" بعض هدوئها وكفكفت دموعها، واعتدلت في جلستها وتوجهت بكل كيانها إلى تلك المرأة الواقفة أمامها، وقالت لها: اجلسي، ومن فضلك، احكي لي كل شيء، أنا الآن مستعدة لسماعكِ، جلست أمامها تغالب دموعها؛ لتقول: إنه ابن عمي تربينا في بيت واحد هو بيت جدي وبيت العائلة كلها، نشأنا معًا وكبرنا معًا، ذهبنا إلى المدرسة سويًّا، لكن مستواه الدراسي كان أعلى مني بكثير، سبقني وافترقنا عند الإعدادية، وتوقف تعليمي عند الحد المتوسط، واهتمت أمي بتعليمي بكل أمور البيت من غسيل وطبخ وتنظيف حتى أتقنت كل تلك الأمور، أما هو فكان يتقدم في دراسته يومًا بعد يوم، وعامًا بعد عام، وكلما مرَّ عام ازدادت المسافة بيننا.

أما أهلنا فكان لهم رأي آخر خاصةً أمي التي غرست في قلبي وعقلي أنني لابن عمي وابن عمي لي، وأنه ليس مهمًّا فرق التعليم؛ فالرجل لن يتزوج كراسة ولا كتابًا، وإنما يريد امرأة تُحسن إطعامه وتدبير شئونه وتربية أولاده، كبرنا وكان كل همي أن أحوز رضاه بطبق جديد أُعده له عندما يأتي من الجامعة في أجازاته، أو بثوب جديد تشتريه أمي خصيصًا ليوم عودته، بدأ الخُطَّاب يطرقون باب أبي وهو يرفض، وأمي تتذمر، تُلمح أحيانًا وتصرح أحيانًا مما دفع عمي لأن يقرأ الفاتحة مع والدي دون حتى انتظار عودة ابنه من الجامعة في أجازته، وحتى بدون علمه.. عندما عاد فوجئ أنني قد خُطبت له، أذكر يومها أنه بكى، نعم بكى؛ فلم يستطع أن يقول لأبيه.. لا، أعلم جيدًا أنه لم يكن يخاف أباه، ولكنه كان يحترمه احترامًا شديدًا، ويُقدره تقديرًا كبيرًا، كان يعرف لأبويه حقوقهما مثلما لم أرَ بر إنسان بأبويه من قبل، بكى لكنه لم يستطع أن يقول.. لا.

وساعتها، ماتت فرحتي في قلبي وانكسرت نفسي، لكن أمي سامحها الله ﷻ وقفت لي، وقالت: إنه في النهاية، لن يكون إلا لك أنت، وستملئين عليه حياته عندما يتم الزواج، وسينشغل بهموم بيته، وسننسى كل تلك الأمور الصبيانية، إن ابن عمك إنسان طيب ويعرف الله ﷻ ولن يظلمك أبدًا، وفعلًا هدأت نفسه بعد وقت وكأنه استسلم للأمر الواقع، ومع أننا لم تكن تجمعنا جلسات كأي اثنين في فترة خطوبة إلا أنه أحيانًا كان يحضر لي بعض الكتب والمجلات؛ كي أقرأها، وكنت كثيرًا ما ألقيها جانبًا، ولم أكن أعرف أن هذا يزيد الهُوَّة بيني وبينه، وبدأ طبعه يتغير

ويتحول إلى الحدة، ذلك الإنسان الطيب المبتسم دائمًا يُصبح حادًّا هكذا!؟ وقد كان قبل أن يخطبني له عمّي كأفضل إخوتي لي؟ ما الذي حدث!؟

المهم، مرت الأيام وتخرج من الجامعة، وتسلم عملًا في إحدى المدن القريبة لقريتنا، وبأمر عمي وأبي تزوجنا، وفي حدود إمكانات أبوينا، وانتقلت للعيش معه حيث يعمل، أحمل معي نصائح أمي بالطاعة العمياء لزوجي، إياكِ أن تقولي له لا، إياكِ أن تناقشيه في أمر، إياكِ أن ترفعي صوتك أمامه، البنت الواعية تعيش ولو في النار ولا تشتكي، لا يشعر بها أحد، بنت الأصول تتحمل حتى النهاية، احفظي سره حتى عني، اسهري على راحته، أعطِه حقه قبل أن يطلبه.. مضيت معه وأنا أحفظ تلك النصائح وعازمة كل العزم على تنفيذها، بل وأكثر منها، عشت معه وقابلتنا صعاب كثيرة كأي اثنين في بداية حياتهما، تحملتها معه ولم أشتكِ لأحد، ولم أشعره يومًا أني ينقصني شيء.

سهرت بين يديه وهو يذاكر العام بعد العام، ويكبر ويزداد علمًا وأنا كما أنا، كل همِّي في الحياة أن أوفر له الراحة ولا أحمله ما لا يطيق، لم أختلط بالجيران حتى لا يزورونني فيتضايق، كان إذا مرض سهرت عليه كأنه ابني لا زوجي، عرفته صغيرًا وعرفته كبيرًا، رأيته تلميذًا ورأيته أُستاذًا، فرحت معه بأول مرة نشر اسمه في جريدة، كنت أُقبِّل الجريدة وأضمها إلى صدري كالوسام وأنا فخورة به مع أنني لم أحاول مرة أن أقرأ ما هو مكتوب فوق الإسم؛ لأنني أعلم جيدًا أنني لن أفهمه فهو لم يقرأه لي يومًا، ولم يفكر حتى أن يُفهمني ما يكتب، وأنا بدوري كنت أخشى أن أعطله أو أضايقه فأكتفي بالنظر إليه وهو يكتب أو أنتظر إشارة منه بإعداد كوب الشاي الذي يحبه.

وهبته عمري كله، لم أعش لنفسي يومًا، إذا رضي هو أو سعِد أو حتى ابتسم لي مجرد ابتسامة؛ ضحكت لي الدنيا كلها، وأقول.. ماذا أريد أكثر من ذلك!، زوجي يحترمه ويقدره كل الناس، وهو إنسان طيب ويُعاملني أحسن معاملة، ولا يبخل عليَّ بما في يده، فماذا ينقصني؟! أنا أول امرأة يعرفها، وهو أول رجل عرفته، أنا من حملت همومه، أنا من كتمت أسراره، أنا من كبر بين يدي يومًا بعد يوم وعامًا بعد عام، أنا من تحملته في ضرَّائه وفرحت لسرَّائه، شاركته أفراحه وأتراحه، أنا من سهرت الليالي الطويلة بجواره، أنا من رأيت دموعه وأنتِ تعرفين معنى أن يبكي الرجال ويظهروا دموعهم أمام أحد، فكيف بعد كل ذلك يكون لغيري؟ كيف بالله قولي لي تأتي من تشاركني فيه، أنا ما قصَّرت في حقه يومًا، أنا ما خنته، أنا ما عارضته مرة واحدة في حياتي، فكيف يكون لغيري؟!

وضعت "سمية" يدها على أذنيها، ولم تعد ترغب في سماع المزيد؛ فصمتت الزوجة لحظات، ثم قالت: وها أنا أضع حياتي بين يديك فلتتصرفي كما تشائين وبما يمليه عليكِ ضميرك واستأذنت، وانصرفت.

(٧)

هـل يمكـن أن تكـون الـدنيا هكـذا؟ عنوانهـا الكـذب والخداع، تُغرينا وتُخفي عنا وجهها القبيح خلف تلك الستر المخملية الحمراء، بينما تنصب لنا الشراك خلفها حتى إذا وقعنا فيها نهشتنا مخالب من كنا نحسبهم أحبابنا، من كنا نبيع الدنيا من أجلهم، من كنا نحسبهم البراءة ذاتها، من سلمنا لهم أحلامنا، بل من كانوا يومًا حلمنا؟ تكون هذه النهاية! وبهذا الشكل المُهين! لطالما استكثرت تلك الفرحة على نفسي، وها هو الفراق يتلاعب بي بأشباحه قادمًا من بعيد، ثم ها هو يقترب تجاهي تحمله سحب سوداء مخيفة، الفراق.. ما أبشعها من كلمة، كيف لا أجرؤ على النطق بها مع أنها واقع لا محالة، كيف لا يقدر قلبي على تحملها ولا عقلي على تقبلها، يا ويحي، ماذا أفعل من دونه؟ لقد أحببته، أحببته حقًا، ولم أعرف الحب قبلًا، وما زلت أحبه، بل ما زال حبه يزداد كل لحظة عن سابقتها، ثم إنني أنا أيضًا زوجته، فلماذا فعل ذلك؟ لماذا لم يُصارحني بحقيقة وضعه؟

تبتسم "سمية" للذكرى، بينما أهدابها لا تتوقف عن أمطار حزن توشك أن تنفجر برعد مخيف، تُحادث نفسها بصوت مسموع: أتذكر الآن أول مرة تحادثنا فيها، ما أجملها من أيام!، إن أجمل لحظات العمر تلك التي يولد لنا فيها أشياء جميلة لم نكن نعرفها قبلًا، اتصلت أنا بكِ، بحثت بخاطري عن صديقة يمكن أن أتصل بها، وتذكرتكِ ووجدت يدي تمتد وتطلب رقمكِ أنتِ، فلِمَ أنتِ ولِمَ فكرت بك؟ لست أدري وكأننا كنا على موعد مع القدر وكأن كلٌ منا كان ينتظر الآخر، تحدثنا كثيرًا

ولم ينتهِ الحديث، لم تنتهِ الحكايات، كنت أطرب لسماع صوتكِ وكأنني أستمع لأجمل لحن، وكانت رعشة السعادة تغمرني بصوتكِ، شعرت بكائن جديد بيننا فقط، يخصنا وحدنا فقط.. اسمه الحب، الحب الطاهر الذي لا يُرى له سبيلًا سوى الارتباط الشرعي على المنهج الذي ننتمي إليه.. فهل أنهي كل ذلك الآن وأطوي هذه الصفحة إلى الأبد، وأبدأ صفحة جديدة خالية من المشاعر والأحلام، أم يجب عليَّ أن أسميها الأوهام؟

هل يتحطم صرح الثقة الذي بنيته؟ الثقة في نفسي والثقة في من حولي؟ أم أنتظر حتى أسمع دفاعاته؟ وأي دفاع سيجده؟ وأي كلمات يمكن أن تُبرر ذلك الخداع الكبير، أبدًا.. والله ﷻ لن أسامحه أبدًا، ولا يمكن أن أستمر في تلك الكذبة، فأنا إنسانة، إنسانة خُلقت لكي تبني وتُعمر لا أن تهدم وتفرق البيوت الآمنة، أنا التي يجب عليها أن تعالج القلوب الجريحة وتُضمد جراحاتها لا أن تجرح وتضيف آهات على الآهات، أنا التي ورثت العلم والحكمة عن أبيها لتكون مصباحًا يهتدي به الحيارى والتائهون، فلا يمكن أن تكون أسيرة حب يُعرِّضها لازدراء الناس الذين تحمل قضيتهم، وأبسط ما يقولون عنها أنها خربت بيتًا؛ كي تصنع لنفسها بيتًا، نعم، لست أنا من يمكن أن تستمر في هذا الطريق.

فما خُلقت أبدًا كي أعيش لذاتي، يا ويح قلبي، يموت وآمالي وأحلامي تنتهي وتندثر إلى الأبد، أحاول أن أنساه مرة وأحيا على ذكريات لقاءاتنا مرات ومرات، لماذا بعد كل ما حدث أراه أجمل حلم وأرق حلم وأرق من قابلت، أراه نجمًا عاليًا وجوهرة غالية يصعب عليَّ فقدانها، أراه ماضٍ لم أحياه ومستقبلًا ليس لي، أراه حاضرًا غامضًا لا هو قريب؛ فأعاتبه، ولا هو بعيد بما يكفي لأن أنساه، تتحجر الدموع بعيني وتتضخم الآلام حتى تصبح كالجبل، وأخاف بين كل تلك الظلمات أن يضيع بداخلي.. ماذا أفعل؟ إن خسرته خسرت كل شيء، وستصير الحياة مجرد أنفاس ومجرد أيام تمر، وإن قبلته خرجت من جلدي ومن رسالتي التي خلقت من أجلها، فماذا أفعل؟

كادت "سُمية" أن تجن من كثرة حديثها لنفسها وما زالت عاجزة عن الاتصال به، تخاف من مواجهته، وتخشى أن تسمع منه ما لا يُرضيها فتكون صدمتها أكبر، تذهب بين لحظة وأخرى إلى الهاتف وتحاول أن تطلبه، وعندما تصل إلى الرقم الأخير تنهي المحاولة، إذا دق جرس الباب أو الهاتف انخلع قلبها ظنًّا منها أنه هو.. فكيف ستواجهه؟ إنها لا تتخيل أبدًا تلك اللحظات البشعة، والتي سينهيان فيها كل ما يربط بينهما، تجلس في مواجهة الأريكة التي كان يفضل الجلوس عليها حين يكونا معًا، وتنظر للمكان وتبتسم قليلًا، وتفكر في أن تسامحه، ثم فجأة تتذكر قصة الخداع كلها فتهب واقفة وتقول: لا. لا، لن أسامح ولن أرضى إلا بالفراق، كيف استطاع أن يخدعني؟ كيف؟

تنتبه على صوت جرس الباب، وإذا به من كانت تنتظر.

(٨)

أسرعت الأم المكلومة إلى الباب خوفًا من انفعال ابنتها وتهورها، وقالت لها: أرجوك يا ابنتي، إن الأمور لا تعالج بهذا الشكل، التفاهم أحسن، ولا تفعلي ما تندمين عليه يومًا بأخذك قرار وأنتِ غاضبة، استمعي إليه أولًا، ثم نقرر بعدها ما يجب علينا فعله، دخل وجلس في نفس المكان الذي اعتاده، والذي طالما شهد أجمل لحظات بين اثنين تجمعهما أسمى وأرق المشاعر الإنسانية.. وسادت لحظات من الصمت الرهيب وجهت خلالها سهام النظر إليه، بينما الدموع الحارقة تنهمر من عينيها حتى بدأ هو بالكلام، قال لها: ممكن تسمعيني؟ اسمعيني أولًا، ولن أحاول أن أستدر عطفك، ولن أحاول التأثير على قرارك، كل ما أطلبه أن تهدئي وتسمعينني، وبعدها لكِ الحكم والخيار، حاولت أن تهدأ وجلست قبالته وانتظرت تبريره، ليس تبرير الزواج، وإنما تبرير إخفائه الأمر عنها، وبدأ الحديث.

أنا لن أروي لكِ كيف تزوجنا؛ لأنكِ علمتِ منها كل التفاصيل، ولن أعيب عليها خلقًا؛ كي أبرر زواجي منك، فقد كانت لي نعم الزوجة ولكن في حدود إمكاناتها، يكفي أن أقل إنَّ ما تقوم به تجاهي يمكن أن تقوم به أمي أو مربية أو حتى خادمة، لقد تزوجنا، وكان كل ما يربطني بها علاقة أخ يُشفق على أخته،

كنت أتمنى لها أن تتقدم وتتعلم وترتبط بمن يهواه قلبها ويختاره عقلها، لكن الأقدار أرادت شيئًا آخر، واضطررت أن أنفذ رغبة والدي ليس إجبارًا وإنما لسببين، أولهما: أنني لم أشأ أن أغضبه فيغضب ربي، والثاني: أن كل ما كان يشغلني وقتها هو دراستي، ولم تُقابلني تلك الفتاة التي تجعلني أعترض وأطلب منه أن يُعيد نظره، فتساوت عندي كل الفتيات، وقلت لنفسي سأعتبرها قدري ولأكمل طريق العلم وأشبع رغباتي كلها فيه.

تزوجنا، وكنت في وادٍ وهي في وادٍ آخر، أنا في طريق وهي في طريق، كنت أسابق الزمن؛ لأحقق نجاحًا تلو نجاح، أعود من مؤتمر لأجدها تقول: ماذا تحب أن تأكل اليوم، أنتهي من محاضرة لتقول: ماذا تفضل على الغداء غدًا، أنتهي من كتابة مقال وأحب أن آخذ رأيها فيه؛ فتضحك وتقول: إن طاولة العشاء معدة،ربما أكون قد انشغلت عن تعليمها بنفسي، انشغلت عن ذلك بدراساتي وكتبي، لكنها لم تحاول أن تتعلم، لم تحاول أن تسألني يومًا ماذا أكتب وعن أي شيء، فكرت كثيرًا في الزواج، فكثيرًا ما كنت أحلم بمن تجلس بجواري لا كسيد مع جاريته، وإنما كشريك مع شريكه، حبيب مع حبيبته، وزوج مع زوجته، نتناقش معًا، نتفق أحيانًا ونختلف أحيانًا، نغضب ونبتعد، ونتصالح ونقترب، كنت أتمنى أن تقول.. لا، ولكن تعرف متى تقولها، لكنني كنت أعود وأقول: إنها ابنة عمي وزوجتي المخلصة، ثم إن هذه إمكاناتها.. فما ذنبها ولماذا أظلمها!؟

أقرر وأتراجع وأصمم وأعود، وكان كل ما يمنعني من الزواج مرة أخرى هو الخوف من الله ﷻ أليس من الممكن أن أظلمها- ألم تُفنِي أجمل سنوات عمرها في خدمتي؟ فكيف تكون هذه نهايتها؟ ثم أعاود وأقول ومن قال إني سأظلمها ومن قال إني سأتركها؟ أليس هذا حق؟ أليس الاستمرار على ذلك الوضع هو ظلم للنفس؟ فلماذا أقبل بظلم نفسي؟ لم لا أستعمل حقًا كفله لي ربي وأتزوج ثانية، وأحفظ لها ودها، وأعطيها حقوقها كافة؟ لقد فقدت الإحساس بالحياة.. أحيانًا كثيرة كنت أتساءل وأنا وحدي في الليالي الطويلة كل ما أفعله أن أنتقل من كتاب لكتاب ومن جريدة لجريدة.. أسال نفسي هل أنا حقًا بين الأحياء؟ إن كل ما يربطني بهم هو مجرد الأنفاس التي تخرج الآن مني، إن لكل إنسان طاقة والإنسان وحده ضعيف وقد جبل على ألا يكون وحده.. هكذا خلقنا الله ﷻ، لقد قضيت عمري بأكمله وأنا أشعر أني نصف إنسان.. نصف روح.

حتى أحلامي كان ينقصها شيء، هذا الشيء عرفته ووجدته حين وجدتك أنت، شعرت بحياة جديدة تدب في جسدي، شعرت أني أولد من جديد بعد ما حسبت أني وصلت إلى نهاية المطاف، عرفت شعور الأرض الظمأى حينما يأتيها الغيث، تغير مجرى حياتي وأصبح للحظة عندي ألف معنى، فالدقيقة وأنا بعيد عنك كأنها دهر، والساعات تمر وأنا معك كلحظات سريعة، لأول مرة أعرف معنى أن تحب إنسانًا ويحبك إنسان، لقد كنت قبلك مجرد آلة تدور بميكانيكية كي تؤدي وظيفة،

أمـا الآن فأنـا إنسـان، وربمـا أؤدي نفـس الـدور لكنـي أؤديـه وأنـا إنسـان، تغيـر سـلوكي مـع كـل مـن حـولي حتـى معها، فرق كبير أن يتعامل الناس مع إنسان آلي وإنسـان لـه قلـب ومشـاعر، لقـد تغيـرت معهـا وحاولـت أن أكـون عـادلًا ورحيمًا في نفس الوقت، وأطبق معايير إنسانيتي الجديـدة، إنسانيتي التي عادت إليَّ بك أنت، وبحبك الـذي أحيـا الحيـاة بـداخلي ففاضـت علـى مـن حـولي، وأعـود فـأقول ألـيس مـن حقـي أن أعـيش كإنسـان؟ إنـهـا فشـلت فـي أن تعطينـي هـذا المعنـى خـلال سنوات طويلـة؛ فلمـاذا أحكـم علـى نفسـي أن أقضـي بقيـة عمـري فـي هذا العذاب النفسي، فـي حـين أنـه يمكنني أن أصحح مجرى حياتي وبما لا يضرها في شيء.

أعلـم أن غضـبك لـيس فقـط مـن زواجـي، وإنمـا مـن إخفـائي الأمـر عليـك، وأنـا أعتـرف أننـي مُخطـئ، ولكـن مـا دفعني إلى ذلك هو الخوف، الخوف من فقدانك، وأقسم أنـي كنت سأخبرك ولكني أرجأت الأمر وقلت لنفسي دعها تعرفك أولًا وتعـرف أنـك لسـت ممـن يمكـن أن يظلـم أو يحـابي، أعتـرف بخطئـي، لكـن لا يمكـن لهـذا الخطـأ أن يحكـم علـيَّ بالإعدام، إنكِ تعلمين مدى حبي لكِ وتشعرين به فلا تضيعي كل ذلك في وقت غضب ومن أجل خطأ واحد، أنـا فـي زمـن انعـدمت فيـه المشـاعر ومـن المسـتحيل تكرارهـا، صـدقيني سنخسر كثيرًا أنا وأنت على السواء لـو خسـر أحـدنا الآخـر، ولا يمكن لنا أن نعوضه ثانية، فمن بعدك سينهار بنياني كلـه، وذلك البيت الذي تخافين عليـه من الظلم صدقيني سيتلاشى؛ لأننـي لـن أقبـل أن أحيـا هذه الحيـاة الميتـة مـرة ثانيـة، إن مـن عُرف دفء الشمس صعب عليه أن يحيا حياة مُتجمدة مُظلمـة، ومـن ارتـوى بعد ظمـأ يـذوب خوفـًا لـو ذكـروه بمـا مضـى مـن سالف عهده.

ثم إنكِ تخافين من الناس ماذا سيقولون وأنتِ صاحبة الرسالة؟ إن أصحاب العقول لن يلوموننا أبدًا فهو شرع الله، وإن لم يكن لمثلي ومثلكِ فلمن يكون؟ فممن تخافين؟ من أولئك الذين لا يملكون أبسط قواعد الانتماء للدين والأرض؟ إنهم لا ينتمون إلا لذواتهم وأفكار خاطئة توارثوها، وحتى هذه الموروثة لا يحافظون عليها، فلم ندع لهم دفة حياتنا كي يوجهونها كيفما شاءوا في حين أننا نحن من يجب عليه أن يتحكم بمقاليد الأمور كلها؛ لأننا نحن من نحمل الفكرة الصحيحة لا هم، نحن من يجب أن يقوم بالتطبيق الكامل لهذا المنهج، أليس هذا ما اتفقنا عليه؟ أنا لم أكذب عليك ولم أتعمد الكذب، إنما أخفيت شيئًا إلى حين، وأعترف مرة ثانية بالخطأ، لكن بالله عليك لا تجعلي خطئًا واحدًا مُبررًا لقتلي وإعادتي إلى ما لا أطيق، هامت "سمية" مع نفسها ألمًا وحيرة، ترى الأيام تمر مَرَّ السلحفاة الخائفة، ساكنة صامتة صمت القبور على صخبها، الشوارع فارغة على زحامها، العيون دامعة والآهات مُلتهبة، والقلوب جريحة وحيدة، وأرواح هائمة لا تدري أين المسير، والأحلام تموت بين أيدينا، ولا نملك لها شيئًا إلا بكاء الأطلال.

(٩)

ما هذا الذي فعلت؟ هل بنيت بيتًا من رمال على شاطئ مياه غاضبة؟ أهذه هي الدنيا، أهذه هي الحياة، بئس والله هي الحياة، بئس الحياة تلك التي يكون فيها كل ما نتمناه فيها أن تنتهي تلك الحياة، بئس الحياة تلك التي نضطر فيها إلى دفن أحلامنا حية ونجدها تصرخ أمامنا وتستغيث بنا ونحن بغبائنا نجهز عليها؛ إرضاء لبعض من لا يقدرون ولا يفهمون معنى الحياة، أتكون تلك هي النهاية؟ أيكون عليَّ الرحيل؟ الرحيل إلى اللاشيء.. اللا وجود؟ الرحيل إلى التلاشي؟

أم يجب عليَّ الصمود والمواجهة، وأخذ حقي ولو بالقوة وتوضيح رؤيتي للناس؟ لست أدري.. لست أدري إن كنت حقًا قادرة على المواجهة والمطالبة بما هو لي، إنني لست ملكًا لنفسي، أنا ملكٌ لهم، أنا منهم.. لكنني مسئولة عنهم، وهذه المسئولية تتطلب مني التنازل عن كثير من الحقوق.. أم أن هذا أيضًا من واجباتي؟ أيكون ذلك من كامل تطبيق المنهج؟ أستمر وأشتري حياتي، وربما يأتي اليوم الذي يعود فيه الناس إلى أصل شرعتهم ويفهمون، وساعتها أكون قد فزت بكلا الأمرين؟ والله لست أدري ماذا أفعل؟ لست أدري....



المساء حضن ، دفء ، سعة ، انتظار ، حديث ممتد لا ينتهي ، وحكايات بغير نهاية ، وكي تكتمل الحكاية يجب أن نمسك باطرافها ، بدايتها ونهايتها ، وليس كقلب الأم يحوي

الحكايات كلها

والأحاديث كلها

والآلام كلها

وللمساء أحاديث أخرى



أمٌّ

وقبل الختام، أردت أن يكون مسكه وأطيبه وأحسنه وأهذبه، كنت قد كتبت عن الأم وجعلتها بداية صفحاتي تلك، لكني حين أردت تزيينها فجعلت الحديث عنها ختامًا، والختام لم أقصد به النهاية، وإنما أردت به الاستمرارية، وحين أردت الكتابة عنها، لم أجد تقديمًا مناسبًا يسبق صفحاتها، واكتفيت بكلمة مقتضبة هي (للمساء أحاديث أخرى)، هي ثلاث كلمات، لكنها تكفي لقول ما أبغيه في حديثي عن الأم، فالحديث عنها لا يجوز أن يكون في أمسية وينتهي، بل الحديث عن الأم قد يستغرق كل الأمسيات، مثلما تُفني هي عمرها ليس في أحاديث، وإنما في بذل صامت مع شعور بالعجز عن العطاء أكثر، حتى العنوان فكرت كثيرًا فيه، كتبت "قلب أم" و"عطاء أم" و"أحلام أم"، لكني وجدت أن كلمة "أم" مجردة تعني أكثر من كل تلك التخصصات بكثير، تتعداها لتبلغ بها الرحمة المقياس، الرحمة التي تقاس بها رحمات الأرض، والعطاء المنزوع الغاية سوى العطاء ذاته، والحب المجرد للحب، أما عن نظرة الأم فحدِّث كما تشاء، عن القلوب المتحركة على أقدام تُريد أن تمشي على الأرض بدلًا منها، حين تنظر الأم إلى قطعة منها على الأرض؛ فإن قلبها هو ذلك الذي يحاول تحريك خطاه ليسابق زمنه، ويتعدي مرحلة الحبو، قبل أن يقع تتلقفه روح الأم، لتقبل قدميه التي وضعهما على الأرض في أولى خطواته عليها، فلماذا يحلو للأم تقبيل قدمي وليدها؟ لست أدري سوى أنها أم.

أما البنت، فلها مع الأم شأن آخر، يتقطع قلبها حين تبكي ابنتها، وبكاء البنات ليس كبكاء الصبية، بكاء البنت ضعف، والأم تكره ضعف ابنتها، تريدها قوية عزيزة، يخفت لها صوتها، وتُطيل إليها نظرها حبًّا ورحمة، تكبر البنت يومًا بعد يوم، لكنها تظل في عين أمها طفلتها المدللة التي لا تكبر، صغيرتها المقربة، وحين تتعدد البنات تتعدد الأوجاع، فكل بنت وجع، كما أن الضعف وجعٍ، وكلما مرت الأيام زاد الوجع، ليس همًّا وإنما خوفًا عليها، لو كانت تستطيع الأم أن تِتلقى الدروس مكان أبنائها لفعلت رحمة بهم من مشقة تلقيها، لو كانت تستطيع أن تحمل عنهم حر الشمس أو برد الشتاء لخبأتهم بداخلها حتى لا تؤثر فيهم الأيام، لو كانت تستطيع أن ترافقهم في كل صغيرة وكبيرة لفعلت حتى لا يتحملوا أدنى مسئولية، لو استطاعت أن تغلق عليهم أعينها لفعلت حتى لا تجرحهم أعين الناس، لو استطاعت أن تعمل عمرها كله وتريحهم من مشقة الدنيا لفعلت حتى لا ترى في عين أحدهم نظرة عجز أو احتياج أو تعب وإن قلَّ.

إن استطاعت أن تقتطع السعادة جلها من السماء وتجعلها نصيبهم الأبدي لفعلت حتى لا يحزنوا أبدًا، والأبناء لدى الأم كلهم واحد وإن حسبوا غير ذلك، حتى لو ظلم أحدهم أخاه أو أخطأ في حقه، نجدها تثور وربما تضربه بقسوة، لكنها أبدًا لا تقبل أن تمتد إليه يد آخر غيرها عليه بسوء، فهي تضرب بيدها الرحيمة، بل هي تعاقب بقلبها لا بيدها، تعاقب لأنها تريد لهم الكمال، ولا تقبل أن يعاقبهم غيرها،

وحين يحدث فإذا هي الحنون الرحيمة تتحول لبركان غضب وبئر حزن أن طال أحدهم أبناءها بعقاب قد يكونوا يستحقونه في غالب الأمر، والأم هي أم بقلبها حين ترى كل طفل مثيلٍ لأبنائها في مثل سنهم أو تصرفاتهم أو مُقربًا إليهم، قد تطيل النظر لأحدهم لأنه يتقدم على فعل فعله ابن لها، تتقرب إليه بالعطاء مثلما تفعل مع ابنها لمجرد أنه يشبهه في أمر ما.

وقد يظن أحد الأبناء أن أمه تحب أخاه أكثر منه، أو أنها تفضل البنت على الولد مثلًا أو العكس، بينما من يعرف قلب الأم يفقه جيدًا أن هذا كله سوء فهم، قد تبدي الأم ودًّا أكثر لولد عن ولد وذلك فقط لاحْتياجه لإظهار الحب له في هذا الوقت، وقد تقسو على أكثر من يحبها من أبنائها؛ لأنه تود منه ما هو أكبر، ولأنها تعلم أنه يستطيع أن يكون أفضل، ولأنها تريده في منزلة أعلى، قلب الأم لا يفرق بين الأبناء، وإنما بفطرتها النقية تستطيع أن تُعبر عن حبها بالكيفية المناسبة في الوقت المناسب والظرف المُناسِب، فتعرض عن أحدهم، وتقترب من آخر لتُربي، وتُعلِّم، وتغرس قيمًا هم في حاجة إليها ولا يدركون، أذكر أن أمًّا قالت لي: وددت لو صليت مكان أبنائي لو علمت أن الله يقبلها شفقة بهم من إيقاظهم للصلاةٍ وهم نائمون، لكن لعلمها أنها لن تُجديهم لو أدت الصلاة بدلًا عنهم فتوقظهم بعقلها خوفًا عليهم بقلبها.

حين يجوع الابن يعض الجوع قلبها، تنهض بكل سرعة لتشكل له أفضلٍ مائدة ولو من أقل شيء، تموت ألمًا إذا اشتهى الابن شيئًا ولم تجده، فإذا كانت امرأة قوية صنعت له مما لديها أحب مما تمنّى، وإن كانت قليلة الحيلة جلست تبكي وكأنها حُرمت الدنيا وما فيها بمن فيها، وإذا أردت أن تعرف قوة الأم، فاخْتبرها في الاقتراب بالأذى لأحد أبنائها، في هذه الحالة ثق أنك لن تلقَ امرأة عرفتها يومًا، وإنما ستقابل قوة هادرة تقتلعك من جذورك في الأرض حماية لهؤلاء الأبناء، وقد نعلم من هذا سر بقاء مذاق طعام الأم لدى الإنسان حتى لو ماتت وتركته في الدنيا مع أحبابه من زوج وأبناء، ليس السر هو الإتقان، وإنما الحب فيه، إن الأم تحب أن تطعم أبناءها من أكثر ما تحبه هي، كثيرًا ما تدعي أنها ليست جوعى، أو أن الطعام يؤذي معدتها حتى يأكلوا هم ويهنئوا إذا كان الطعام قليلًا لا يكفيهم جميعًا، أو إذا شعرت أن ابنها يريد المزيد منه، تُطرب حين يأكلون وتشبع لشبعهم وتستريح لراحتهم وتلتمس الدفء بتدفئتهم، هي لا تعلم أنها تضحي، بل تتحرك بقلب وحب دون مَنٍّ منها أو أذًى.

إنها الأم التي لا تكفيها صفحات، كما لم يكفِ عمرها كله عطاء، بل ودت كل أمٍ أن تبقى راعية لأبنائها حتى وهم كبار وصار كلٌ منهم أمًّا وأبًا، يظلون دومًا في عينيها صغار، كلنا يشتاق لحضن أم، قلب أم، نظرة أم، حنان وحنين أم، طبق من يد الأم، كوب مشروب دافئ من يد الأم، حتى قطعة خبز من فم الأم.

وللأم كتب الكثيرون نثرًا وشعرًا، وقفت حائرة بين كل ما خطته الأقلام قديمًا وحديثًا، ولأن الرائعين محمود درويش وعبد القادر أمن قد مسا حنينًا لديّ؛ فقد اخترت كلماتهما لتتذوقونها معي...



إلى أمي

محمود درويش

أحنُّ إلى خبزِ أمّي،
وقهوةِ أمّي، ولمسةِ أمّي،
وتكبرُ فيَّ الطفولةُ
يومًا على صدرِ يومِ
وأعشقُ عمري لأنّي
إذا متُّ أخجلُ من دمعِ أمّي.
خذيني، إذا عدتُ يومًا
وشاحًا لهُدبكْ
وغطّي عظامي بعشبِ
تعمّد من طُهرِ كعبكْ
وشدّي وثاقي..
بخصلةِ شَعر..
بخيطٍ يلوّحُ في ذيلِ ثوبكْ
عساني أصيرُ إلهًا
إلهًا أصير..
إذا ما لمستُ قرارةَ قلبكْ
ضعيني، إذا ما رجعتُ
وقودًا بتنّورِ ناركْ



وحبلِ الغسيلِ على سطحِ دارِكْ
لأني فقدتُ الوقوفَ
بدونِ صلاةِ نهارِكْ
هرمتُ، فرُدّي نجومَ الطفولة
حتَّى أُشارِكْ
صغارَ العصافيرِ
دربَ الرجوعِ..
لعشِّ انتظارِكْ..



الأم تَسْبيحُ القَوَافِي

عبد القادر أمين

مَرَّتْ عَلَى شَفَـةِ السُّطُور حُرُوفُهَا
فتَمَايَلَتْ طَـرَبـًا وَزَادَ أريجُهَـا
جَبَـلُ المَعَـانِـي خَرَّ عِنْدِي سَاجِدًا
لَمَّا رَآنِـي بِالْقَصِيـدِ أبُثُّهَـا
بَعْضَ الحُقُوقِ وَلَسْتُ نَفْسِي ظَالِمـًا
حَاشَى أكُونُ. فكَيْـفَ أمِّى ظُلْمُهَـا
مِعْطَـاءَةٌ فِي غَيْـرِ مَـنٍّ حِلْمُهَا
ضَمَّ الصَّغِيرَ مَـعَ الكَبِير عَـهدْتُـهَا
الْحُـبُّ عِنْـدِي أنْ أغَنِّـى باسْمِـهَا
فالحَـاءُ مِنْ لُغَـةِ الأمُومَـةِ بَاؤُهَا
الأمُّ مَـا جَـادَ الزَّمَـانُ بمِثْلِهَـا
تَعْلُـو عَلى كُـلِّ النِّسَاءِ خِصَالُـهَا
أمٌّ تُـوَزِّعُ كُـلَّ صُبْــحٍ قَلْبَـهَـا
رِزْقـًا وَمَا عَرفَ القَطِيعَةَ لَيْلُـهَا
فَكَأنَّـهَـا وَالكَـوْنُ طُـرًّا جَاثِمـًا
تُعْطِـى وَيَأبَى أنْ يَضِنَّ عَطَاؤُهَا
نَفْـسٌ تَـذُوبُ إذا رَأتْنِـي مُعْوَذًا
وَلطالمَـا فَـكَّ الكُـرُوبَ دُعَاؤهَا
مَا أضْيَـعَ الدُّنْيَـا بفَقْـدِ أمُومَـةٍ

شَابَتْ عَلَى صَدْرِ الفِطَامِ عِيَالُهَا
وَلَوَاقِحُ الألفَاظِ تُثْبِتُ أَنَّهَا
رَحِمٌ وإنـِّي لِلْقَصِيدَةِ فَحْلُهَا
تَتَرَقْرَقُ الكَلِمَاتُ مِنْ فِيِّ الْهَوَى
وَالصَّخْرُ يُورِقُ مَا حَمَتْهُ ظِلالُهَا

الأمُّ تَسْبِيحُ القَوَافِي سَجْدَةٌ
تَسْتَغْفِرُ الأَوْرَاقُ إنْ أهْمَلْتُهَا
الأمُّ تَحْنَانٌ وَتَتْويجٌ وَتِرْ
يَاقُ الصُّدُورِ عَلَى السُّطُورِ مِدَادُهَا
أمِّي التِي سَبَتِ الفُؤادَ رَهِينَةً
إنَّ القيُودَ لدَى المُلُوكِ فِكَاكُهَا
مِنْ وَجْهِهَا فِي كُلِّ قَلْبٍ قُبْلَةٌ
وَلِكُلِّ كَعْبٍ صَامِتٍ خُلخَالُهَا
وَحَقائِبُ رُوحِي تَحُلُّ برُوحِهَا
وَطَنًا وَقَدْ وَسِعَ المُسَافِرَ صَدْرُهَا
لَهَا مَا مَلَكْتُ وَمَا سَأمْلِكُ طَاعَةً
حَتَّى الْحَيَاةُ لَوْ انَّهَا تَحْتَاجُهَا
وَبَحَثْتُ عَنْ مَعْنًى يُضَافُ كَأنَّنِي
عَنْ إبْرَةٍ فِي كَوْمَةٍ فَتَّشْتُهَا
قَدْ كُنْتِ أوَّلَ كِلمَةٍ أَحْبُو بِهَا
إنْ رُمْتَ نُطقًا جَاءَ عِشْقًا مِيمُهَا
أتحَسَّسُ الخُطُواتِ فَوْقَ ذِرَاعِهَا
حَتَّى اسْتَوَيْتُ وَلمْ يَضِقْ بِي ذَرْعُهَا
أمٌّ وَمَا قَلَّتْ حُرُوفُكِ تُهْمَةً
إنَّ البَلاغَةَ كُلَّمَا أوْجَزْتُهَا

تَأتِينَ فِي وَلَـهٍ. بُنَيَّ تُحِبُّنِـي؟
أوَّاهُ أمِّـي قَدْ مِـرَارًا قُلْتُهَـا
قَطْعُ الوَتِينِ يَهُونُ عِنْـدِي إنَّمَا
لا تَسْتَطِيعُ فِرَاقَ عَيْنِـي أخْتُهَـا

مَا زَالَ نُورُكِ فِي الظَّـلام قِلادَةً
يَـزْدَادُ مِنْ فَـرْطِ الضِّيَاءِ بَرِيقُهَـا
مَا زِلْـتِ تَحْتَلِّيـنَ كُـلَّ بِدَايَـةٍ
لِلْحُبِّ تَبْدُو فِي الضُّلوعِ شُخُوصُهَـا
بَدَرَتْ إلَيْـكِ فَوَاكِـهُ الشِّعْرِ الَّتِي
مَا إنْ أشَـرْتِ تَسَاقَطَـتْ ألْفَاظُهَـا
يَا مَنْ سَمَوْتِ عَلى القَصَاصِ كَأنَّمَا
نُورًا خُلِقْتِ وَلَيْسَ تَحْوِيـكِ النُّهَـى
إنِّي لَزِمْـتُ جِـوَارَ خَطْـوِكِ تَحْتَهُ
فَالْجَنَّـةُ الْعَذْرَاءُ هَذَا مَهْرُهَـا
تُبْـدِى فِعَـالُـكِ مَا أرَدْتِ خَفَـاءَهُ
وَكَـذا يَفُـوحُ مِنَ العَبَـاءَةِ مِسْكُهَا

الخاتمة

ككل خاتمة فكرت أن أقدم بعض ما لم أقله في هذا الكتاب الذي أعتبره " أنا"، بعضًا مني، وبعضَ مشاعري، لكن طريقة السرد حين نتحدث عن المشاعر لا تستهويني، حياتنا متغيرة من إنسان لإنسان، بل وقد تتغير حالة الإنسان ذاته من ساعة لأخرى ومن موقف لآخر، ومن مرحلة عمرية إلى مرحلة عمرية أخرى.

حياتنا ليست حدوتة تُحكى، وليست موضوعًا إنشائيًّا نبدع فيه أدبيًّا فنصيغ ما ليس فينا، ونتعلم ما لا ينفعنا، اخْتصارًا سأكتب خاتمة بلغة أعرفها وأتقنها، هي خواطر، تعلمتها من مواقف في حياتي أنا شخصيًّا، وبعضها تعلمته من التصاقي بالناس ووجودي بينهم، وبعضها تعلمته من فطرة خلقني ربي عليها، ربما لم أهذبها، وربما لم أراجعها، فقط تركتها كما هي...

أذكر حين كنت صغيرة كيف كنت أفكر، وحين تقدمت بي الأيام، فوجدت أن ما تغير هو لغة تعبيري لا أكثر، هي نفس المشاعر بنفس درجتها، بنفس ضعفها وقوتها وانحناءاتها وانطلاقتها، هي كما خلقها ربي وكما عرفت نفسي..تلك خواطري، وبعض تجاربي، كتبتها بلا تفصيل، وسأدع لكل إنسان (وأحب أن أذكره هكذا، إنسان لا قارئ؛ فالإنسانية هي أروع ما فينا) يكتب تفاصيله كما يريد، علّه يعبر عنها أفضل مني، سأترك لكم حكاياتكم تسطرونها كيفما شئتم بكامل حرياتكم التي أقدرها فيكم..

أنت أيها الإنسان، أروع ما في هذا الكون فكن كما أنت إنسان، فلا تتعاملوا مع القلوب وكأنها نقاط ضعفكم؛ فإنها

أقوى ما لديكم..

أحب، اغضب، اصرخ، تكلم، صرّح، كن إنسانًا كما أنت ولا تخجل من كونك إنسان.

فقط..

لا تجرح..

لا تجرح.



عن الكاتبة

أنا حروف..

كل حرف عشته، كل تجربة خضتها، كل حكاية سمعتها، كل كتاب قرأته، كل حقبة زمنية اطلعت عليها وكنت في وجداني جزءً منها، كل بطلة أحببتها، أو حزنت من أجلها، أو حتي غضبت منها وودت لو كانت أقوى.

أنا أمنية..

أنا تلك الأمنية التي ظلت حبيسة صدر صاحبها فلم يملك الفعل، ولم يملك حتي البوح.

أنا فرحة..

أنا تلك الفرحة التي لم تستطع صاحبتها أن تفرحها فخبأتها في صدرها خوفًا وألمًا وحرصًا عليها فاكتفت بها ومنها وعاشت كما الطفل لايؤنس وحشته سوى دقات قلب أمه.

أنا غضب..

أنا بركان ثائر يصب جام غضبه علي كل طاغية، ظالم، مستبد، لا أقبل الخنوع ولا أحب الضعف ولو كان ثمنه سنوات عمري الباقية إن كان ثمة سنوات.

أنا تاريخ..

أنا عمق تلك البلاد زمنًا، رأيت أنين ولادتها عبر تاريخ الأنظمة العادلة حينًا، والمستبدة أحيانا، حييت بين شعوبها، بسطاؤها، أحببتهم عبر العصور جميعها، عرفت أحلامهم وأوجعتني آلامهم، شعب شيمته الصبر وعنوانه الرضا وسبيله الانتظار.

أنا حلم..

حلم فتاة يتولد في قلبها الحب للمرة الأولي فتبتسم وتبكي وتفرح وتستوحش وتسير خلف السحاب هائمة بين أطراف خيوط الشمس والقمر متنلقة.

حلم.. فتي نبت علي ضفاف النيل بين الثمار المتغيرة صيفًا وشتاءً لتولد مع محصول رغبة جديدة في قلبه الحائر الباحث عن الحقيقة بين سنابل القمح وثمار الموز المبتلة بعطر الندى، كل صباح يتساءل بقلب لا يحده الخوف أين الله؟ أين الخالق؟ فتجيبه الشمس المُتهادية علي صفحة النهر الصبوح، ويُجيبه ضوء القمر المُتهادي في صحراء تحتضن في عمقها الماء، وحبات من القمح الذهبي المتلألئ وبعض خيوط القطن البيضاء في حضن خضرة الأرض التي لا تعرف الموت، هو في قلبك، هو الله الذي لا إله إلا هو، الخالق البارئ المصور،

تجده تجاهك وعن يمينك وعن شمالك، تجده في صرخة وليد ورحمة قلب أم ووجود الأرض الطيبة، تجده في شربة ماء زلال يناديك أن اسجد واقترب، فيكبر الحلم ويتحول توحيدًا لتنطق به الأرض بركة وحبًا.

حلم.. أم تحتضن وحيدها بخوف حين تري حاضرها، فتحلم بمستقبل أفضل، بمقعد في مدرسة يجلس عليها بكرامة، ومعلم يؤدبه كأبيه، ومنهج مدرسي يُعلمه كيف يسير بخطي ثابتة إلي الغد الأفضل، تحلم ببضعة جنيهات كي تقتني أفضل الثياب وأفضل الطعام لذلك الذي نبت من دمها وعظامها ولحمها وأخذ من نفسها مختارة راضية سعيدة ما يليق به كإنسان، مجرد إنسان له الحق في أن يحيا ككل إنسان.

تحلم بوظيفة في انتظاره تضمن له أن يمر يومه دون جوع، دون احتياج، دون أن تتعدى عليها حاجة من الاحتياجات الأساسية لكون الإنسان إنسانًا، دون عجز عن ممارسة حقوقه المشروعة دون فضح لآدميته لمجرد أن يطالب ببعض طقوسها.

حلم.. إنسان نما بين شوارعها فنبت حبها في قلبه كحب أمه، حب فطري تعلمناه صغارًا، حب الوطن من الإيمان، وحين أراد أن يمارس بعض حبه طغت عليه وطاردته وعلمته معني الحرمان، فلا عمل، ولا مال، ولا سبيل حتى إلي الهجرة سوى في قوارب الموت، فالموت يحيط به من كل مكان وما هو بميت، وطن كالحريق هو، تمنيت لو كان وطن من الجنة.

إنسانة أنا ولست مجرد امرأة، أحمل في قلبي أحلام الإنسان، الكرامة، الحرية، العدالة، أحببت تلك الأرض ولن اغادرها لوطن آخر، فإن لم أستطيع تحقيق حلمي على أرضي التي نبتت منها، فلست على استعداد لأن أشتري وطنًا وأستبدله بآخر، فإما أن أقهر القهر ببلادي وأصنع منها جنتي التي أحب، أو أموت دون حلمي لها، ولم لا وبلادي تستحق؟ لم لا وأهلها يستحقون؟ لم لا وغيرها ليس أفضل منها ونحن نستطيع إن أردنا؟ وتلك قضيتي، الإرادة، أن أثير في أهل بلادي تلك الإرادة بأن يصنعوا جنتهم بأيديهم، فالجنان لا تُهدي، والحريات لا توهب، والحضارة تُصنع صُنعً.

قضيتي الإنسان، أن يكون إنسان كما خلقه ربه، حرًا، عزيزًا، كريمًا، مُتعاليًا على الدنايا، يملك الدنيا بين يديه، يسخر الأرض لربه ويملكها ولا تملكه، ليس ملكًا لأحد، ليس عبد لأحد، لا ينحني إلا لخالقه، حقه ينتزعه انتزاعًا ويحرسه بالليل ويعمل عليه بالنهار، إنسان رباني كريم.

ولست في مهمتي بدعًا من الناس، ولست فيها وحدي، فبلادي الطيبة دائمة الجود بالخير، الخير فيها لا ينضب أبدًا، هو في أرضها مغروس منذ خلق الله الأرض وستعود كما كانت يومًا جنة الله في الأرض.

مهمتي الإنسان وليس أغليولا أعز ولا أكرم من تلك مهمة، فهل يعود الإنسان كما كرَّمه ربه وأراده إنسان؟

أنا.............

أنا كلماتي باختصار

عزة مختار

الكاتبة في سطور

عزة مختار



بكـــالوريوس إعـــلام جامعـــة القاهرة.



- عضـــو رابطـــة أدبـــاء الشـــام بلندن.
- رابطة أدباء الحرية.

أكتب في بعض الصحف والمواقع الإسلامية والإخبارية والتربوية

- موقع الجزيرة.
- موقع ينابيع تربوية.
- موقع علامات أون لاين.
- بوابة الحرية والعدالة.
- عضو رابطة أدباء الشام بلندن.
- مواقع أدبية تونسية وعربية.

❤ مقالاتي:

- لي أكثر من مائتي مقالة في الأدب والتربية والسياسة والأسرة

- استشارات تربوية علي موقع أزهري.

❤ المؤلفات:

- كتاب اطمئن فلست وحدك

الناشر المكتبة العصرية بالمنصورة.

- كتاب عن حياة السيدة عائشة

الناشر المكتبة العصرية بالمنصورة.

- كتاب الثلوج الدافئة

الناشر المكتبة العصرية بالمنصورة.

- كتاب المنهاج في الدروس المسجدية للنساء

الجزء الأول.

- كتاب المنهاج في الدروس المسجدية للنساء

الجزء الثاني- الناشر المكتبة العصرية بالمنصورة.

- كتاب رمضان الأخير

الناشر مكتبة بالقاهرة.

الفهرس